مكتبة

دراسة

سوزان سونتاج

مكتبة ٨٧٤

المرض كاستعارة

ترجمة: حسين الشوفي

مكتبة | 874
سُر مَن قرأ

المرض كاستعارة

دراسة

اسم المؤلف: سوزان سونتاج
عنوان الكتاب: المرض كاستعارة
ترجمة: حسين الشوفي
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2021

Author: **Susan Sontag**
Title: **Illness as Metaphor**
Translated by: **Hussein Al-Shoufi**
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**
P.C.: **Al–Mada**
First Edition: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

ILLNESS AS METAPHOR
Copyright © Susan Sontag, 1977, 1978
All rights reserved
AIDS AND ITS METAPHORS
Copyright © Susan Sontag, 1988, 1989
All rights reserved

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq: Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

9 7 2022
مكتبة
t.me/t_pdf

سوزان سونتاج

مكتبة | 874
سُر مَن قرأ

المرض كاستعارة

ترجمة: حسين الشوفي

مكتبة
t.me/t_pdf

المرض كاستعارة

المرض هو الجانب المظلم من الحياة. إنه مواطَنَة مرهقة وشاقة، فكل شخص ولد مواطناً في مملكة الأصحاء، وفي الوقت نفسه يُولد مواطناً أيضاً في مملكة المرضى. ومع أننا جميعاً نفضل أن نحمل جواز سفر مملكة العافية، فنحن مجبرون آجلاً أم عاجلاً على الأقل لفترةٍ من الزمن، أن نعد أنفسنا مواطنين في مملكة المرض.

أريد أن أتكلم، ليس عن معنى الرحيل إلى مملكة المرض والعيش هناك، ولكن عن الأوهام العقابية أو العاطفية الملفقة عن المرض، وليس عن الانتقال مكانياً، بل عن نماذج لهذه الأوهام التي أخذت طابعاً أو صفاتٍ قومية. إن موضوعي ليس المرض نفسه، بل استعمالات المرض كاستعارة. موضوعي هو أن المرض ليس استعارة، وأن أصدق نظرةٍ إلى المرض، وأكثر الطرق صحةً في نظر الشخص المريض لمرضه، هي أن يتطهر منه، وأن يكون أشد الناس مقاومةً للتفكير البلاغي واستعمال الاستعارات. إلا أنه من الصعوبة بمكان النظر إلى السكن في مملكة المرض دون تحيُّزٍ، باستعمال الاستعارات التي وَصَفت المرض وصورته.

إنني أكرس هذا التحقيق لشرح هذه الاستعارات وتفنيدها، وتحرير النظرة إلى المرض منها.

مقدمة المترجم

أزعم الآن أن معرفتي بالمؤلفة هي أعمق وأدق من معرفتي بها قبل ترجمتي لكتابها، الذي طلب مني أن أترجمه من الإنكليزية إلى العربية، والذي كان بعنوان «استخلاص وقصص أخرى». الآن أستطيع القول: إنني أعرف هذه المؤلفة. أعتقد جازماً أنها من كبار مثقفي العالم الراهن. هذا الكتاب «المرض كاستعارة» هو أوضح ما قرأت عن تاريخ الأمراض في أوروبا، فهو يلقي الضوء على معاني الأمراض الاجتماعية للمرض عبر التاريخ، منذ اليونان القديمة إلى القرن العشرين. هي مؤلفة علمانية لا تسمح لشخصيتها أن تتأثر بأي من التقييمات المعاصرة للعلمانية، والالتزام بمصالح الإنسان كمخلوقٍ مسؤول عن نفسه وعن غيره على كرتنا الأرضية، ويريد صلاح البشر من أجل الخير العام للبشرية جمعاء.

آمل أن أكون قد التزمت بهذا الفهم لثقافة المؤلفة المحترمة ومراميها.

الجزء الأول

هناك مرضان قد أُثقلا بزخارف الاستعارة إلى حدٍ كبير وبشكلٍ متشابه: السل والسرطان. إن الأوهام التي أثارها السل سابقاً، والتي يثيرها السرطان الآن، هي استجابات لمرضٍ نزق وعسير العلاج -أي لمرضٍ غير مفهوم- في هذا العصر الذي زعم الطب الأول فيه ومشروعية وجوده أو مقدمته الأولى هي أن كل الأمراض يمكن علاجها. هذا المرض هو بالتعريف عبارة عن أُحجية أو لغز، لأن سببه كان مجهولاً وطالما ظلت إسعافات الأطباء ومساعداتهم غير ناجعة، فقد اعتُقِد أنه مرض ماكر وأنه سرقة للحياة، عنيد ولا يمكن علاجه. أتى دور السرطان الآن لأن يكون المرض الذي لا يقرع الباب قبل دخوله، ويقوم بدور المجرب الذي يغزو الجسم بسرية تامة ودون رحمة أو شفقة. هذا وسيحافظ السرطان على دوره إلى اليوم الذي سيصبح العلم به وبأسبابه وكيفية علاجه أموراً واضحة لعلوم الطب، مثلما أصبح السل.

ومع أن الطريقة التي يربك ويحير المرض فيها الطب، خلف ستار من التوقعات المتفائلة، السل سابقاً والسرطان الآن، فإنه يثير الرعب والرهبة في النفس. إن أي مرض عولج كأحجية ويرعب الناس إلى حد كبير سيُعد مرضاً معدياً، إن لم يكن حرفياً سيكون أخلاقياً. وهكذا فإن عدداً كبيراً من مرضى السرطان يجدون أن الناس يتجنبونهم، حتى الأقارب والأصدقاء، وهم دائماً خاضعون لإجراءات التعقيم من قبل أفراد أسرتهم، وكأن

السرطان مرض معد مثل السل. إن الاتصال بشخص مصاب بمرض يُعد لغزاً، يبدو حتماً إثماً أوخطيئة؛ والأسوأ من هذا، يُعد انتهاكاً لأحد المحرمات. إن مجرد أسماء مثل هذه الأمراض تبدو وكأن لها قوة سحرية. في «آرماناس» لـ «ستاندال» (1927)، ترفض أم البطل أن تلفظ كلمة «سل»، لخشيتها من أن لفظ هذه الكلمة سيسرّع من موت ابنها. وقد لاحظ «كارل مينغر» في «ذا فايتل بالانس» أن مجرد كلمة «سرطان» تقتل بعض المرضى الذين لم يخضعوا بعد للإيذاء والضرر الذي يُعانون منه. وتُقَدّمُ هذه الملاحظة دعماً للذين لديهم ولاء لأسرهم أو لمعتقداتهم، والذي هو بالضرورة مناهض للتفكير العقلي، وذلك دعماً للتعاطف السطحي المهم جداً في الطب المعاصر وفي الطب النفسي. ويتابع «مينغر»: إن المرضى الذين يستشيروننا بسبب معاناتهم وتوترهم وعدم قدرتهم، لهم كل الحق في الامتعاض والاستياء من وصمهم بتسميات مرضية لعينة. ويقترح على الأطباء عامةً أن يقلعوا عن الأسماء والتسميات. إن شغلنا هو مساعدة المرضى، وليس زيادة معاناتهم، الشيء الذي يعني فعلياً، زيادة السرية والمعالجة الطبية الأبوية للمريض. لكن التسمية بحد ذاتها ليست الشيء اللعين أو الملعون بل اسم «السرطان» هو كذلك. وطالما أن المرض، أي مرض، يُعَالَجُ على أساس أنه شرير أو شيطاني، وسلاّب ضار ومفترس ولا يُقهَر، وليس مجرد مرض فقط، فإن معظم مرضى السرطان سيصابون بالإحباط عندما يعرفون أنهم مرضى بهذا المرض. إن الحل لا يكمن في التوقف عن قول الحقيقة للمريض، بل في تصحيح مفهوم المرض، وفي فصله عن الأوهام والخرافات.

عندما كانت معرفة شخص ما، قبل بضعة عقود خلت، أنه مصاب بالسل معادلةً لسماعه حكماً عليه بالموت، مثل تساوي السرطان بالموت في الخيال الشعبي هذه الأيام، كان من الشائع إخفاء طبيعة مرض السل عن المصابين به، وعن أولادهم بعد موتهم. وكان الأطباء وأسر المرضى

يتحاشون الكلام عن المرض بحرية حتى مع المرضى الذين يعرفون ما هو مرضهم. لقد كتب «كافكا» في نيسان عام 1924 من المصح الذي توفي فيه بعد شهرين: «شفهياً لم أعلم عن أي شيء محدد أبداً، لأنه عند الكلام عن السل تصبح لهجة المتحدثين خجولة، وفيها مداراة ورغبة في التوقف عن الخوض في هذا الموضوع». وإن تقاليد إخفاء مرض السرطان عن المريض وأسرته وأصدقائه أشد مما كانت عليه تقاليد إخفاء مرض السل. ولا زالت القاعدة العامة بالنسبة للأطباء في فرنسا وإيطاليا ألا يتكلم الطبيب مع مريض السرطان عن مرضه، بل مع أسرته. يرى الأطباء أن قول الحقيقة سيكون شيئاً غير محتمل بالنسبة لمرضى السرطان، باستثناء المرضى العقلاء والأذكياء بشكل غير عادي. لقد قال لي طبيب أورام فرنسي بارز: إن أقل من عشر مرضاه يعرفون أنهم مصابون بالسرطان. أما في أمريكا -بسبب خوف الأطباء إلى حد ما من دعاوى إساءة مزاولة المهنة- فهناك الآن صراحة أكبر مع المرضى، ولكن أكبر مشافي السرطان في البلد تقوم باتصالات بريدية روتينية، وترسل فواتيرها إلى المرضى الذين غادروها في مغلفات لا تحمل اسم المرسل، وذلك لافتراض أن المرض يمكن أن يكون سراً لا تعرفه أسرهم، ولأن الإصابة بالسرطان يمكن أن تشكل فضيحة تعرض للخطر علاقات المريض العاطفية، وفرصته في الترقية في عمله، وحتى عمله نفسه، فالمرضى الذين يعرفون ما هو مرضهم يميلون لأن يكونوا فطنين، أو يميلون إلى السرية بشكل علني فيما يتعلق بمرضهم. وهناك قانون اتحادي عام 1966 المتعلق بحرية المعلومات. هذا القانون يرى في أحد بنوده أن «علاج السرطان» مستثنى من الإفصاح عنه، لأن هذا الإفصاح يُعد تدخلاً غير مبرر في الحرية الشخصية، أي حرية الاختلاء بالذات، والسرطان هو المرض الوحيد الذي ذكر. إن كل هذا كُذب من قبل الأطباء والبلدان الصناعية المتقدمة في قبول الموت كحقيقة من حقائق الوجود. ولأن

الموت الآن هو حدث بغيض ولا معنى له، فإن المرض يُعد على نطاق واسع مرادفاً للموت، ويجدر إخفاؤه. إن سياسة الالتباس والمراوغة التي يتبعها الأطباء مع مرضى السرطان فيما يتعلق بمرضهم تعكس الاعتقاد أن أفضل شيءٍ نقدمه للمرضى الذين سيموتون، هو أن نجنبهم أخبار الموت هذه، وأن الموت المقبول والمفضل هو الموت المفاجئ، والذي يحدث إما أثناء غياب المريض عن الوعي أوخلال نومه. إلا أن الإنكار المعاصر للموت لا يفسر مدى الكذب والرغبة في أن يُكذَب علينا؛ إنه لا يلامس الرعب العميق من الموت. والمصاب بمرض الاعتلال التاجي المتعلق بالقلب يمكن أن يموت بأزمة قلبية أخرى خلال بضع سنوات، مثل احتمال أن يموت مريض السرطان عما قريب. ولكن لا يفكر أحد بإخفاء الحقيقة عن مريض القلب: لأنه لا يوجد أي عار أو عيب في الإصابة بالسكتة القلبية. إن مرضى السرطان يُكذَبُ عليهم، ليس لأن المرض أو لأنه يُعتَقَدُ أنه الحكم عليهم بالموت، ولكن لشعورهم أن مرضهم قذر، وفي المعنى الأصلي لهذه الكلمة: مرض ذو فأل مشؤوم، وملعون، ومقزز للحواس. إن مرض القلب يتضمن ضعفاً واضطراباً وفشلاً ميكانيكياً. لا يوجد أي عيب أوعار، ولا يوجد فيه أي إفراد أو عزل للمريض كي لا يعدي الآخرين، ولا أي من الأشياء التي كانت تحيط المصابين بالسل، والتي لا تزال تحيط مرضى السرطان. فالاستعارات الملصقة بالسل والسرطان تشير إلى إجراءات مرعبة.

الجزء الثاني

إن استعمال الاستعارات للكلام عن السل والسرطان تتقاطع وتتداخل على مر تاريخ هذين المرضين. فقاموس أوكسفورد يسجل ‹الهزال التدريجي› كمرادف للسل الرئوي في وقت مبكر في عام 1398. ولكن الفهم الحديث للسرطان يشير أيضاً إلى فكرة الهزال. يعرّف قاموس أوكسفورد مرض السل تعريفاً مجازياً: ‹أي شيء يقّرِحُ ويحتّ ويُفسِد ويهزل ببطء وبشكل خفي›. ويقول «توماي بينيل» عام 1528 عن السرطان أيضاً: ‹السرطان مرض يفرض على أجزاء من الجسم أن تتآكل›. وأقدم تعريف مكتوب لهذا المرض يذكر أنه نمو أو ورم أونتوء في مكان من الجسم، واسم المرض جاء من الكلمة اليونانية كاركينوس والكلمة اللاتينية كانسر، وكلاهما تعنيان السرطان أو «السلطعون» أو «السرطعون» بالعامية. وقد استوحي هذا الاسم لهذا المرض، وفق «غالين» من التشابه بين العروق المتضخمة أوالمتورمة على الورم من الخارج وبين أرجل السرطان، وليس كما يعتقد العديد من الناس، لأن المرض ‹الانبثاثي› الذي ينبث أي ينتشر من مقره الأساسي إلى جزء آخر من الجسم يزحف مثل السرطان. ولكن علم الأمراض يشير إلى أن مرض السل أيضاً كان يُعد نوعاً من الانبثاق الغريب، فكلمة ‹سل› هي من اللاتينية ‹تيوبركولوم› وهي تصغير لكلمة ‹تيوبر› التي تعني ‹انتفاخاً› أو تضخماً. وهذا معناه انتفاخ مرضي و‹نتوء› أو بروز و‹نمو›. وحتى

«رادولف فيرشو»، مؤسس علم الأمراض، عام 1850؛ كان قد، سمّى الدرنة أو الحدبة ورماً.

وهكذا كان السل منذ القدم حتى العصور الحديثة -وفق دراسة الرموز وعلم النماذج الشخصية- سرطاناً أيضاً. وقد وصف السرطان، مثل السل، كعملية لتآكل الجسم واستهلاكه. إذ لم يكن بالإمكان تثبيت مفاهيم السل والسرطان في العصور الحديثة إلا بعد قدوم علم الأمراض الخليوي. ولم يكن ممكناً -إلا باستعمال الميكروسكوب أو المجهر- فهم تميز السرطان كنشاط خليوي، وفهم أنه لا يأخذ دائماً شكل ورم خارجي واضح وصريح قبل منتصف القرن التاسع عشر، ولم يكن باستطاعة أحد أن يعرف مرض فقر الدم كشكل من أشكال السرطان. ولم يكن ممكناً فصل السرطان عن السل بشكل نهائي حتى عام 1882، عندما اكتشف أن السل عبارة عن مرض بكتيري.

ومثل هذا التقدم في التفكير الطبي جعل الاستعارات التي كانت تطلق في أوصاف السل والسرطان متباينة تماماً، وقد بدأ الوهم المعاصر عن السرطان في التشكل. وهم سيرث، منذ عشرينيات القرن العشرين، معظم الأوهام التي نُسجت حول السل، ولكن ظلت أعراض المرضين واضحة، وظل يفهم أن السل هو مرض عضو واحد هو، الرئتان، بينما يمكن للسرطان أن يصيب أي عضو أو مكان في الجسم كله.

من المعروف أن السل له تباينات أو تبدلات كثيرة: شحوب يميل إلى البياض، وحيوية كبيرة تتناوب مع وهن عام. ومسار المرض التشنجي يُستَدَلُّ عليه من الكحة المتقطعة، التي عُدت العَرَض الأولي. والمصاب يرهَقُ من هذا السعال، ثم يغوص إلى الوراء، ثم يستعيد نفسه ويتنفس بشكل عادي؛ ثم يبدأ في السعال ثانية، وهكذا. بينما السرطان مرض ينمو، حيث يكون مرئياً أحياناً؛ وبشكل نموذجي، ويكون داخلياً. إنه ينمو

نمواً قاتلاً، وهذا النمو يمكن قياسه مع تعاظم الورم. مع العلم أن هناك فترات يتوقف فيها هذا النمو قليلاً ولكن لا يتغير أو يتبدل بشكل حاد مثل سلوك السل. وشحوب مريض السل يتغير أحياناً إلى حد البياض، ولكن شحوب مريض السرطان لا يتغير.

يجعل السل جسم المريض شفافاً. إن أشعة إكس، التي هي أداة التشخيص المستعملة، تسمح للطبيب وللمريض برؤية الجسم من الداخل. وبينما تُفهَم أعراضه في وقت مبكر لأنها مرئية: النحول المستمر والسعال والوهن والحمّى والدم على المنديل، يمكن أن يُكشَفَ عنه بشكل مفاجئ ودراماتيكي، فإن الأعراض الرئيسة للسرطان تظل غير مرئية حتى اللحظة الأخيرة، عند فوات الأوان. والسرطان، الذي غالباً يُكتَشَفُ بالصدفة أو خلال فحص طبي روتيني، يمكن أن يكون متقدماً دون إبداء أية أعراض واضحة. والشخص الذي يبدو جسمه داكناً يجب أن يُعرَضَ على اختصاصي لاكتشاف وجود السرطان. إن الذي لا يستطيع المريض أن يلاحظه سيقرره الاختصاصي عن طريق تحليل أنسجة تؤخذ من جسد هذا المريض. يمكن لمرضى السرطان أن يروا صور أشعة إكس التي تؤخذ لهم، وأن يحتفظوا بها أيضا: فالمرضى في مصح «الماجيك ماونتين» يحملون صورهم في جيوبهم، بينما لا يستطيع مرضى السل أن يروا الخزعة التي يحللها الطبيب.

كان السل ولا زال يُعتَقَد أنه يخلق فترات من الشعور بالنشاط والخفة والشهية المتزايدة للطعام والرغبة الجنسية الجامحة. وكان تقديم وجبة فطور ثانية للمرضى في مصح «الماجيك ماونتين» لتؤكل باستمتاع كبير كجزء من الحمية. بينما يُقال: إن السرطان يشل حيوية المريض ويجعل تناول الطعام أشبه بمحنة له، ويميت الرغبة الجنسية. كان يُعتَقَد أن الإصابة بالسل تثير الشهوة الجنسية وتعطي المريض قوة إغراء غير عادية، لكن السرطان يقضي على هذه الرغبة. وجدير بالقول: إن الكثير

من أعراض السل خادعة مثل الحيوية التي تنجم عن الوهن والخدود الوردية التي تبدو إشارة للعافية، بينما في الحقيقة هي ناجمة عن الحمّى، وهذه الحيوية يمكن أن تكون إشارة الموت الزاحف إلى المريض. إن مثل هذا الفوران من القوة سيكون بشكل عام مدمراً، ويمكن أن يكون مدمراً للآخرين الذين يرتبطون بالمريض. وهكذا، على العكس من السل، السرطان له فقط أعراض حقيقية.

إن السل هو مرض التفسخ وتحطيم الجسم والحمّى؛ إنه مرض تحول الجسم إلى سوائل أو ما يُسَمّى الأخلاط: بلغم ومخاط وبصاق ودم، وتتعاظم معه الحاجة إلى الهواء النقي. بينما السرطان هو مرض الانحلال والتفسخ، حيث تصبح أنسجة الجسم قاسية. لقد كتبت «أليس جيمس» في مجلتها قبل سنة من موتها بالسرطان عام 1892، (هذه المادة الغرانيتية في ثديي). لكن هذه الكتلة التي تصفها بأنها (غرانيتية) هي مادةٌ حية، هي جنين بإرادة خاصة به. وقد كتب «نوفاليس» في مقدمة مشروع موسوعته عام 1798 معرفاً السرطانات والغنغرينا بأنها طفيليات كاملة النمو -إنها تنمو ولها بنية خاصة بها، وتُولَد وتتناسل وتفرز إفرازاتها وتأكل. السرطان حمل شيطاني. ويُحتَمَلُ أن يكون القديس «جيروم» قد اعتقد أن هناك سرطاناً ما عندما كتب: (الشخص الذي له بطن منتفخ أو متورم هناك هو حُبلَى، حامل (بموته)) أي أن الجنين الذي يحمله في بطنه هو موته. ومع أن كلا المرضين: السل والسرطان يُهزِلان الجسم، لكن هُزال السل يُفهَم بشكل مختلف تماماً عن هزال السرطان. الشخص المسلول (يُستَهلَك) ويُحرَق. بينما مريض السرطان (تَغزوه) خلايا أجنبية وتتكاثر، محدثة ضموراً أو انسداداً لوظائف الجسم. إن مريض السرطان (يذبل) كلمة أليس ويذوي و(ينكمش) كلمة وايلهيلم رايخ. إن السرطان هو مرض متعلق بالزمن؛ إنه يُسَرّع الحياة ويركز الانتباه عليها ويجعلها حياة روحية. في اللغة الإنكليزية والفرنسية يسير الهزال عدواً مثل عدو

الفرس، بينما للسرطان مراحل لطريقة العدو أو لسرعته، وهي نهائية أي أنها تُنهي المريض. وهو يعمل ببطء ومكر وغدر: والتعبير اللطيف المألوف عن قتله لصاحبه أنه مات بعد مرض طويل أو بعد صراع طويل مع المرض. وكل وصف للسرطان يصفه بأنه بطيء، ولهذا فقد استُعمِل هذا الوصف بشكل مجازي. وقد كتب «ويكليف» عام 1382 مترجماً بعض العبارات، ‹كلمة نحنحة تزحف مثل السرطان›. وكانت كلمة سرطان من بين الاستعمالات المجازية كاستعارة للكلام عن ‹الخمول› و‹الكسل›. والسرطان مجازياً ليس مرضاً متعلقا بالزمن بقدر ما هو مرض متعلق بعلم أسباب الأمراض وأعراضها المتعلقة بالمكان. فالاستعارات الأساسية المتعلقة به تخص الطوبوغرافيا. إن السرطان يتكاثر ‹أو› ينتشر مثل انتشار الضوء؛ والأورام يُفرَض عليها ضريبة الاستئصال بالجراحة، ونتيجتها المرعبة، والتي هي قريبة من الموت، هي استئصال أو قطع جزء من الجسم. غالباً ما يُتَخَيّل أن السل يصيب الفقراء والمعوزين الذين يحتاجون الكساء والذين لديهم أجسام نحيلة ويعيشون في مساكن دون تدفئة وفي شروط صحية رديئة، ولا يأكلون الطعام الكافي والمغذي. ويمكن ألا يكون الفقر فقراً حرفياً كما كانت حالة «ميمي» في رواية ‹لا بوهيم›، أو حالة «مارغريت» مريضة السل التي كانت تعيش في ترف وبذخ مع أنها كانت طفلة مشردة، في رواية ‹لا دام أو كاميلياس›. وعلى العكس من السل، فإن السرطان هو مرض الطبقة الوسطى، مرض مرتبط بوفرة الحياة وراحتها الزائدة، فأعلى معدلات مرضى السرطان موجودة في البلدان الغنية، والحدوث المتصاعد للمرض ناجم جزئياً عن تناول الأطعمة الغنية بالدهون والبروتينات، وعن تنشق الأبخرة غير المرئية السامة الناتجة عن الاقتصاد الصناعي الذي ينتج هذه الوفرة من الأطعمة. إن علاج السل يُعرَف بإثارة الشهية للطعام، بينما يُعرَفُ علاج السرطان بالغثيان وفقدان الشهية له. لقد حاول ناقصو التغذية أن يطعموا أنفسهم،

ولكن للأسف دون فائدة. بينما الذين لديهم وفرة من الطعام لا يستطيعون تناول الطعام. وكان يُعتَقَد أنه يمكن مساعدة مريض السل وعلاجه بتغيير محيطه. فهناك فكرة عن السل أنه مرض الرطوبة، مرض المدن التي تعاني من شدة الرطوبة. وقد أصبح الجسم من الداخل رطباً. (فالرطوبة في الرئتين) كان تعبيراً مفضلاً، ويجب أن تجفف. وكان ينصح الأطباء بالسفر إلى الأمكنة العالية والجافة- الجبال والصحراء. وفي المقابل لم يُعتقَد أن تغيير البيئة يساعد مريض السرطان. لأن العراك كله يكون داخل الجسم، ويُعتَقَدُ باستمرار، أن هناك شيئاً ما في البيئة قد سبب السرطان. ولكن عندما يأتي، لا يمكن أن يُجبَر على الرجوع، ولا يمكن أن يُقَلَلَ منه بتغيير مكان المريض أوالوسط الذي يعيش فيه.

يُعتَقَد أن السل ليس مؤلماً نسبياً، بينما يكون السرطان مؤلماً جداً طوال الوقت، وأن السل يقدم لمريضه موتاً سهلاً، بينما يؤدي السرطان إلى موت مؤلم جداً وبائس وتعيس. وقد استمر السل لأكثر من مئة سنة بالطريقة المفضلة لإعطاء الموت معنى كمرض تثقيفي وتهذيبي. وأدب القرن التاسع عشر مليء بأوصاف للموت بسبب السل دون أعراض أوخوف وينقضي بشكل مبهج، وخاصة موت الصغار مثل موت إيفا الصغيرة في رواية (كوخ العم توم) وابن «دومبي» في رواية (دومبي أند سَن) و«سمايك» في رواية (نيكولاس نيكلبي)، حيث وصف «ديكينز» السل بقوله: (المرض المرعب) الذي(يهذب) الموت و(ينقيه). ويقول «ديكينز»: إذا كان مظهر الموت الفادح حيث الصراع بين الروح والجسد يكون تدريجياً ووقوراً وهادئاً والنتيجة أكيدة. وهي أنه يوماً بعد يوم، وقليلاً قليلاً، يتبدد الجسد ويذبل لكي تصبح الروح خفيفة ومتعطشة للدم كلما خف حملها أي كلما خفّ الجسد). قارن حوادث الموت هذه بمرض السل المُشرِّفة والهادئة ورابطة الجأش مع ميتات السرطان الحقيرة والمؤلمة لموت والد «يوجين كانت» في رواية «توماس ولف» (أوف تايم

أند ذا ويذر) وموت الأخت في فيلم «بيرغمان» (كرايز أند ويسبرز). لقد صُوّرَ موت المريض بالسل أنه جعل صاحبه أكثر جمالاً ومفعماً بالعاطفة. بينما صُوّر الشخص الذي مات بالسرطان أنه جُرّدَ من كل قدراته ومن سموه الذاتي وتفوقه، وأُذلَ بالخوف والألم. لقد أُخذت هذه المقارنات من الميثيولوجيا الشعبية المتعلقة بالسل والسرطان. وقد مات طبعاً العديد من مرضى السل وهم يتألمون ألماً شديداً، وبعض مرضى السرطان ماتوا وهم يحسون بألم خفيف أو دون ألم. إن الفقراء والأغنياء يمرضون بالسل والسرطان. وقد استعمل «جون ميدلتون موري» بعد نحو قرن من ديكينز، في طبعته لجريدة «كاترين مانسفيلد» بعد موتها، لغة شبيهة بلغة «ديكينز» والذين ذكروا آنفا، ليصف «مانسفيلد» في آخر يوم من حياتها: «لم أرَ في حياتي ولا يمكن أن أرى في المستقبل أية امرأة بمثل جمالها في ذلك اليوم؛ لقد بدا أن كمالها الرائع التي تميزت به دائماً قد تملكها بشكل تام. ولأستعمل كلماتها هي، لقد هجرت آخر حبة من الرواسب أو(الثُفل)، وآخر آثارٍ للتفسخ والانحلال المعروف على الأرض إلى الأبد. لكنها فقدت حياتها لتنقذها».

وتستمر الميثولوجيا. وليس لأن السل الرئوي الذي هو أكثر أشكال السل شيوعاً يعتقد معظم الناس أنه، مقارنة مع السرطان، هو مرض عضو واحد. بل لأن الخرافات حول السل لا تتوافق مع الدماغ أو الحنجرة أو الكلى أو العظام الطويلة أو المواقع الأخرى حيث تستطيع عُصيّة الدرنة أن تستقر أيضا.ً ولكن هذه الخرافات تتوافق مع التخيلات التقليدية عن النَفَس والحياة المتعلقة بالرئتين. وبينما يتخذ السل صفات مخصصة للرئتين، التي هي جزء من القسم العلوي للجسم وهو الروح، فإن السرطان رديء السمعة لأنه يهاجم الجسم: الأمعاء الغليظة والمثانة والمستقيم والثدي وعنق الرحم والبروستات والخصيتين. وهذه المواضع محرجة للتصريح بها. ويشعر المريض الذي عنده ورم بالعار أو العيب، ولكن

في هرمية أعضاء الجسم، سرطان الرئة هو أقل عاراً أو عيباً من سرطان المستقيم. وهناك شكل من أشكال السرطان دون ورم يتبدى الآن في القيام بالدور الذي كان يحتكره السل، دور المرض الرومانسي الذي يقتل شاباً. البطلة في رواية «إريك سيكال» (لَف ستوري) تموت بفقر الدم أو اللوكيميا الذي هو الشكل (الأبيض) أو الشكل المشابه لمرض السل والذي لا يمكن للطبيب أن يقوم بأي إجراء جراحي لاستئصال أي عضو من أجل العلاج - لا للمعدة ولا للثدي. إن مرض الرئتين هو مجازياً مرض الروح. وقد سمّى الأخوة «كون كورت»، في روايتهم (مدام جيرفيزيس) عام 1869 مرض السل «هذا المرض لأجزاء جسم الإنسان النبيلة والرفيعة»، مقارنة مع «أمراض الأعضاء الرديئة القيمة في الجسم، التي تُعَوّق عقل المريض وتُلوّثه...» وفي قصة «مان» المبكرة، كانت الزوجة الشابة مصابة بالسل في قصبتها الهوائية: القصبة الهوائية، وليس الرئتين، شكراً لله! ولكن السرطان، المرض الذي يستطيع أن يصيب أي مكان في الجسم، هو مرض للجسم كله. إنه لا يفصح عن أي شيء روحي، بل يكشف، ويا للأسف، أن المريض هو الجسم كله. تزدهر مثل هذه الأوهام لأن السل والسرطان اعتُقِد أنهما أكثر من مرضين قاتلين. إنهما الموت نفسه. وقد ميّز «ديكينز» في رواية (نيكولاس نيكلبي) السل «أنه المرض الذي يختلط فيه الموت والحياة، الموت الذي يأخذ وهج الحياة وطعمها، ويأخذ الحياة الكالحة الكئيبة؛ المرض الذي لم يفلح الطب في علاجه، ولم يستطع الأثرياء تجنبه، ولم يقدر الفقراء التباهي أنه أعفاهم من شره...» وقد كتب «كافكا» إلى «ماكس برود» في تشرين الأول عام 1917 أنه «صار يعتقد أن السل... ليس مرضاً خاصاً، أو أنه ليس مرضاً يستحق اسماً خاصاً، ولكنه جرثومة الموت نفسه، مكثّفة... ويثير السرطان تأملاً مشابهاً. فقد كتب «جورج غروديك»، الذي سبق «وايلهيلم» في أفكاره عن السرطان في كتابه (ذا بوك أوف ذا إت) عام

1923: لقد ظلت نظرية واحدة حية من بين كل النظريات التي قُدّمت حول السرطان ولم تسقط مع مرور الزمن، وهي أن السرطان يؤدي إلى الموت من خلال مراحل محددة. وأقصد بهذا أن المرض غير القاتل ليس سرطاناً. وتستطيع أن تستنتج من هذا أنه لا يحدوني الأمل في أية طريقة جديدة لعلاج السرطان.

وعلى الرغم من كل التقدم في معالجة السرطان، لا يزال العديد من الناس يعتقدون أن معادلة «غروديك» لا تزال هي الصحيحة، السرطان = الموت. ولكن الاستعارات المحيطة بالسل وبالسرطان تكشف الكثير عن فكرة الشيء المرضي، وكيف تطورت منذ القرن التاسع عشر، عندما كان السل من أهم أسباب الموت (حتى يومنا هذا) عندما أصبح السرطان أكثر الأمراض إثارة للرعب. وقد أضفى الرومانتيكيون صفة أخلاقية على الموت بطريقة جديدة. بالنسبة للموت بالسل، لقد بدد الجسم وأضناه. وكان ممكناً من خلال الأوهام والخرافات المتعلقة بالسل، جعله على صلة بعلم الجمال. وقد كتب «ثورو»، الذي أُصيب بالسل: الموت والمرض هما جميلان غالباً مثل... توهج حُمّى الهزال التدريجي، وبالمقابل لا ينظر أحد إلى السرطان بالنظرة نفسها التي تعد السل مرضاً تزيينياً، وتعده غالباً موتاً حماسياً ومثل الشعر الحماسي أو الملحمي، فالسرطان من الناحية الأخرى، هو موضوع نادرٌ ومخز للشعر؛ ولا يتخيل أحدٌ أنه يمكن أن يتعلق بعلم الجمال.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثالث

إن أهم شبه بين السل والسرطان هو تعلقهما بالعواطف، كانا ولازالا. كانت الحمى في السل علامة احتراق داخلي؛ والمصاب بالسل هو شخص مُستَهلَك أو مُستَنفذ أومُتلَفٌ بالغيرة أو الحماس الذي يؤدي إلى موت الجسم. واستعمال الاستعارات المأخوذة من السل لوصف الحب -مثل صورة حب (مريض)، وصورة العواطف التي تستهلك وتتلف وتفني- تسبق الحركة الرومانتيكية بوقت طويل. وهذا واضح في المشهد الثاني، الفصل الثاني من مسرحية السير «جورج إثيريج» (ذا مان أوف مود) عام 1676: «عندما يمرض الحب، فإن أفضل شيء نستطيع فعله هو أن نخضعه لموت عنيف؛ لا أستطيع تحمل عذاب العواطف المتلفة التي تؤدي إلى الموت».

وحين نعود إلى الرومانتيكيين، نجد أن الصورة قُلِبَت، وصُوّرِ السل بديلاً عن مرض الحب. وفي رسالة تقطع القلب في الأول من تشرين الثاني عام 1820 من نابولي، كتب «كيتس»، بعد أن انفصل إلى الأبد عن «فاني براون»: «لو كان لي فرصة للشفاء من السل، هذا الهيام سيقتلني». وكما تشرح إحدى شخصيات (ذا ماجيك ماونتين): إن أعراض المرض ليست إلا مظهراً مُقَنّعَاً لقوة الحب؛ وكل المرض هو عبارة عن حب حُوّل أو غُيّر شكله. وكما كان يُعتَقَد أن السل يتسبب من العواطف الموجعة التي يبتلي بها الشخص الشهواني الطائش، فالكثير من الناس يعتقدون

هذه الأيام أن السرطان هو مرض ناتج عن العواطف غير الكافية التي تؤلم أولئك المكبوتين جنسياً والمثبّطين المحبَطين الذين لا يستطيعون التصرف بغضب. هذا التشخيص الذي يبدو متضاداً لا يختلف كثيراً عن تعبيرات مختلفة عن وجهة النظر نفسها، وتستحق برأيي المقدار نفسه من المصداقية. لأن كلا الوصفين النفسيين للسل والسرطان يُركزان على النقص أو عدم الكفاية في القدرات الحيوية. وبمقدار ما اشتُهِرَ السل كمرض للعواطف، فقد عُد مرضاً ناتجاً عن الكبت أيضاً. وإصابة بطل «جيد» ذي العقل الراجح في‹ذا إموراليست› بمرض السل (توازي ما تصوره «جيد» أن هذا كان ما حدث له نفسه) لأنه كَبَتَ طبيعته الجنسية الحقيقية؛ وعندما يَقبَل «مايكل»، البطل، الحياة، فإنه يشفى من السل. ولو اقتنعنا بهذا السيناريو هذه الأيام لقلنا ولهذا كان يرغب البطل لو أنه مرض بالسرطان بدلاً من السل. وكما يُعتَقَد الآن أن السرطان هو أجور الكبت، فإن السل كان يُفَسّر مرة أنه التخريب والإتلاف الذي أحدثه التثبيط والإحباط. ويَعتَقدُ بعض الناس الآن أن ما يُسَمّى ‹الحياة الجنسية المُحَرّرة› تُجنّبُ صاحبها مرض السرطان. ولهذا السبب بالضبط كان يُعتَقَد أن الجنس يوصَف لمرضى السل كعلاج. وفي رواية ‹أجنحة الحمامة› ينصح طبيب «ميلي ثيل» بإقامة علاقة حب كدواء لمرضها الذي كان مرض السل. وعندما اكتشفت نفاق خطيبها، «ميرتون دينشر» وازدواجيته، حيث كان قد خطب صديقتها، «كيت كروي» سراً، توفيت. وفي رسالة «كيتس» في تشرين الثاني عام 1820 يصرخ بقوة: يا عزيزتي «براون»، كان يجب أن تكوني لي عندما كنت بصحة جيدة، وكان يجب علي أن أبقى بصحة جيدة. وطبقاً للخرافات المتعلقة بالسل، هناك شعور عاطفي عام يُغيظُ ويستَفز ويعبر عن نفسه بنوبة سل. ولكن العواطف يجب أن تُقاوَم وتُحبط ويجب أن تُتلَف الآمال والعواطف، ومع أنها عادة هي الحب، يمكن أن تكون أيضاً سياسية أو أخلاقية. في نهاية رواية

«تورجينيف» (1860)، يدرك بطل الرواية «إنزاروف»، الثوري البلغاري الشاب في المنفى، أنه لا يستطيع العودة إلى بلغاريا. وفي فندق في فينيسيا يمرض بالحنين والإحباط، يمرض بالسل ويموت. وطبقاً للخرافات المتعلقة بالسرطان، إن ما يسبب هذا المرض هو الكبت المستمر والثابت للمشاعر. ففي الشكل الأقدم والأكثر تفاؤلاً لهذه الخرافات أو لهذا التصور كانت المشاعر الجنسية المكبوتة؛ أما الآن فقد أصبحت هذه المشاعر الجنسية المكبوتة التي كانت تسبب السل تسبب السرطان. أما العواطف المكبوتة التي قتلت «إنزاروف» فهي المثالية. والعاطفة التي يعتقد الناس أنها سوف تسبب لهم السرطان إن لم يستطيعوا إفراغها في الغضب أو ثورات الغضب الشديد. لا يوجد الآن العديد من شخصية «إنـزاروف»، يوجد بدلاً من هذه الشخصيات العديد من الناس الذين لديهم هلع مرضي من السرطان، مثل «نورمان ميللر»، الذي شرح لنا أنه لو لم يطعن زوجته (وقد قام بتمثيل مجموعة قاتلة من المشاعر) لكان قد مرض بالسرطان«ومات هو نفسه بعد عدة سنوات». إن هذه الخرافة نفسها التي كانت ملصقة بمرض السل، ولكن بنسخة أقذر. إن مصدر الكثير من الأوهام والصور الذهنية التي تربط السرطان بكبت العواطف هو «وايلهيلم رايخ»، الذي عرَّف السرطان أنه «المرض الذي ينتج عن الاستسلام للعواطف، إ نه تقلص الطاقة البيولوجية للجسم، والإقلاع عن الأمل». وقد أوضح «رايخ» نظريته المؤثرة بالاستشهاد بسرطان «فرويد»، الذي بدأ عاطفياً، كما اعتُقِدَ، بشكل طبيعي ولم يكن زواجه سعيداً، ثم استسلم للمرض: «عاش فرويد حياة محترمة مع أسرته، ولكن كان هناك شك بسيط عن عدم رضاه عن أعضائه التناسلية. إن استسلامه وإصابته بالسرطان كانا إثباتاً أودليلاً على ذلك، كان عليه أن يستسلم كشخص، كان عليه أن يقلع عن مسراته الشخصية وعما يبهجه بشكل عام، في أواسط عمره. وإذا كان رأيي عن السرطان صحيحاً، فالمريض يستسلم – ثم ينكمش». ويُستَشهَد

بموت «إيلان إيليتش» في رواية «تولستوي» (ذا ديث أوف إيلان إيليتش) كمثال يدعم نظرية «رايخ» عن السرطان. حيث إن هذه الرواية تبين الصلة بين السرطان وتسليم المريض وأن استسلامه لعواطفه يُغيّرُ من بيولوجيا جسمه. ولكن النظرية نفسها قد طُبّقَت على السل من قبل «غروديك»، الذي عرّفه أنه: «الرغبة الشديدة في الموت. هذه الرغبة يجب أن تموت، وبعد ذلك تموت حركات نحو الداخل والخارج، ثم للأعلى والأسفل، - الحركات التي تصف الشهوة الجنسية وتتكلم عن الحب الجنسي، والتي يُرمز إليها في التنفس. وبهذه الرغبة تموت الرئتان... ويموت الجسم». ويتابع هذا النص: «... لأن الرغبة الجنسية تزداد خلال المرض، لأن إثم تبدد (المني) الرمزي والمتكرر بشكل دائم في الخصيتين يتعاظم أكثر وباستمرار،... ولأن هذا الحب الجنسي يسمح للمرض الرئوي أن يجلب الجمال للعينين والخدود، إغراء للسموم!» وكما تقول أوصاف السرطان هذه الأيام، فإن أوصاف السل في القرن التاسع عشر تتسم بالتسليم أو الاستسلام الذي يسبب المرض. إنها تبين أيضاً كيف يصبح المريض مستسلماً مع تقدم المرض. تموت «ميمي» و«كاميل» بسبب ارتدادهما عن الحب وتنسُّكهما. وقد عدا مع الأبرار نظراً لاستسلامهما. وتصف مقالة «روبيرت لويس ستيفنسون» أوردرد ساوث 1874، (المراحل التي يُفطَم المريض فيها عن عاطفة حب الحياة). إن الاستسلام بتباه وتفاخر هو صفة مميزة للانحطاط السريع والسير نحو الزوال لمرضى السل، كما هو مذكور بشكل مطول في الأدب، ففي (كوخ العم توم)، تموت «إيفا» الصغيرة بصفاء وسكون خارق للطبيعة. وقد أعلنت لوالدها قبل موتها ببضعة أسابيع: «إن قوتي تتلاشى يوماً بعد يوم، وأعلم أنني يجب أن أذهب (أموت)». وكل ما نعرفه عن موت «ميلي ثيل» في رواية (ذا وينغز أوف ذا دوف) «أجنحة الحمامة» هو أنها (أدارت وجهها نحو الجدار). وقد صُوّرَ السل أنه موت سلبي أولي. وكان غالباً شكلاً من أشكال الانتحار. وفي رواية «جويس»

(الميتون)، وقف «مايكل فوري» تحت المطر في حديقة (كريتا كونروي) الليلة التي سبقت مغادرتها إلى مدرسة الدير؛ لقد توسلت إليه أن يذهب إلى البيت؛ (قال أنه لا يريد أن يعيش)، ثم مات بعد أسبوع. يمكن تصوير الذين يعانون من السل أنهم عاطفيون، ولكنهم يتميزون بنقص الحيوية أو القدرة على الحياة. وكما هو معبر عنه في التحديث المعاصر للأوهام المتعلقة بالسل والسرطان، فالمعرضون للإصابة بالسرطان هم أولئك الذين ليسوا شهوانيين بما فيه الكفاية ولا يغضبون كثيراً. ويفسر الأخوان «غونكورت» سِل صديقهما «مورغر»، مؤلف (سين دي لا في دي بوهيم): إنه يموت (بسبب الحاجة للحيوية التي لا بد منها لمقاومة الألم والعناء). وقد كان «مايكل فوري» لطيفاً جداً، كما تشرح «غريتا كونروي» لزوجها (قوي البنية ويميل إلى الطول ومكتمل الرجولة وينقلب إلى زوج غيور بشكل مفاجئ). ويشتهر السل أنه مرض الأشخاص المولودين من أناس حساسين وسلبيين وليسوا محبين للحياة بما يكفي للاستمرار فيها. وإن ما يُلمَحُ إليه من قبل الأدب المحض الذي يكاد يكون نعساناً، أدب ما قبل الفن الرافائلي، يُفصَحُ عنه في البنات النحيلات واللاتي لا يوجد أي معنى في عيونهن والمصابات بالسل واللاتي صوَّرهن «مَنش». وبينما يؤكد الموت بالسل التسامي الكامل للعواطف، فإن شخصية المومس المصابة بالسل المتكررة، تشير إلى أن السل كان أيضاً يُعتَقَدُ أنه يجعل المصاب به شهوانياً.

ومثل كل الاستعارات الناجحة بالفعل، كانت الاستعارة المتعلقة بالسل غنية بما فيه الكفاية لتقديم تطبيقين متناقضين. فقد كانت طريقة لوصف المشاعر الجنسية، ولم تكن مسؤولة عن الوصول إلى الفسق أو الفجور، التي تُعزى إلى حالة من التدهور أو التقصير والإهمال الموضوعي والفيزيولوجي. لقد كانت طريقة لوصف الانغماس في الشهوات الحسية، وترقية متطلبات العواطف، وطريقة لوصف الكبت

والإعلان عن متطلبات التسامي. والتسامي هو المرض الذي يؤدي إلى (خَدَر في الروح) كلمات روبيرت لويس ستيفنسون، وانتشار للمشاعر الأسمى. وفوق كل شيء كانت هذه الاستعارة طريقة لتأكيد قيمة أن الإنسان واع أكثر، ومعقد نفسياً أكثر. وهكذا تصبح الصحة أو العافية مبتذلة وتافهة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الرابع

يبدو أن الإصابة بالسل قد اكتسبت تداعيات الفترة الرومانتيكية في منتصف القرن الثامن عشر في الفصل الأول، المشهد الأول، من مسرحية «أوليفر غولد سميث» (شي ستووبس تو كونكَر 1773) التي هي عبارة عن هجاء للحياة في الأقاليم، نرى السيد «هارد كاسل» يعترض على إفساد زوجته لابنهما المغفل والجلف من زواجها السابق.

– السيدة هارد: هل يجب أن تلومني؟ كان الولد المسكين مريضاً دائماً ولا يستطيع القيام بأي شيء. وكانت المدرسة بالنسبة له هي الموت. عندما يصبح أقوى قليلاً، من يعلم ماذا سيحدث له بعد سنة واحدة أو سنتين اثنتين من دراسة اللاتينية؟

– السيد ها: يتعلم اللاتينية! إنه لا يستطيع ذلك. لا، لا، الحانة والإسطبل هما المدرسة الوحيدة التي سوف يذهب إليها.

– السيدة ها.: حسناً، يجب ألا نزجر الولد المسكين الآن، لأنني أعتقد سوف لن يبقى معنا طويلاً. يستطيع كل ناظر إلى وجهه أن يرى إصابته بالسل.

– السيد ها.: إذاً كانت السمنة واحدة من الأعراض.

– السيدة ها.: إنه يسعل أحياناً.

– السيد ها.: نعم، يسعل عندما يشرب الخمر.

– السيدة ها.: إنني في الحقيقة خائفة من رئتيه.

– السيد ها: وأنا أيضاً خائف بالفعل. لأنه يشهق أحياناً وكأنه بوق يتكلم.

– توني يقول (هالوو) خلف الستار [– أوه، ها هو توني – إنه بالفعل شخص مصاب بالسل].

هذا الحوار يشير إلى الوهم المتعلق بالسل الموجود سابقاً. لأن السيدة هاردكاسل ليست إلا واحدة من عالم لندن الذكي الذي تطمح في الوصول إليه، والذي كان جمهور غولد سميث[1].

يتجرأ غولد سميث على القول إن أسطورة السل منتشرة سلفاً بشكلٍ واسع نظراً إلى أن هذا المرض مضاد للنقرس. وبالنسبة للمقلدين ومحدثي النعمة والمتسلقين، فالسل مؤشر على أن الإنسان أرستقراطي وأنيق وحسّاس. ومع الكشوف الجغرافية وازدياد حركة الناس في القرن الثامن عشر، أصبحت قيمة الإنسان ومركزه الاجتماعي وقفاً على قدرة الفرد على تثبيتهما عند الآخرين بنشاطه في مجالات الحياة، وليس بمنحهما له من قبل المجتمع. واستطاع الفرد والجماعة فرض حقوقهم على المجتمع من خلال المفاهيم الجديدة عن الثياب والنظرة للمرض. وقد أصبحت الثياب (ثياب الجسم الخارجية) والمرض (الديكور الداخلي للجسم) عباراتٍ مجازية لمواقف جديدة من الذات.

وقد كتب «شيلي» في 27 حزيران، 1820 إلى «كيتس»، كمريضٍ بالسل يواسي مريضاً آخر، أنه علم «أنت مستمر في اتخاذ مظهرٍ له علاقة بالسل». لم يكن هذا تعبيراً بلاغياً. لقد كان ينظر إلى السل كهيئةٍ لمظهر الشخص،

1– كان عند سميث، الذي دُرّبَ ليصبح طبيباً وقد مارس المهنة لفترةٍ من الزمن، كليشات أخرى للسل. ففي مقالته عن «الثقافة» (1759) قال: إن «الطعام المضاف إليه القليل من الملح والسكر والتوابل يصلح أية عاداتٍ لها علاقة بالسل، الذي اكتشف بين أطفال آباء وأمهات يسكنون المدن». وكما يبدو من هذا فإنه يُنظَر للسل على أنه عادة أو نزعة، إن لم يكن تكلفاً، أو ضعفاً يجب أن يُقَوّى، ويوجد ميل نحوه عند سكان المدن.

وأصبح هذا المظهر عنصراً أساسياً من العناصر الأخلاقية للقرن التاسع عشر. حيث أصبح من الفظاظة أن يأكل الشخص بنهم. وأصبح من الفتنة أن يبدو الإنسان شاحب اللون ورقيق الصحة. (كان «تشوبين» مسلولاً عندما لم تكن الصحة الجيدة أناقةً)، كتب «كاميل سينت سينز» عام 1913: كان من الدارج أن يكون الإنسان ممتقع الوجه وجاف البشرة. كانت الأميرة «بيلجيو جوسو» تتمشى في الشوارع... شاحبةً كالموت. وكان «سيمن سينز» محقاً عندما ربط فنانةً، «تشوبن»، بأشهر (فام فاتال) (امرأة مؤمنة بالقضاء والقدر) في تلك الفترة. وقد فعلت هذه المرأة الكثير لكي تجعل نظرة المسلول شعبيةً. وكانت الفكرة المتأثرة بسل الجسم الطراز أو (الموديل) الجديد للنظرات الأرستقراطية، في الوقت الذي توقفت الأرستقراطية عن أنها مسألة قوة، وأصبحت مسألة صورة ذهنية. ((لا يمكن أن يكون الشخص غنياً جداً. لا يمكن أن يكون نحيلاً جداً)، قالت مرةً دوقة ويندسور). وبالفعل، كان جعلُ السل رومانتيكياً أول مثالٍ واسع الانتشار لذلك النشاط الحديث المُمِيّز لرفع مكانة الذات إلى صورةٍ ذهنية. كان يجب أن تُعد هيئة المسلول علامة تَمَيُّزٍ وسمُوّ نسب. (إنني أسعل باستمرار!)، كتبت «ماري باشكيرتسيف» في المجلة التي كانت واسعة الانتشار ذات مرة، والتي نُشِرت بعد موتها في الرابعة والعشرين عام 1887. كتبت: (ولكن مما يثير العجب، أن هذا السعال لا يجعلني أبدو دميمةً، بل يسبغ علي مسحةً من الوهن الجذابة جداً). والذي أصبح بعد أن كان مرةً طراز النساء المؤمنات بالقضاء والقدر والفنانات الشابات الطموحات، أصبح أخيراً من وظيفة أو دائرة اختصاص الموديلات كموديلات. وكانت موديلات القرن العشرين النسائية (بعبادتها للنحافة) آخر معاقل الاستعارات المتعلقة بجعل السل رومانتيكياً في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. تعود العديد من المواقف الأدبية والتي تصور الحب الجنسي أو الإثارة

الجنسية المعروفة بـ «الألم الرومانتيكي» إلى السل وتغير شكله من خلال استعمال الاستعارات المجازية. وأصبح الألم رومانتيكياً في الأوصاف التي صارت أسلوباً خاصاً بها لشرح الأعراض الأولية للمرض (مثلاً حُوِّلَ انعدام القوة إلى الوهن والتراخي) وقد كُتِمَ الألم الفعلي. وتنافست النساء الشابات الشاحبات والضعيفات وفارغات الصدور من الأثداء مع الشباب الناحلين والشاحبين مع بعضهم بعضاً كمرشحين للإصابة بهذا المرض الفظيع الذي يضعف الجسم، والذي لم يكن له علاج في ذلك الوقت. وقد كتب «ثيوفيل غوتييه»: «لم أكن أقبل أن الشاعر الفلاني هو شاعر غنائي أو ملحمي إذا كان وزنه أكثر من تسعين باوناً». (لاحظ أن غوتييه يقول «شاعر ملحمي»، وهو كما يبدو مسلِّم بحقيقة أن الروائيين يجب أن يكونوا قد خُلِقوا من مادةٍ أخشن وأشد وأضخم). وقد أصبحت نظرة المصاب بالسل، التي أشارت أو رمزت إلى ضعفٍ يثير التعاطف، وإلى حساسيةٍ عالية، بالتدريج، النظرة المثالية للنساء، بينما أصبح رجال منتصف القرن التاسع عشر وآخره سمينين، وأسسوا إمبراطورياتٍ صناعية، وكتبوا مئات الروايات، وقاموا بالحروب، ونهبوا القارات.

ويمكن للمرء أن يتصور بشكلٍ معقول أن جعل السل رومانتيكياً كان مجرد تغييرٍ أدبيٍ لهذا المرض، ومن المحتمل أنه كان يثير الغثيان والاشمئزاز في فترة سلبه لحياة الكثيرين، كما يفعل السرطان الآن. وبالتأكيد عرف كل واحدٍ في القرن التاسع عشر رائحة النفس النتنة لمريض السل. وقد لاحظت أسرةٌ زارت مريضاً بالسل «رائحة اللحم المتعفن في غرفته». ولكن تشير جميع الدلائل إلى أن السل لم يكن من اختراع الشعراء الرومانتيكيين وكتاب الأوبرا، ولكنه كان موقفاً واسع الانتشار، وأن الشخص الذي يموت بالسل صغيراً يُعد شخصيةً رومانتيكية.

وعلينا أن نعتقد أن حقيقة هذا المرض المرعب لا يمكن أن تضاهي الأفكار الجديدة، وخاصةً المتعلقة بالشخصية. وقد فُصِّلَ الحديث عن

المرض الشخصي، وعن فكرة أنه قد وعي الناس أكثر بأنهم سيواجهون الموت، وفهموا الأفكار التي تجمعت عن المرض؛ ويستطيع المرء أن يرى بعد كل هذا أن هناك فكرة معاصرة في القرن العشرين عن الفردية التي أخذت شكلاً عدائياً أكثر، ولكنها أقل أنانيةً أو نرجسية. كان المرض طريقةً لجعل الناس ‹مُسلين وممتعين›، الشيء الذي يشير إلى كيفية معرفة معنى كلمة ‹رومانتيكي› في الأصل.

وفي مقالته ‹دراسة للشعر اليوناني› (1795)، يقول «شليجل»: إن كلمة ‹ممتع أو مسر› هي الوصف المثالي للشعر اليوناني وهي الشعر ‹الرومانتيكي›. ويقول «نوفاليس» في الفترة من 1799–1800: ‹المثل الأعلى للصحة التامة› هو أن تكون علميا ممتعةً أو مسلية. والممتع حقيقةً هو المرض ‹الذي يخص الفرد›. وهذه الفكرة – فكرة كم هم المرضى ممتعون، صيغت أول ما صيغت بجسارة من قبل «نيتشه» في كتابه ‹إرادة القوة› وفي كتاباتٍ أخرى. ومع أنه نادراً ما ذكر مرضاً محدداً، فإن هذه الأحكام المشهورة المتعلقة بالضعف الفردي والإعياء الثقافي أوالانحطاط يشتمل على العديد من الكليشات المتعلقة بالسل.

إن الكلام الرومانتيكي عن الموت يؤكد أن الناس خلقوا فرادى وجُعلوا ممتعين وجعلهم المرض ممتعين أكثر. قال «بايرون» (عندما أنظر إلى المرآة): ‹أبدو شاحباً›، ‹يجب أن أرغب الموت بالسل. ‹سأله صديق كان يزوره في أثينا في أكتوبر عام 1810 عن السبب›، فأجاب: ‹لأن كل السيدات سيقلن: «انظروا إلى «بايرون» المسكين، كم يبدو ممتعاً في موته»». ربما كانت الهبة الرئيسة التي قدَّمها الكلاسيكيون للإدراك ليست وصف الظواهر الفنية والجمالية وتفسيرها، تلك المتعلقة بقسوة مسببات الأمراض وجمالها (كما اقترح «ماريو براز» في كتابه المشهور)، ولا حتى المطالبة بالحرية الفردية غير المحدودة، بل هي الفكرة العدمية والعاطفية لما هو ‹ممتع›.

يجعل الحزن الشخص (ممتعاً). أن يكون المرء حزيناً فهذا علامة صفاءٍ وتهذيب وإدراك. وهذا يعني أنه لا قوة لديه. في (أرمانس) التي كتبها «ستيندال»، يؤكد الطبيب للأم القلقة أن ابنها، «أوكتيف»، لا يعاني من السل، بل فقط من (السوداوية والكآبة التي تَمَيَّزُ شباب جيله ومركزهم الاجتماعي). حتى أصبح الحزن والسل مترادفين وقد كتب الكاتب السويسري، الذي كان مصاباً بالسل عام 1852 في مجلته (جورنال إن تايم):

> السماء المكسوة بستارةٍ رمادية مثنيةٍ بظلالٍ خفيفةٍ وضبابٍ خفيف يتدرج على الجبال؛ والطبيعة اليائسة، وأوراق الأشجار المتساقطة في كل الجهات مثل أوهام الشباب الضائعة تحت دموع الحزن واللوعة التي لا يمكن مداواتها... وشجرة الصفصاف، الوحيدة بقوتها وخضرتها، هي وحدها الرواقية (التي لا تهتم بالحزن أو الفرح) في قلب هذا السل الكوني.

يجب أن يكون الشخص حساساً جداً ليشعر بكل هذا الحزن؛ أوبالتضمين، ليصاب بالسل. إن خرافة السل تشكل بداية قصة السوداوية والكآبة ونهايتها، والتي كانت مرض الفنان، طبقاً لنظرية الأمزجة الأربعة. الشخصية الكئيبة -أو المصابة بالسل- كانت الأرفع منزلةً: حساسة ومبدعة وكياناً منفرداً. ربما عانى «كيتس» و«شيلي» من الألم الفظيع في مرضهما بالسل. ولكن شيلي واسى «كيتس» أن (هذا السل هو مولعٌ خاصةً بالناس الذين يكتبون مثل هذه الأشعار الجيدة كما فعلت أنت). وقد كانت (الكليشة) التي ربطت السل بالإبداع وطيدةً لدرجة أن ناقداً في نهاية القرن اقترح أن اختفاء السل المستمر كان السبب في الانحطاط الحالي للآداب والفنون. ولكن الأوهام المتعلقة بالسل قدمت لنا أكثر من شرحٍ للإبداع. ولقد زودتنا بطرازٍ مهم للحياة البوهيمية التي تُعاش

بوجود أو غياب وظيفة الفنان. وكان مريض السل كطالبٍ ترك المدرسة، أو متجولاً باحثاً عن المكان الصحي إلى ما لا نهاية.

لقد أصبح السل سبباً جديداً للنفي مع بداية القرن التاسع عشر. (وقبل ذلك لم يكن السفر ولا العزل في مصح علاجاً). كانت هناك أمكنة خاصة اعتُقِدَ أنها جيدة للمصابين بالسل: إيطاليا في بداية القرن التاسع عشر؛ ثم جزر في البحر الأبيض المتوسط أوجنوب المحيط الهادي؛ وفي القرن العشرين الجبال والصحراء، وفي كل الأماكن التي نُظرَ إليها نظرةً رومانتيكية. لقد نصح الأطباء «كيتس» الذهاب إلى إيطاليا؛ وجرّب «تشوبين» جزر غرب البحر المتوسط؛ واختار «روبيرت لويس ستيفنسون» منفىً في المحيط الهادي؛ وطاف «دي. إتش. لورنس» أكثر من نصف الكرة الأرضية[1].

واخترع الرومانتيكيون بالنظر إلى أن الشخص مقعد كحجةٍ لوقت الفراغ، ولنفي الالتزامات البورجوازية لكي يعيشوا فقط من أجل فنهم. وكان ذلك طريقةً للانسحاب من العالم دون تحمل مسؤولية القرار بهذا الانسحاب، مثل ذلك الذي حصل في قصة ‹ذا مجيك ماونتين› «الجبل السحري». يقوم «هانز كاستورب» الشاب بزيارة ابن عمه في مصحٍ في

1- لقد كتب «ستيفنسون»: ‹بسخرية عجيبة: إن الأمكنة التي نُرسَلُ إليها عندما تهجرنا الصحة هي أمكنة جميلة... [و] أستطيع القول: إن المريض لا يفقد العزاء كثيراً عندما يتلقى الحكم بالإبعاد، وهو يميل لاعتبار صحته المعتلة ليست الحدث الأقل حظاً في حياته. ‹ولكن تجربة مثل هذا الإبعاد الإجباري كانت شيئاً أقل ملائمةً. لا يمكن للمصاب بالسل أن يستمتع بحظه الجيد. ‹العالم بالنسبة له هو عالم متحرر من السحر›.

وقد كتبت «كاترين مانسفيلد»: يبدو أنني أقضي حياتي في الوصول إلى فنادق غريبة... يغلق الباب على الغريب، ثم أنزل تحت أغطية السرير. منتظرةً الأشباح لتخرج من الزوايا وتنسج نسيجها البطيء على أبشع ورق جدران... الرجل في الغرفة المجاورة لغرفتي عنده التذمر نفسه مثلي. وعندما أستيقظ في الليل أسمعه يدور. ثم يسعل. وبعد صمتٍ قصير أسعل أنا. ثم يسعل هو ثانيةً. ويستمر هذا لمدةٍ طويلة. حتى أشعر أننا مثل ديكين يناديان أحدهما الآخر قبل الفجر. وهناك في البعيد تقبع مزارع لا نراها.

دافوس لمدة ثلاثة أسابيع، بعد نجاحه في امتحاناته وقبل أن يبدأ في عمله في مؤسسة بناء سفن في هامبورغ. وقبل أن يُصاب «هانز»، يشخص الطبيب وجود بقعةٍ على رئتيه. ويظل في المصح الجبلي في دافوس سبع سنوات.

وبعد تثبيت العديد من الرغبات الشديدة الهدامة وتحويلها إلى معتقدات ثقافية، بقيت الخرافات المتعلقة بالسل حيةً على الرغم من التجربة الإنسانية التي لا يمكن دحضها، والتي جعلت المعرفة الطبية تتراكم مدة مئتي سنة تقريباً.

وعلى الرغم من وجود رد فعل معين ضد الإعجاب العام بالمرض في النصف الثاني من القرن الماضي، استطاع السل أن يستبقي معظم صفاته الرومانتيكية المميزة -كالإشارة إلى طبيعته الأرفع مقاماً على أنها هشاشة أو ضعف يليق به- حتى نهاية القرن القرن الحالي وأوائله. فلا يزال مرض الفنان الشاب رواية «أونيل» ‹لونك ديز جورني إنتو نايت›. ورسائل «كافكا» هي تلخيص وافٍ لمعنى السل، كما هو واضح في ‹ذا ماجيك ماونتين› الذي نشر عام 1924، السنة التي مات فيها كافكا. يدور الكثير من السخرية والتهكم في هذه الرواية على «هانز كاستوب»، المواطن متبلّد الحس، الذي أصيب بالسل، مرض الفنانين الشباب، لأن رواية «مان» كانت تعليقاً متأخراً، ويدل على الإدراك أو الوعي الذاتي للمؤلف فيما يخص السل. ولكن الرواية لا تزال تعكس الخرافة. المواطن مهذب ومطهر فعلاً من أي نقصٍ أخلاقي بفعل مرضه بالسل. وكان الموت بالسل لا يزال غامضاً وغالباً ما كان موتاً تثقيفياً وتنويرياً، وظل كذلك حتى مات كل مرضى السل في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية.

ومع أن الإصابة بالسل بدأت في التراجع بشكلٍ حاد بعد عام 1900 بسبب تحسن الظروف الصحية، إلا أن معدل الوفيات بين الذين أصيبوا

به ظل عالياً؛ وقد قُضِيَ على قوة المرض فقط عندما طُوّرَ أخيراً العلاج المناسب، مع اكتشاف الستريبتو مايسين عام 1944، والبدء في استعمال الآيسونايزيد عام 1952.

وإذا كان لا يزال من الصعب تخيل حقيقة مثل هذا المرض المرعب الذي يمكن أن يغيّر شكله تلقائياً، من المفيد أن نفكر بعملية التشويه المشابهة في عصرنا، تحت ضغط الحاجة للتعبير عن مواقف رومانتيكية عن الذات. إن موضوع التحريف والتشويه ليس السرطان طبعاً، المرض الذي لم ينجح أحد في القول عنه إنه فاتن أو ساحر (مع العلم أنه يقوم ببعض الوظائف، كاستعارةٍ قام بها السل في القرن التاسع عشر). أما في القرن العشرين، فإن المرض المنَفّرُ والمغيظ والذي قيل عنه إنه مؤشر على فرط الحساسية الأرفع مقاماً، وعربة المشاعر (الروحية) وعدم الرضا (الخطير)، هو الجنون.

إن التصورات والأوهـام المتعلقة بالسل والجنون بينها قواسم مشتركة. يُستَعملُ الحجز (حجز المريض) في غرفةٍ خاصة في كليهما. ويرسَلُ المصابون إلى مصحةٍ (الكلمة الشائعة بالنسبة لمرضى السل هي (عيادة) وبالنسبة للمجنون هي (بيمارستان)). وعندما يُبعَدُ المريض، فإنه يدخل عالماً آخر له قواعده الخاصة. ومثل السل، الجنون هو شكل من النفي. واستعارة (الرحلة النفسية)هي امتداد للفكرة الرومانتيكية عن السفر التي كانت متعلقةً بالسل. وعلى المريض أن يُخرَج من روتينه أو روتينها اليومي من أجل العلاج. وليس صدفةً أن الاستعارة الأكثر شيوعاً للتجربة السايكولوجية التي يُنظَرُ إليها بشكلٍ إيجابي -سواء أكانت ناتجةً عن العقاقير أو عن الاضطراب العقلي- هي الرحلة.

انقسمت مجموعة الاستعارات والأوصاف التي رُبِطَ السل بها في القرن العشرين، وتجمعت حول مرضين، حيث تصلح بعض ملامح السل

لوصف الجنون بها: فكرة أن المريض هو شخص طائش ومتهور مصاب بحمى السل الرئوي، وهو مخلوق يتميز بالتطرف العاطفي، وهو شخص حساس جداً، ولا يستطيع تحمل العالم اليومي المألوف والمبتذل. وهناك أعراض أخرى يمكن أن يوصف بها السرطان، وهي الآلام التي لا يمكن اعتبارها رومانتيكية. ليس السل، بل الجنون هو العربة الحالية لأسطورتنا العاميّة، أسطورة التسامي أو التصعيد الذاتي.

إن الفكرة الرومانتيكية هي أن المرض يزيد الوعي بالألم تركيزاً. كان المرض مرة السل؛ والآن هو الجنون الذي اعتُقِدَ أنه يخضع الوعي أو الإدراك إلى حالةٍ من التنوير المفاجئ. وإن وصف الجنون بأوصافٍ رومانتيكية يعكس، وبشكلٍ قوي جداً، المكانة العالية للسلوك التلقائي غير العقلاني والفظ، الذي اعتُقِدَ أنه كان يسبب السل، والذي يُعتَقَدُ أنه يسبب السرطان الآن.

الجزء الخامس

تسبب العاطفة انهيار كل ماجعل «غوستاف فون أشيلون» شخصاً فريداً – عقله، وأنشطته النفسية التي تكبح الأنشطة الأخرى، وحساسيته الشديدة وصعوبة إرضائه، بعد أن يقهره المرض كثيراً. حدث هذا في رواية ‹الموت في فينيسيا›. وفي نهاية القصة، يصبح «أشينباخ» ضحيةً أخرى للكوليرا، وكان انحطاط جسمه الأخير هو الخضوع للمرض الذي أصاب الكثيرين في فينيسيا في ذلك الوقت.

وعندما اكتُشِف أن هانز كاستورب أصابه السل، في رواية ‹ذا ماجيك ماونتين› عُدت الإصابة ترقيةً له، إذ سيجعله مرضه فريداً أكثر، وسيجعله أكثر ذكاء من قبل. وفي إحدى الروايات، فإن مرض الكوليرا هو عقوبة بسبب علاقة حبٍ سرية. وفي السل العقوبة هي التعبير عنها بالمرض نفسه. الكوليرا هي شكل من أشكال القدر الذي بَسّطَ ذاتاً معقدة وانحدر بها إلى محيطٍ مريض. والمرض الذي يضع مريضه في وسطٍ مضادٍ لمحيطه هو السل.

والـذي جعل السل يبدو ‹ممتعاً جداً –أو، كما عُبِّر عنه عادةً، رومانتيكياً– جعله أيضاً لعنةً ومصدراً للرعب، بالمقارنة مع الأمراض السابقة (وباء الطاعون، الحمى التيفية أو التيفوئيد، الكوليرا)، التي تضرب كل شخصٍ كعضوٍ من مجموعةٍ مصابةٍ من الناس. لقد فُهِمَ السل كمرضٍ يعزل المصاب عن المجموعة. ومهما كان ظهوره ثقيلاً، فإن السل –مثل

السرطان اليوم- بدا دائماً مرضاً غريباً يصيب الأشخاص فردياً، وسهماً قاتلاً يمكن أن يصيب أي شخصٍ، وينتقي ضحاياه الواحد تلو الآخر.

وكما كان مألوفاً، بعد كل موتٍ بالكوليرا، أن تُحرَق ثياب الشخص الذي مات به، كان يُحرَقُ أيضاً كل ما يتعلق بالشخص الذي مات بالسل. وقد كتب «جوزيف سيفيرن»، رفيق «كيتس»، من روما في السادس من آذار عام 1821، بعدما توفي «كيتس» في غرفته الصغيرة على الـ «بيازا دي سباغنا»: أولئك الإيطاليون القساة قد أنهوا تقريباً عملهم الوحشي. لقد حرقوا كل الأثاث، وهم الآن يكشطون الجدران، ويفتحون نوافذ جديدة، وأبواباً جديدة، وحتى أنهم يعملون أرضيةً جديدة للغرفة».

لكن السل كان مرعباً، ليس فقط كمرضٍ وبائي، مثل الكوليرا، بل كان أيضاً تحكمياً وكيفياً كما يبدو، و«تلوثاً» غير قابلٍ للنقل. واعتقد الناس أن السل وراثي (فكر بتكرار حدوثه في أُسَر «كيتس» والـ «برونتيز» و«إيمرسون» و«ثورو» و«ترولوب») واعتقدوا أيضاً أنه كَشَفَ شيئاً فريداً عن الشخص المصاب. وبشكلٍ مشابه، الدليل على أن هناك عائلات عرضة للسرطان، وربما هناك عنصر وراثي فيه، يمكن الاعتراف بهما (بالدليل وبالعنصر) دون تكذيب الاعتقاد أنه مرض يضرب كل شخصٍ بشكلٍ فرديٍ كعقابٍ أو كقصاص. لا يسأل أحد، «لماذا أنا؟» الذي يصاب بالكوليرا أوالتيفوئيد. ولكن «لماذا أنا؟» تعني (هذا ليس عدلاً)، وهو سؤال العديد من الذين يعرفون أنهم مصابون بالسرطان.

ومع أن السل عُزيَ إلى الفقر والبيئة غير الصحية، فقد كان لا زال يُعتَقَدُ أن هناك حاجة إلى وجود نزعةٍ داخليةٍ معينة في جسم الشخص الذي سيصاب به، لكي تتم العدوى بالمرض. وقد اعتقد كل من الأطباء والعامة بوجود صفةٍ نموذجيةٍ للسل، ليست محصورةً بخرافات العامة، وهي صحيحة بالنسبة لأكثر العلوم الطبية تقدماً.

بالمقارنة مع البعبع المعاصر في شخصية الإنسان المعرض للسرطان في الشخص غير العاطفي والمكبوت والمقموع، فإن الشخصية التي هي عرضة للسل والتي استقرت في تصورات الناس الذين عاشوا في القرن التاسع عشر، كانت خليطاً من وهمين مختلفين: إنه شخص يجمع الاثنين (عاطفي ومقموع أو مكبوت).

والبلاء الآخر القذر من بين أمراض القرن التاسع عشر كان مرض السيفيلس، ولكنه لم يكن غريباً على الأقل. والنتيجة التي يمكن التنبؤ بها لممارسة الجنس مع مصابٍ أومصابة به هي انتقال المرض إلى الشخص السليم. ولذلك لا مكان، بين كل التصورات المطرزة بالإثم عن التدنيس الجنسي المرتبطة بهذا المرض، لأية شخصيةٍ أوشخص يُفتَرَضُ أنه عرضة للإصابة بهذا المرض (كما كان التصور عن السل، وكما هو الآن عن السرطان). إن نموذج المصاب بالسيفيلس هو الشخص الذي نقل المرض، (أي أصيب به) وليس الشخص القابل للمرض (أي الذي سيصاب به). إنه («أوزفالد» في ‹أشباح› و«أدريان ليفركين» في ‹الدوكتور فاوستوس›) وليس شخصاً يُحتَملُ أن يُصابَ به. وبدوره كبلاء، فقد تضمن السيفيلس حكماً أخلاقياً (على الجنس الذي لا جد له، على الدعارة) ولكن ليس حكماً سيكولوجياً. بينما وصف السل أنه غريب وخفي أو مُلَغّز ومُكتَنَف بالأسرار -كما هو السرطان الآن- يشير إلى أحكامٍ من نوعٍ أعمق، أحكام أخلاقية وسيكولوجية على المريض.

لقد جعل تأمل العالم القديم من المرض أداةً للغضب الإلهي. ووزّعَ الحكم إما على المجموعة (الوباء في الكتاب الأول من الإلياذة الذي ابتلى أبولو به الإكيين عقاباً على خطف «أغاممينون» ابنة «كريسيز»؛ والوباء في ‹أوديبوس› الذي ضرب طيبة بسبب الحضور الملوّث للآثم الملكي، وهو الملك أوديب) أوعلى شخصٍ بمفرده (الجرح المُنتِن في

قدم «فيلوكتيتيز»). وإن الأمراض التي تجمعت الخرافات حولها -السل والسرطان- تُعد أشكالاً من الحكم الذاتي، أو الخيانة الذاتية.

عقل الشخص يخون جسده. (رأسي ورئتاي توصلا إلى اتفاقٍ دون علمي)، قال «كافكا» عن مرضه، السل، في رسالةٍ إلى «ماكس برود» في أيلول عام 1917. أو جسم الشخص يخون مشاعره، كما في رواية «مان» المتأخرة (البطة السوداء)، التي تُقيم بطلتها المسنة علاقة حبٍ مع شاب، تعتقدُ أن طمثها عاد لها وهي مسنة، بينما كان هذا الطمث نزيفاً وعرضاً من أعراض السرطان الذي لا يُعالَج. يُعتَقَدُ أن غدر الجسد له منطقه الداخلي. وفي مراجعةٍ لذكرياته، قال «ويلهيلم رايخ»: إن «فرويد كان جميلاً جداً... عندما تكلم، ثم ضربه (المرض) بالضبط هنا، في الفم. وكان ذلك بداية اهتمامي بالسرطان». ذاك الاهتمام قاد «رايخ» لأن يعرض نسخته من الرابطة التي تكلم عنها بين المرض القاتل وشخصية الذين يُذلّهم.

إن الرأي ما قبل الحديث عن المرض يقول: إن دور شخص المريض كان مقتصراً على سلوكه بعد الإصابة بالمرض. ومثل أي موقفٍ يتسم بالتطرف، فإن الأمراض المرعبة تستدعي أسوأ ما عند الناس وأفضل ما عندهم. بينما الأوصاف المثلى للأوبئة أو (الأمراض المعدية) هي بشكلٍ رئيس أوصاف أو شرح لآثار المرض على الشخص. وكلما كانت الفكرة المسبقة للذي يصف ويشرح المرض هزيلةً كالقول: إن المرض عبارة عن عقابٍ للشر، صار احتمال أن الوصف سوف يركز على الفساد الأخلاقي الذي أظهره انتشار المرض حتى ولو لم يُعد المرض حكماً على المجموعة، فهو سيصبح حكماً، باستعادة وصفه، عندما يبدأ الحديث حول أنه عقاب على الانحطاط الأخلاقي.

يروي «ثيوسيديز» طرق انتشار الوباء في أثينا عام 430 بعد الميلاد. لقد أشاع الفوضى وغياب القانون (حل السرور الآني محل النبل والمنفعة

الذاتية») وأفسد اللغة نفسها. وكان أهم شيء في وصف «بوكاشيو» للوباء العظيم في الصفحات الأولى من «ذا دي كاميرون» هو كيف تصرف مواطنو فلورنسا بشكلٍ سيء.

وبالمقارنة مع هذه المعرفة الازدرائية عن أن معظم الولاءات وعلاقات الحب تتبعثر بسبب الرعب الذي يسببه المرض المعدي، فإن أوصاف الأمراض المعاصرة -حيث يميل الحكم لأن يقع على الفرد وليس على المجتمع- تبدو غير واعية، إلى حدٍ مبالغٍ فيه، بالاستخفاف الذي ينظر الناس به إلى أخبار الموت. لقد عد المرض القاتل دائماً أنه اختبار للشخص الأخلاقي، ولكن في القرن التاسع عشر، كان هناك تقاعس كبير في أن يُتَرَكُ أي شخصٍ يسقط في الاختبار. وكان أصحاب الفضيلة فقط هم الأكثر سقوطاً في الاختبار والسير نحو الموت. هذا إنجاز مثالي للذين ماتوا بالسل في الأدب، ويتفق مع تحويل السل إلى مرضٍ روحي، ومع اعتبار الرعب الذي يسببه متعلقاً بالعواطف. ولكن السل قدّم موتاً فيه خلاص للساقطين، مثل المومس الصغيرة في «البؤساء»، أو موتاً فيه تضحية بالنسبة لصاحب الفضيلة، مثل بطلة «سلمى لاجرلوف» في «فانتوم تشاريوت». حتى الفاضلون جداً، عندما يموتون بالسل، فهم يطلقون أنفسهم كأسهم إلى مرتفعاتٍ أخلاقيةٍ شاهقة. إن «إيفا الصغيرة» في «كوخ العم توم»، خلال آخر أيامها تلح على والدها أن يصبح مسيحياً جاداً ويحرر عبيده. وبعد أن علمت «ميلي ثيل» أن خطيبها هو صياد ثروة، في رواية «أجنحة الحمامة»، توصي بثروتها له ثم تموت. وفي رواية «دومبي والابن»، شعر [«بول»] باندفاعٍ عاطفيٍ نحو كل شيء وكل واحد في المكان وذلك لسببٍ خفي، لم يكن مفهوماً له.

بالنسبة للشخصيات التي تمت معالجتها بعاطفيةٍ أقل، فإنه يُنظَر إلى المرض كمناسبةٍ للتصرفٍ بشكلٍ جيد أخيراً. وعلى الأقل، فإن كارثة المرض يمكن أن تمَهّد الطريق للتمعن في غُش الذات طوال الحياة وفي

فشل الشخصية. إن الأكاذيب التي تكتم نفس «إيفان إيليتش» وتخنق ألمه -نظراً إلى أن سرطانه ليس سرطاناً لا يمكن ذكره لزوجته وأطفاله- يكشف له أكذوبة حياته كلها. وعندما نراه على فراش الموت، فهو، للمرة الأولى في حياته، في حالة صدقٍ مع الذات. فالموظف المدني الذي يبلغ ستين عاماً من العمر في فيلم «كوروساوا»، «إيكيرو»، (1952) يترك عمله بعدما علم أنه مريض بسرطان المعدة القاتل، حيث كان مدافعاً عن قضية حي الفقراء البائس، يقاتل البيروقراطية التي كان يعمل لها. يريد «واتانابي»، الذي يعلم أنه سيعيش آخر سنةٍ له في هذه الدنيا، أن ينقذ حياته التي لا معنى لها.

الجزء السادس

يظهر المرض في الإلياذة والأوديسا كعقابٍ خارقٍ للطبيعة، كملكيةٍ شيطانية. وكنتيجة لأسباب طبيعية بالنسبة للإغريق، يمكن أن يكون المرض بلا مسوِّغ أو مبرر، ويمكن أن يكون مُستَحَقّاً (بسبب خطأٍ شخصي، إثمٍ جماعي، أوجريمةٍ قام بها الجدود) مع قدوم المسيحية، التي فرضت مفاهيم ذات صبغةٍ أخلاقية، كما فرضتها على كل شيء آخر، نمت ملائمة أقرب بين المرض و(الضحية) بالتدريج. إن فكرة المرض كعقاب أو قصاص، ولّدت فكرة أن المرض يمكن أن يكون قصاصاً مناسباً وعادلاً، فجذام «كريسيد»، في كتاب (علاج «كريسيد»)، والجدري الذي أصيبت به «مدام دي ميرتيل» في رواية (العلاقات الخطرة)، تُبيّنُ الوجه الحقيقي للكذّاب الجميل، وهو أكثر كشفٍ لا إرادي.

في القرن التاسع عشر، أُزيحَ مفهوم أن المرض يلائم شخصية المريض، مثلما يلائم العقابُ المذنبَ، ليحل محله مفهوم أن المرض يُعبر عن الشخص المريض. ويمكن للإرادة أن تتحدى المرض. (تعرض الإرادة نفسَها كجسمٍ منظم) كتب «شوبنهاور»، لكنه أنكر أنها نفسها يمكن أن تمرض. ويعتمد الشفاء من المرض على الإرادة التي يُفترَضُ أن لها (قوة دكتاتورية كي تُصَنّفَ قوى الجسم المتمردة). وقد استعمل د. «بيشات»، قبل عقد من الآن، صورةً شبيهة للإرادة وما يمكن أن تفعله، بعد أن سمى الصحة (صمت الأعضاء الذي يُسقِمُ هذه الأعضاء). المرض

هو الشيء الذي يتكلم، من خلال الجسم، لغة ما تعبر بلغةٍ مسرحية عن الشيء الذهني أو الفكري: هذه اللغة هي شكل من أشكال التعبير الذاتي. وصف «غروديك» المرض كـ (رمز، أو تمثيل لشيءٍ يحدث في الداخل، مسرحية تُمَثَّل بضمير غير العاقل (إت...)»[1].

ووفق الصورة المثلى ما قبل العصر الحديث للشخصية المتوازنة، يُفتَرَضُ أن تكون قدرتها التعبيرية محدودةً. ويُعَرَّفُ السلوك بقدرته الكامنة على التطرف. وهكذا، عندما يتكلم «كانت»عن السرطان، فهو يستعمل تعبيراً مجازياً، إنه استعارة للشعور المتطرف. (العواطف هي سرطانات حدثت لسببٍ عمليٍ نقي، وهي غالباً عصية على العلاج). هذا ما كتبه «كانت» في (أنثروبولوجي) (1798). وأضاف: (العواطف هي... حالات نفسية غير محظوظة وحُبلَى بالعديد من الشرور)، مستدعياً الصلات، أو الروابط القديمة المجازية بين السرطان والحَمل. وعندما يقارن العواطف (أي المشاعر المتطرفة) بأمراض السرطان، إنه طبعاً يستعمل معنى السرطان ما قبل العصر الحديث، ويستعمل تقييماً للعواطف من مرحلة ما قبل الرومانتيكية.

وبعد وقتٍ قصير، صار يُنظَرُ إلى المشاعر المضطربة نظرةً أكثر إيجابية. وقد قال «روسو»: لا يوجد أي واحدٍ في العالم أقل قدرة على إخفاء مشاعره من «إيميل» – قاصداً مدحه.

عندما تتحول العواطف المتطرفة إلى إيجابية، تتوقف المقارنة بينها – من أجل إنكارها– وبين مرضٍ مرعب. وبدلاً من ذلك، يُنظَرُ إلى المرض

1– كتب «كافكا»، بعد تشخيص مرضه بالسل في أيلول عام 1917، في دفتر مذكراته: (... الإصابة في رئتيك هي رمز فقط)، رمزٌ لجرحٍ عاطفي يُسَمَّى التهابه [فيليس]...) وكتب إلى «ماكس برود»: (يتكلم المرض من أجلي لأنني طلبت منه ذلك)؛ وكتب إلى «فيليس» سراً: لا أعتقد أن هذا المرض هو السل، وعلى الأقل، ليس سلاً بشكل أولي، بل هو إشارة لإفلاسي العام).

كعربةٍ للمشاعر المتطرفة. السل هو المرض الذي يبدي المريض به رغبته الجامحة؛ وهذا يكشف، على الرغم من تقاعس الشخص، الشيء الذي لا يريد الشخص أن يكشفه. وتصبح المقارنة، ليس بين العواطف المعتلة والمتطرفة، بل بين العواطف المخبأة والعواطف التي كُشِفَ عنها. يكشف المرض الرغبات التي ربما لم يكن المريض مدركاً لوجودها. الأمراض -والمرضى- يصبحون موضوعاتٍ يجب أن تُفَكَ رموزها وتُكشَفُ معانيها. وهذه العواطف والمشاعر المخبأة تُعد الآن مصدراً أو سبباً للمرض. وقال «بليك»: (إن الذي يرغب ولا يفعل يُوَلِّدُ الطاعون). وقد كتب «بليك» واحداً من الأمثال المتحدية للجحيم.

لقد بحث الرومانتيكيون الأوائل عن المنزلة الرفيعة عن طريق الرغبة، والرغبة في الرغبة بعاطفيةٍ وجهد أكثر مما يفعل الآخرون. وإن عدم القدرة في تحقيق هذه المُثُل المتعلقة بالحيوية والتلقائية التامة، اعتُقِدَ أنها تجعل شخصاً ما مرشحاً مثالياً للإصابة بالسل. وتبدأ الرومانتيكية المعاصرة من المبدأ العكسي (المقلوب رأساً على عقب) الذي هو أن الآخرين الذين لديهم رغبات جامحة أو شديدة، هم المرشحون للسل. والمرشح أيضاً هو الشخص ذاته الذي يقص القصة، والذي لديه رغبة قليلة أو لا رغبة لديه أبداً.

وهناك سباقون للذوات (مجموع ذات) الرومانتيكية الحديثة الخالية من المشاعر في روايات القرن التاسع عشر الروسية («بيخورين» في رواية (بطل زماننا)، لِـ «ليرمونتوف»، و«ستافروجين» في رواية (الأبله)). لكن لا تزال هذه الشخصيات أبطالاً يشعرون بالقلق والمرارة، فهم مدمرون لذواتهم، ويتعذبون بسبب عدم قدرتهم على الشعور. وبدا المتحدرون من هذه الشخصيات آنفة الذكر أوخلفهم المكتئبون والمنغلقون على ذاتهم والمستغرقون من قبلها، مرعوبين من عدم قدرتهم على الرغبات والمشاعر. والأمثلة كثيرة: «روكوينتين» في (الغثيان)، لِـ «سارتر»،

و«ميرسولت» في ‹الغريب›، لِـ«كامو». وإن نقيض البطل، الكسول والمنفعل والخالي من المشاعر والعواطف، الذي يطغى على الأدب الأمريكي المعاصر هو مخلوق ذو روتينٍ منتظم، أوشخص منغمس في الفسق والملذات. ونقيض البطل هذا ليس مدمراً لذاته، ولكنه فطنٌ وليس مزاجياً ولا متهوراً، وهو عنيف ومنفصل عن الآخرين. هذا هو المرشح المثالي وفق الميثيولوجيا المعاصرة، للإصابة بالسرطان.

إن التوقف عن اعتبار المرض عقاباً ملائماً للشخصية الأخلاقية الموضوعية، وجعله تعبيراً عن الذات الداخلية، يمكن أن يبدو أقل تزمتاً. لكن هذا الرأي يتضح أنه تماماً مثل، أو حتى أكثر تزمتاً وعقاباً، بالنسبة للأمراض الحديثة (السل سابقاً والسرطان الآن). إن الفكرة الرومانتيكية أن المرض يعبر عن الشخصية تُمَدُّ للتأكيد على أن الشخصية تسبب المرض، لأنها لم تعبر عن نفسها. العاطفة تتحرك نحو الداخل، ضاربةً ومفسدةً أعمق الجيوب الخليوية. ‹الرجل المريض نفسه يخلق المرض›، كتب «غروديك»؛ ‹هو سبب المرض ولا حاجة بنا لأن نبحث عن أي مسبب آخر›. ويترأس «باسيلي» قائمة ‹الأسباب الخارجية› – التي تتبعها ‹قشعريرة، وحمى، وشرب أكثر من اللازم، عمل، وأي شيء آخر›. وهو يصر ‹لأنه ليس مسراً أن ننظر داخل أنفسنا›، وأن الأطباء يفضلون أن يهاجموا الأسباب الخارجية بالمعالجة الوقائية، وتجنب العدوى، وهكذا، على أن يتعاطوا مع الأسباب الداخلية الحقيقية للمرض. وفي صياغة «كارل مينغر» الأكثر حداثةً: ‹المرض هو ما فعله العالم لضحيةٍ ما [للشخص المصاب] من ناحية، أما من الناحية الثانية، فهو ما فعلته الضحية، [المريض] بعالمه، وبنفسه...›.

إن مثل هذه الآراء المنافية للطبيعة والعقل والخطيرة تنجح في تحميل المريض مسؤولية المرض، وليس فقط تضعف قدرة المريض على فهم مدى العلاج الطبي الممكن، ولكن أيضاً توجهه بعيداً عن مثل هذا

العلاج. ويُعتَقَدُ أن المداواة تعتمد بشكلٍ أساسي على مقدرته وقابليته التي اختُبِرَت مسبقاً أو التي أُضعِفَت لحب الذات. وقد كتبت «كاترين مانسفيلد» قبل موتها بسنة (1923) في مجلتها:

يوم سيء... آلام مبرحة وضعف. لم أستطع أن أفعل شيئاً. لم يكن الضعف جسدياً فقط. يجب علي أن أعالج نفسي قبلما أتحسن... يجب أن أقوم بهذا وحدي وحالاً. إن هذا هو السبب الرئيس في تحسن صحتي. لا أستطيع السيطرة على عقلي.

لا تعتقد «مانسفيلد» فقط أن «الذات» هي التي جعلتها مريضةً، ولكنها تعتقد أن لديها فرصة للشفاء من مرضها، التهاب الرئة المتقدم إذا استطاعت أن تداوي تلك «الذات» وتشفيها[1].

كل الخرافات التي كانت متعلقةً بالسل والخرافات المرتبطة بالسرطان الآن تقترح أن الشخص مسؤول عن مرضه.

ولكن اللغة المجازية المتعلقة بالسرطان هي أكثر عقاباً وقصاصاً بكثير. ومع الأخذ بعين الاعتبار القيم الرومانتيكية قيد الاستعمال للحكم على الشخص والمرض، يظهر بعض السحر أو الفتنة مرتبطاً بمرضٍ، يُعتَقَدُ أنه يصيب الشخص المشحون بالعواطف. ولكن هناك عار، على الأغلب، مرتبط بالمرض الذي يُعتَقَدُ أنه ناجم عن كبت العواطف والأحاسيس، عار أو خِزي له صداه في الآراء التي قدمها «غوديك» و«رايخ» والكثير من الكتاب المتأثرين بهما. والرأي القائل إن السرطان هو المرض الذي يسببه الفشل في تعبير الذات عن نفسها، يُدين مريض السرطان ويعده مذنباً. هذا

1- لقد كتب «جون ميدلتون» عن «كاترين مانسفيلد»، أنه وصل إلى القناعة أن صحتها الجسدية اعتمدت على حالتها الروحية. كان عقلها من الآن فصاعداً منشغلاً باكتشاف طريقةٍ ما «لتداوي روحها»؛ وصممت أخيراً، ويا للأسف، أن تقلع عن معالجة مرضها، وأن تعيش وكأن مرضها المهلك كان عرضياً، وحتى أنها حاولت بقدر ما استطاعت، وكأنه غير موجود.

الرأي يعبر عن الشفقة، ولكنه أيضاً يعبر عن الخزي والعار. الآنسة «غي»، في قصيدة «أودن» في ثلاثينيات القرن العشرين (مرت بجانب العاشقين الاثنين) و(استدارت برأسها جانباً). ثم:

انحنت مس غي في الممر الجانبي،
انحنت على ركبتيها؛
لا تقودني إلى الغواية
ولكن اجعلني فتاةً طيبة، من فضلك.
مرت بها الأيام والليالي
مثل الأمواج حول كورنيشٍ مهدم؛
ركبت دراجتها وذهبت إلى الطبيب،
و ضغطت جرس غرفة الجراحة؛
(أوه، أشعر بالألم في داخلي يا دكتور،
ولا أشعر بالراحة).
نظر إليها الدكتور توماس من الأعلى إلى الأسفل
ثم نظر ثانيةً بالطريقة نفسها؛
مشى إلى حيث حوض الغسيل في الغرفة،
قال: (لماذا لم تحضري من قبل؟)
جلس د. توماس يتناول غداءه،
مع العلم أن زوجته كانت تنتظر سماع ضغطه على الجرس،
محولاً قطعة خبزه إلى كراتٍ صغيرة؛
قال: السرطان شيء مضحك.
لا أحد يعلم ما هو سبب السرطان،
علماً أن بعضهم يدعون العلم
هذا مثل قاتل مجهول

مكتبة
t.me/t_pdf

ينتظر الانقضاض عليك
(النساء اللاتي لا أطفال لهن يصبن به،
والرجال عندما يُحالون على المعاش؛
وكأنه وجب عليهم إيجاد مخرجٍ ما
للحريق الخلاق المحبط داخلهم)...

يمكن أن يكون مريض السل طريد عدالة أو شخصاً غير قادرٍ على التكيف مع المجتمع؛ بينما شخصية مريض السرطان تُعد ببساطة أكبر، كشخصية مريضٍ هو واحد من الذين خسروا حياتهم. وقد شُخِّصَ سرطان نابوليون ويوليسيس غرانت وروبيرت تافت وهيوبيرت همفري، بأنه رد فعلهم على هزيمتهم السياسية وبتر طموحاتهم وتحطيمها. ومن الصعب أن نصف أولئك الأشخاص الذين ماتوا بالسرطان أنهم خاسرون. ومن الصعب أيضاً القبول بتشخيص مرض فرويد وويتجنشتاين أنه العقاب الرهيب والشنيع الذي أُنزِلَ بهما بسبب الإنكار الغريزي أوالديني الذي مارساه. (قليل من الناس يتذكرون أن «رامبو» مات بالسرطان). وبالمقارنة، فإن المرض الذي أخذ أشخاصاً مثل كيتس وبو وتشيخوف وسيمون ويل وإيميلي برونتي وجان فيكو كان تأليهاً بقدر ما كان حكماً بالفشل.

الجزء السابع

يُعتَقَدُ بشكلٍ عام أن السرطان مرض غير ملائم لشخصٍ رومانتيكي، بالمقارنة مع السل، ربما لأن الاكتئاب غير الرومانتيكي حل محل المفهوم الرومانتيكي. كتب «بو» عن السوداوية: (إن الإجهاد أو التوتر المتقطع بسبب السوداوية، يوجد متلازماً دائماً مع كمال الشخص الجميل). الاكتئاب هو السوداوية ناقصةً من سحرها المنَشّط والمفعم بالحياة، إنه التشنجات المتقطعة.

يوجد أدب نام وكم كبير لا يستهان به من البحوث التي تدعم نظرية الأسباب العاطفية للسرطان. وقلما يمر أسبوع دون ظهور مقال يعلن للجمهور العام عن وجود صلةٍ علميةٍ بين السرطان والمشاعر المؤلمة. ويُستَشهَدُ بالتحريات والتحقيقات -معظم المقالات تشير إلى التحريات نفسها- التي تقول أن من بين عدة مئاتٍ من مرضى السرطان، ونحو ثلثيهم أو أربعة أخماسهم يقولون للباحثين إنهم يعانون من الاكتئاب أوغير راضين عن حياتهم، وأنهم قاسوا من فقدان (بسبب الوفاة أوالرفض أوالانفصال) الأب أو الحبيب أو الزوج أو الصديق المخلص. ولكن يبدو من المحتمل أن من بين عدة مئاتٍ من الناس الذين لم يمرضوا بالسرطان، رغبوا في أن يخبروا أنهم كانوا يعانون من وجود عواطف لديهم تؤدي إلى الاكتئاب ونوع من الصدمات الماضية: وهذا يُسَمَّى الحالة الإنسانية. وهذه الحالات أو الوقائع موصوفةٌ بلغةٍ يائسةٍ واضحة، لغة تتكلم عن

عدم الرضا أو عن قلقٍ مستحوذٍ على المريض ومستَبِدٍّ به، بحيث يسبب له الهواجس المقلقة، وعن انشغاله بذاته المنعزلة و(علاقاتها) غير المرضية، التي تحمل الطابع الواضح لثقافتنا الاستهلاكية. إنها اللغة التي يستعملها العديد من الأمريكيين للتكلم عن أنفسهم[1].

إن التحريات التي أجراها بضعة أطباءٍ في القرن الماضي بينت أن هناك ارتباطاً كبيراً بين السرطان وتذمرات تلك الحقبة، بالمقارنة مع مرضى السرطان الأمريكيين المعاصرين، الذين لديهم مشاعر العزلة والوحدة منذ الطفولة، فقد وصف مرضى السرطان في العصر الفيكتوري حياتهم المزدحمة، والمثقلة بالعمل والالتزامات العائلية والحرمان. لم يتحدث أولئك المرضى عن عدم رضاهم عن حياتهم بحد ذاتها ولم يتأملوا

1- وهكذا فقد لُخِّصت دراسة قامت بها د. «كارولاين بيديل توماس» في المدرسة الطبية لجامعة «جونز هوبكينز» ونشرتها في مقالةٍ صحفية ((هل تستطيع شخصيتك أن تقتلك؟)): (باختصار، ضحايا السرطان هم أشخاص من عيارٍ منخفض، ونادراً ما يكونون فريسة انفجارٍ أو هيجانٍ عاطفي. لديهم مشاعر بالعزلة تعود إلى أيام الطفولة). وقد رسم د. «كلاوس» و د. «مارجوري بانسون» من كلية التحليل النفسي في جامعة شرق بنسلفانيا، قالباً لشخصية مريضٍ بالسرطان منكرٍ للخصومة والعمل العدائي والاكتئاب وذكرى الحرمان العاطفي في طفولته) والصعوبة في الاحتفاظ بعلاقاتٍ عاطفية صادقة. ويصف «د. أو. كارل سيمونتون، وهو طبيب أشعة في (فورت ورث، تكساس، يقوم بتصوير المرضى بالأشعة وبعلاجهم النفسي، شخصية مصاب السرطان كشخصٍ (لديه ميل شديد للشفقة الذاتية وقدرة ضعيفة بشكلٍ واضح لإقامة علاقاتٍ اجتماعيةٍ ذات معنى مع الآخرين والحفاظ عليها). ويزعم «لورنس شان»، طبيب نفسي من نيو يورك وهو معالج نفسي أيضاً، ومؤلف كتاب بعنوان(تستطيع أن تدافع عن حياتك: العوامل العاطفية التي تسبب مرض السرطان (1977))، أنه (يوجد نموذج عام لصورة شخصية المريض بين غالبية المصابين بالسرطان) و أن الرأي العالمي الذي يسبق تطور البحث فيه يشارك المرضى به، ويسبق تطور البحث المتعلق بالسرطان. إنه يقسم (القالب العاطفي الأساسي لمريض السرطان) إلى ثلاثة أجزاء: (طفولة أو مراهقة تتميز بمشاعر العزلة)، وفقدان (العلاقات ذات المعنى) التي توجد في سن البلوغ، وإيمان راسخ لاحق لهذا كله أن الحياة ليس فيها أي أمل). ويكتب «لوشان» أن (مريض السرطان يسخر من نفسه، ومن قدراته وإمكاناته). إن مرضى السرطان (خالون من أنفسهم).

بمواصفاته، ولا بإمكانية ‹العلاقة ذات المعنى›. وجد الأطباء الأسباب والنزعات المسبقة لسرطان مرضاهم› في الحزن والقلق (الذي كان أكثر حدة عند رجال الأعمال وأمهات الأسر الكبيرة) والظروف الاقتصادية المعتدلة، وفي التبدلات المفاجئة للثروة وفي العمل الإضافي الشاق، أوإذا كان المرضى كتاباً ناجحين أو سياسيين، في الحزن والغضب والإجهاد الفكري الزائد والقلق المصاحب للطموح واضطراب الحياة العامة[1].

لقد اعتُقِدَ أن مرضى السرطان في القرن التاسع عشر يُصابون بالمرض كنتيجةٍ للنشاط المفرط والقوة المفرطة. وقد بدوا مفعمين بالعواطف التي كان يجب أن تُلَطّف. وكوقايةٍ من مرض السرطان، فقد ألح طبيب إنكليزي على مرضاه ‹أن يتجنبوا الإفراط في فرض ضريبةٍ على قوتهم، وأن يتحملوا مصائب الحياة باتزانٍ ورباطة جأش؛ وفوق كل شيء، ألا يدعوا مجالاً للحزن الشديد ولا «يستسلموا له»». وقد حل محل مثل هذه النصائح الرواقية في عصرنا الوصفات الطبية للتعبير عن النفس، من الحمل حتى الولادة. وقد نصح طبيب من بوسطن عام 1885، ‹أولئك اللواتي عندهن أورام حميدة في الثدي بحسنات أن يكن مبتهجات›. وإن

1- وفي العديد من دراسات السرطان في ملاحظات «هربرت سنو» في كتابه ‹ملاحظات طبية سريرية على السرطان›عام (1883)، أشار فيها إلى ‹كثير من الاضطراب والعمل المضني›. وقد كان «سنو» جراحاً في مستشفى السرطان في لندن، وكان معظم المرضى الذين عاينهم فقراء. وهذه ملاحظة نموذجية: ‹من 140 حالة سرطان الثدي، تحدثت 103 من النساء عن اضطرابٍ عقليٍ سابق وعملٍ مضنٍ، أوعن عوامل أخرى سببت ضعفهن. أما الأطباء الذين عاينوا مرضى ميسورين فقد سجلوا ملاحظاتٍ أخرى. ونشر الطبيب «ج. فون شميت» الذي عالج «أليكساندر دو ماس» كتاباً عن السرطان عام (1871) سجل فيه قائمةً من الملاحظات: بين فيها أن الأسباب الرئيسة للمرض هي›دراسة واهتمامات عميقة ومستقرة، إثارة وقلق واضطراب شديد من الحياة العامة، هموم وقلق متعلق بالطموح، نوبات متقطعة من الغضب والهياج، حزن عميق وشديد›. وقد اقتُبست هذه الأسباب في ‹العواطف هي سبب السرطان: إسهامات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر›، مراجعة للتحليل النفسي (حزيران 1955). والتي كتبها «ساموبل ج. كاول».

مثل هذه النصائح الآن تُعد مشجعةً على نوعٍ من الانفصام، الذي هو عبارة عن ميلٍ أو نزعةٍ للإصابة بالسرطان.

غالباً ما تَقتَبِسُ الأوصاف الشعبية للمظاهر النفسية للسرطان المراجعَ القديمة بدءاً من «غالين»، الذي لاحظ أن ‹النساء السوداويات› من المحتمل أن يصبن بسرطان الثدي أكثر من النساء ذوات ‹المزاج الدموي›. لكن المعاني تغيرت، فقد قصد غالن (القرن الثاني ب. م) بالكآبة أو السوداوية حالةً فيزيولوجية للشخص بأعراضٍ منطقيةٍ للشخصية؛ نعني (المزاجية المعقدة للشخص). وأشار الجراح الإنكليزي «سير أسلي كوبر» سنة 1845 أن ‹الحزن والقلق› هما من بين الأسباب الأكثر حدوثاً لسرطان الثدي. ولكن ملاحظات القرن التاسع عشر تُقَوِّضُ أكثر من أن تدعم مفاهيم أواخر القرن العشرين وأفكاره، مثيرةً أو مستدعيةً نموذجاً مكتئباً، ويكاد يكون عكس أونقيض المخلوق الخامل عاطفياً والكاره لنفسه والمَنسيّ، الذي هو شخصية مريض السرطان المعاصرة. وطبقاً لما أعرفه، لا يوجد طبيب الأورام المقتنع بفعالية العلاج الكيميائي متنوع العناصر والعلاج الذي يزود المريض بالمناعة الذي أسهم به الأدب الخاص بشخصية مريض السرطان. ولا حاجة للقول إن فرضية الكرب والمحنة يمكن أن تؤثر على الاستجابة المناعية (وفي بعض الظروف، على المناعة المنخفضة ضد المرض). هذه الفرضية ليست الرأي القائل نفسه إن العواطف تسبب الأمراض أو هي الدليل على الإصابة. ثم ماذا عن الاعتقاد أن عواطف ومشاعر معينة يمكن أن تسبب أمراضاً محددة؟

إن الحدس الحديث عن نموذج الشخص الذي هو عرضة للإصابة بالسرطان تسبقه نسخة مطابقة وصحيحة في الأدب المتعلق بالسل، حيث كانت معروفةً لفترةٍ طويلة. وقد صرّح «جيديون هارفي» (1672) في كتابه ‹موربيدوس أنجليكوس› أن ‹السوداوية أو الكآبة› و‹المرارة› هما السبب الوحيد للسل (الذي عبّر عنه مجازياً باستعمال كلمة ‹حت› أو ‹تعرية› أو

تآكل). عام 1881، أي قبل سنةٍ من نشر «روبيرت كوخ» ورقته، معلناً عن اكتشاف عصية السل، ومبيناً أنها سبب مرض السل الأساسي. وقد بين كتيب طبي قدم أسباب السل على أنها: الميل الوراثي للمرض، المناخ غير الملائم، الحياة المستقرة داخل الأبواب، التهوية الناقصة، قلة الإضاءة، «المشاعر المكتئبة». ومع أن المدخل غُيِّرَ عدة مرات، فلقد استغرقت هذه الأفكار وقتاً طويلاً لتفقد مصداقيتها. وكتب «كافكا» إلى «ميلينا» عام 1920: «إنني مريض عقلياً، مرض الرئتين ليس شيئاً مهماً، ولكنه فيضان لمرضي العقلي». وبسحب هذا الكلام على مرض السل، فإن نظرية أن العواطف تسبب الأمراض بقيت حيةً حتى هذا القرن، وأخيراً، حيث اكتُشِفَ كيف نداوي المرض. إن التطبيق الحالي الدارج لهذه النظرية -التي تربط السرطان بالانكفاء أو الانسحاب العاطفي ونقص الثقة بالنفس ونقص الثقة بالمستقبل- من المحتمل أن يثبت أنه ممكن الدفاع عنه أو الاحتفاظ به أكثر من تطبيقه على السل.

في إنكلترا المبتلاة بالوباء في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر وفق المؤرخ «كيث توماس»، كان من المعتقد على نطاقٍ واسع أن «الشخص السعيد لا يصيبه المرض». والوهم أن الحالة السعيدة للعقل تصون صاحبه من المرض أنها ازدهرت بالنسبة لكل الأمراض المعدية، قبل فهم طبيعة المرض. والنظريات القائلة إن أسباب الأمراض هي الحالات العقلية، ويمكن علاجها بقوة الإرادة هي مؤشر على مدى عدم فهم الطبيعة الفيزيائية للمرض.

والأكثر من هذا، هناك ميل أو نزوع معاصر للتفسير النفسي للمرض، كما هو لكل شيءٍ آخر. يبدو أن التفسير النفسي يقدم لنا سيطرةً على التجارب والحوادث (مثل الأمراض الخطيرة) التي لا يسيطر عليها الناس. الفهم النفسي للمرض «يُقَوِّضُ» حقيقة المرض. ويجب أن تُشرَحَ هذه الحقيقة أو الواقعية. «إنها تعني بالفعل؛ أو هي رمز لِ؛ أو يجب أن تُفَسَّرَ هكذا». بالنسبة للذين لا يوجد لديهم مواساة أو عزاء للموت ولا أي إحساس بالموت أو بأي شيء آخر طبيعي. الموت هو سرٌ غامض

قذر، وهو التحدي أو النهاية القصوى، أو الشيء الذي لا يمكنهم السيطرة عليه، يمكن أن يُنكَرَ فقط. ويأتي جزء كبير من شعبية وقدرة الصفراء (المرارة) على الإقناع من أنها روحانية متسامية أو مصعَّدة: طريقة علمية ودنيوية أو مزعومة للتشديد على أسبقية الروح على المادة. تلك الحقيقة المادية التي لا يمكن اجتنابها أو تغييرها، فالمرض يمكن أن يُفَسّرَ تفسيراً نفسياً، ويمكن أن يُعد الموتُ نفسه، في المطاف الأخير، ظاهرةً نفسية. وقد صرح «غروديك» في ‹كتاب الضمير غير العاقل [هو أو هي]› (كان يتكلم عن السل): ‹إن من يرغب في أن يموت هو وحده الذي سيموت، هو من لا تُطاق الحياة بالنسبة له›. الوعد بانتصارٍ مؤقت على الموت متضَمَّنٌ في الكثير من التفكير النفسي الذي يبدأ من «فرويد» «ويونغ».

وعلى أقل تقدير، يوجد الوعد بانتصارٍ على المرض، ويصبح المرض ‹الفيزيائي› بشكلٍ أو بآخر أقل حقيقة أو واقعية –ولكن، بالتعويض، أكثر إمتاعاً– طالما ظل يُعد مرضاً عقلياً. وقد مال التفكير في الفترة الحديثة إلى توسيع فئة المرض العقلي. وبالفعل فإن جزءاً من إنكار الموت في هذه الثقافة هو توسع كبير لفئة المرض كمرض.

يتوسع المرض بوساطة فرضيتين. الأولى هي أن كل شكل من الانحراف الاجتماعي يمكن أن يُعد مرضاً. وهكذا، إذا أمكن اعتبار السلوك الإجرامي مرضاً، إذن يجب ألا يُدان أو يُجَرّم المجرمون أو يعاقبوا ولكن يجب أن يُفهموا (كما يفهم الطبيب) ويُعالجوا ويُداوا[1]. والفرضية الثانية هي أن كل مرض يمكن أن يُنظر إليه نظرةً نفسية.

1- هناك شرح مبكر لهذا الرأي، الذي يُعد الآن في موقفٍ دفاعي، في كتاب «ساموبل بتلر» ‹إيريوهون› (1872). بينت طريقة «بتلر» في اقتراح أن النزعة الإجرامية كانت مرضاً، مثل السل، الذي كان إما وراثياً أو نتيجة بيئةٍ ضارةٍ وفاسدة، لا معقولية إدانة المرضى. في كتاب «بتلر» أولئك الذين قتلوا أو سرقوا يُعامَلون كأشخاصٍ مرضى، بينما يُعاقبُ السل على أنه جريمة.

يُفسِّرُ المرض أنه حدث نفسي في الأساس، ويُشَجّعُ الناس على الاعتقاد أنهم يمرضون لأنهم (دون وعيٍ منهم) يريدون، وأنهم يستطيعون أن يداووا أنفسهم عن طريق تفعيل إرادتهم؛ وأنه من الممكن أن يختاروا عدم الموت بسبب المرض. هاتان الفرضيتان هما متممتان بعضهما لبعض. فمثلما تبدو الأولى أنها تبرأُ من الذنب، فإن الثانية تُرجعه أوتُعيده إلى وضعه السابق. إن النظريات السيكولوجية المتعلقة بالمرض وسيلة قوية لإلقاء اللوم على المريض. وإن المرضى الذين يُقال لهم، بشكلٍ خالٍ من الفطنة والحذر، أنهم كانوا السبب في مرضهم، هم أيضاً، لهذا، يشعرون أنهم يستحقون هذا المرض.

الجزء الثامن

هناك تاريخ طويل للمفاهيم العقابية عن المرض، ومثل هذه المفاهيم أو الأفكار هي نشطة خاصةً فيما يتعلق بالسرطان. يوجهُ «القتال» أو «الحملة الصليبية» ضد السرطان؛ ذاك المرض القاتل؛ وإن المصابين به هم «ضحايا السرطان». من الواضح أن المتهم أو المجرم هو المرض، ولكن مريض السرطان أيضاً هو الذي حُوّلَ إلى متهم. يعتَقَدُ على نطاق واسع أن النظريات النفسية المتعلقة بالمرض تُرجعُ المسؤولية النهائية للإصابة بالمرض والشفاء منه للمريض عاثر الحظ الذي أصيب به. وتقاليد علاج السرطان ليس كمجرد مرضٍ ولكن كعدوٍ شيطاني تجعل السرطان ليس مرضاً قاتلاً فقط ولكنه مرض مخز ويجلب العار.

لقد أثار مرض الجذام خلال أيام مجده شعوراً بالرعب، بشكلٍ يشبه ما يثيره السرطان. وكان المجذوم في العصور الوسطى نصاً اجتماعياً واضح الفساد؛ كما كان مثالاً أورمزاً للتفسخ. فلا شيء أكثر عقاباً أو قصاصاً من أن تعطي المرض معنىً، خاصةً إذا كان معنىً أخلاقياً. إن أي مرضٍ مهم كان سببه ضبابياً (غير واضح)، وعلاجه غير مجدٍ، يميل لأن يكون مهماً جداً، حيث تُربَطُ الموضوعات الأشد رعباً (الفساد والانحلال والتفسخ والتلوث والشذوذ والضعف) بالمرض أولاً، ليصبح المرض نفسه استعارةً. ثم وباسم المرض (أعني استعماله مجازياً، كاستعارة) يُفرَضُ ذلك الرعب على أشياء أخرى ليصبح

المرض صفةً، يصبح شيئاً يُقال أنه مثل المرض، والمقصود هو أنه يصبح مقززاً أو بشعاً.

كانت الأمراض السارية صورةً شائعةً للفوضى الاجتماعية. ومن الوباء (الملقب بالطاعون الوبلي) أتت كلمة «وبائي»، بمعناها المجازي، وطبقاً لقاموس أوكسفورد، هو «ضار بالدين والأخلاق والسلم الاجتماعي – 1513. المشاعر المتعلقة بالشر وُجِّهَت للمرض. والمرض (الذي أُشبِعَ غنىً بالمعاني) وجّه إلى العالم.

كانت مثل هذه الأوهام المتسمة بالمبالغة الحمقاء في الماضي مرتبطةً بالأمراض السارية، الأمراض التي كانت تشكل جائحةً. وكانت الأمراض في القرنين الأخيرين، المستعملة غالباً مجازياً (أي كاستعارات)، والمتعلقة بالشر هي السيفيلس والسل والسرطان. كان ذلك قبل أن تبرز وتنتشر، أما بعد أن برزت وانتشرت، فقد أصبحت، وقبل كل شيء، أمراضاً متعلقةً بالشخص المريض نفسه.

أُعتقِدَ أن السيفلس، ليس مرضاً مرعباً فحسب، ولكنه مرض مقلل لقيمة المريض ومقامه الاجتماعي أيضاً، فهو مرض سوقي. استعمله المضادون للديمقراطية لإثارة المشاعر ضد تدنيس قدسية العصر الذي ساد فيه العدل والمساواة أو انتهاكه. وقد كتب «بودلير» في كتابه الذي لم يكمله عن بلجيكا، لدينا كلنا الروح [أو النزعة] الجمهورية في عروقنا، مثل السيفيلس في عظامنا – «لقد حُوّلنا إلى ديمقراطيين وأُصبنا بالأمراض التناسلية»، بمعنى أن مرض السيفليس أصبح تعبيراً مجازياً مثالياً في الجدل والمناظرات المضادة للسامية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. جادل «وايلهيلم رايخ» عام 1933 أن الخوف اللاعقلاني من السيفيلس كان واحداً من المصادر الرئيسة للآراء السياسية للاشتراكية القومية ومعاداة السامية. ومع أنه أدرك الرُهاب، أوالهلع

المرضي، الجنسي والسياسي الذي وُجّه إلى الضرب على وَترٍ واحد [الزَّن] المُرَوِّع في الحديث عن السيفيلس في «قصة كفاحي» لهتلر، لم يخطر بباله كم وُجه أو أُطلِقَ من استعارات في استعماله بإصرار للسرطان كاستعارة أو كتعبيرٍ مجازيٍ عن شرور الفترة الحديثة. وبالفعل يمكن أن يُوسّعَ السرطان كتعبيرٍ مجازي أكثر من السيفليس.

كان السيفيلس محدوداً كتعبيرٍ مجازي أو كاستعارة، لأن المرض نفسه لم يكن يُعد لغزاً أو أحجيةً؛ بل غدا مريعاً. هناك صفات وراثية فاسدة متعلقة بمخاطر الجنس في «الأشباح» لِـ «إبسن»، وفي «بوبو دي مونت بارناس» لِـ «تشارل لويس فيليب»، وفي «د. فاوستوس» لِـ «مان» -تلك الأعمال مفعمة بالرعب من السيفليس. ولكن هذا ليس لغزاً، فسبب السيفليس واضح ومفرد. كان السيفليس أكثر الأمراض شراسةً وإثارةً للاشمئزاز من بين كل الهبات، «المنقولة» أو «المحمولة» بوساطة مرسلٍ جاهلٍ أحياناً إلى المستلم غير المتوقع لهذه الإرسالية. بالمقارنة، عُد السل حزناً وألماً، لغزاً صعب الحل، أو مرضاً له أسباب عديدة. تماماً مثل اليوم. بينما يقر كل واحد أن السرطان هو أحجية لم تُحَلّ بعد، ومن المتفق عليه بشكلٍ عام أيضاً أن السرطان مرض متعدد الأسباب. هناك تشكيلة من العناصر- كالمواد المسببة له («المسرطنات») في البيئة والتركيبة الجسمية الموروثة بما فيها الجينات والانخفاض في المناعة الوقائية (بفعل أمراض سابقة أو صدمةٍ عاطفية)، والنزعات المميزة، فكل هذه الأشياء تُعد مسؤولةً عن الإصابة بهذا المرض. ويؤكد العديد من الباحثين أن السرطان ليس واحداً فقط، بل هو أكثر من مئة من الأمراض المختلفة سريرياً، وأنه يجب أن يُدرَسَ كل واحد منها بشكلٍ منفصل، ولهذا ستُطَوّر تشكيلة من الأدوية، دواء لكل واحدٍ من السرطانات المختلفة.

إن الشبه بين الأفكار المعاصرة عن أسباب السرطان العديدة مع الأفكار أو الآراء المتعلقة به، التي سادت مدةً طويلة وأُهملت الآن، وبين

الآراء والأفكار المتعلقة بالسل، يشير إلى احتمال أن يكون السرطان مرضاً واحداً في المطاف الأخير، ويمكن أن يتضح كما اتضح السل، أن له (للسرطان) سبباً رئيساً واحداً، ويمكن لجمه والسيطرة عليه ببرنامج واحد من العلاج. وبالفعل، كما لاحظ «ليويس توماس»، كل الأمراض التي استقرت أسبابها، والتي يمكن أن تُمنعَ وتُعالج، اتضح أن لها سبباً فيزيائياً واحداً، كجرثوم ذات الرئة الذي يسبب هذا المرض، وعصية السل التي تسبب السل، ونقص الفايتمين الذي يسبب داء الذرة. وليس من غير المحتمل أن شيئاً ما مشابهاً لهذا سوف يُفرَزُ أخيراً كسببٍ للسرطان. وفكرة أن المرض يمكن أن يعزى إلى تشكيلةٍ من الأسباب، هي بالضبط ما يميز أوصاف الأمراض التي لا تُعرَف أسبابها. والأمراض التي يُعتَقَد أن لها أسباباً عديدة (أي التي هي ألغاز) هي التي لها إمكانيات واسعة كاستعارات أو كتعبيراتٍ مجازية عن الذي يُعتَقَدُ اجتماعياً، أنه خطأ أخلاقي.

وقد استُعمِلَ السل والسرطان ليعبرا عن، ليس فقط (مثل السيفليس) الأوهام الفجة التي لم تُشَذّب بعد، عن التلوث، ولكن أيضاً عن المشاعر المعقدة المتعلقة بالقوة والضعف، وعن الطاقة. ولمدة تزيد على القرن ونصف القرن، زودنا السل باستعارة معادلة للتعبير عن القابلية للمرض والحساسية والحزن وانعدام القوة؛ بينما يُشَبَهُ بالسرطان كل ما كان يبدو بلا رحمة ولا يعرف الصفح ولا يمكن أن نهدئه وهو نهّاب وضارٍ. (وهكذا، لقد لاحظ «بودلير» في ‹ليكول بين› أن: ‹العاطفة المسعورة للفن هي الآفة الآكلة التي تلتهم الباقي...›) كان السل استعارةً متكافئة الضدين، عذاباً أوكارثةً، وشعاراً أو رمزاً للنقاء أو الطهر والتهذيب. ولم يُنظَر إلى السرطان إلا كضررٍ أو كمصيبة؛ كان البربري الداخلي.

بينما كان يُعتَقَدُ أن السفيليس مرض يجلبه الشخص على نفسه، وأنه لا إرادي بشكلٍ كامل، كان السل مرةً، والسرطان الذي كان يُعتَقَدُ أنه

مرض طاقة الجسم، مرضاً متعلقاً بالإرادة. الاهتمام بالطاقة وبالمشاعر، وبالمخاوف من الدمار، كل هذا عُلّقَ ورُبِط بهذين المرضين. اعتُقِدَ أن السل يدل على حيويةٍ معتلة، أو حيويةٍ أسيئ استخدامها. كان هناك نقص شديد في القوة الحيوية... وضعف كبير في بنية الجسم، هكذا وصف «ديكنز» بول الصغير في رواية ‹دومبي أند سَن›. الفكرة الفيكتورية عن السل كمرض يتميز صاحبه بالطاقة المنخفضة (والحساسية المفرطة) لها تتمتها الدقيقة موجودة في فكرة «رايخ» عن السرطان كمرضٍ غير متوقَّع للطاقة و(للمشاعر التي تعاني من الخدر). في فترةٍ لم يكن يوجد فيها أية موانع لأن يكون الشخص منتجاً، كان الناس قلقين من عدم وجود طاقة كافية لديهم للعمل. في عصرنا نحن، عصر زيادة الإنتاج المدمرة والعوائق البيروقراطية أمام الفرد، هناك خوف من عدم امتلاك أية طاقة، وهناك قلق من أن الطاقة ليس مسموحاً لها في التعبير عن نفسها.

كانت الأوهام عن السل التي برزت في القرن الماضي (واستمرت حتى قرننا الحالي) مثل نظرية «فرويد» عن اقتصاد الندرة المتعلق بـ ‹الغرائز› لها صداها في وجهات نظر في أوائل فترة التراكم الرأسمالي، فللشخص مقدار محدود من الطاقة، التي يجب أن تُصرَفَ كما يجب (بلوغ الرعشة الجنسية في اللغة الإنكليزية العامية في القرن التاسع عشر، لم تكن ‹آتية› بل مصروفة أو ‹مبذولة›). الطاقة مثل، الأموال المدخرة، يمكن أن تصرف، أو تَنفَذَ، أو تُستَعمل، من خلال الصرف المتهور. يبدأ الجسم في ‹استهلاك› نفسه، والمريض سوف ‹يتلاشى› (يتبدد ويختفي بالموت).

تستدعي اللغة المستعملة في وصف السرطان مصيبةً اقتصاديةً مختلفة: هي مصيبة النمو غير المنضبط وغير العادي والمتفكك والمتنافر. الورم له طاقة، وليس المريض؛ وهذا الورم خارج عن السيطرة. الخلايا السرطانية، طبقاً لوصف الكتاب المنهجي، هي خلايا نفضت عن نفسها الخلايا التي ‹تكبح جماح› آلية النمو. إن نمو الخلايا العادية ‹يحدد نفسه

ذاتياً، ويرجع هذا إلى الآلية المسماة (منع الاتصال). أما الخلايا التي لا تقوم بالمنع، الخلايا المُسرطَنة، فستستمر في النمو والامتداد بعضها فوق بعض بشكلٍ (فوضوي)، مدمرةً خلايا الجسم العادية وبنيتها الهندسية ووظائفها.

تزعم الرأسمالية الأولى في عصورها السابقة ضرورة ضبط المصروفات والادخار والمحاسبة والانضباط - اقتصاد يعتمد على التحديد العقلاني للرغبات. يُوصَفُ السل في صور تلخص السلوك السلبي للإنسان الاقتصادي، إنسان القرن العشرين: الاستهلاك والتبذير وتبديد الحيوية. تتطلب الرأسمالية المتقدمة التوسع والتأمل وخلق حاجات جديدة (مشكلة الرضا وعدم الرضا) والشراء على بطاقة الائتمان والقدرة على الحركة، والتي تتطلب اقتصاداً يعتمد على إشباع الرغبات غير العقلاني. يُوصَفُ السرطان في صورٍ تلخص السلوك السلبي للإنسان الاقتصادي، إنسان القرن العشرين: النمو غير العادي قمع وإخضاع الطاقة، أعني رفض الاستهلاك والمصروفات الزائدة عن الحاجة.

كان السل كالجنون يُفهَمُ على أنه نوع من أنواع الشخصية وحيدة الجانب، بدلاً من الشخصية متعددة الجوانب: هو فشل للإرادة أو قوة مفرطة. ومهما كان هذا المرض مرعباً، كان دائماً مرضاً مثيراً للشفقة، مثل المريض العقلي هذه الأيام. كان يُعد مريض السل أساساً شخصاً معرضاً للمرض ومفعماً بنوازع تدميرٍ ذاتية. وقد نذر أطباء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنفسهم لملاطفة مرضاهم المسلولين إلى أن يعودوا إلى صحتهم العادية قبل المرض. وكانت وصفتهم الطبية الوصفة نفسها للمرضى العقليين اليوم: البيئة البهيجة والعزل عن التوتر والأسرة والغذاء الصحي والتمارين الرياضية والراحة.

إن فهم السرطان يدعم أفكاراً مختلفةً وقاسيةً وموجعةً عن العلاج.

وغالباً ما سمعت نكتة من أطباء في مستشفى سرطان ومن مرضى: «العلاج أسوأ من المرض». لا شك أبداً في فكرة ملاطفة المريض. إن العلاج الوحيد، على اعتبار أن جسم المريض يتَعَرَّضُ للهجوم لل («غزو»)، هو الهجوم المعاكس.

إن الاستعارات المسيطرة في وصف السرطان هي في الحقيقة مأخوذة ليست من الاقتصاد ولكن من لغة الحرب: كل طبيب وكل مريضٍ مصغٍ وصاحٍ هو متعود ـ إن لم يكن متمرساً ـ على هذه الصياغة العسكرية. وهكذا فإن الخلايا السرطانية لا تتكاثر ببساطةٍ؛ إنها «غازية». (إن الأورام الخبيثة تهاجم حتى عندما تنمو ببطء شديد، كما يعبر كتاب مدرسي عن ذلك).

(تَستَعمِرُ) الخلايا السرطانية مواقع من الجسم بدءاً من الورم الأصلي حتى تصل إلى مواقع بعيدة في الجسم. حيث تقيم «قواعد أمامية انبثائية» صغيرةً جداً أولاً، يُزعَمُ أنها موجودة ولكن لا تمكن رؤيتها. ومن النادر أن تكون «دفاعات» الجسم قوية بما فيه الكفاية لتدمر الورم الذي وطَّد مصدر دمه، ويتألف من بلايين من الخلايا المُدَمِّرة. ومهما كان التدخل الجراحي «راديكالياً» ومهما أجريت فحوصات دقيقة للمنظر العام للجسم، فإن الصفح مؤقت؛ والمرجح هو أن «غزو الورم» سيستمر، أو أن الخلايا المحتالة سوف تتجمع ثانيةً أخيراً وتباشر هجوماً جديداً على الجسم. وللعلاج أيضاً نكهة عسكرية، فالعلاج بالأشعة يستعمل أيضاً استعارات الحرب الخيالية والحرب المتعلقة بالطيران؛ (يُقصَفُ) المرضى بإشعاعاتٍ سامة. والعلاج الكيميائي هو حرب كيميائية تستعمل السموم[1]. يهدف العلاج إلى «قتل» الخلايا المسرطَنة (دون قتل

1- العَقّارات من نموذج الخردل النايتروجيني (المسماة بالعناصر القلوية) - مثل السايكلوفوسفاميد فَجّرَت سفينة محملة بغاز الخردل النايتروجيني في ميناء نابولي، ومات العديد من البحارة بسبب معدلاتهم المنخفضة (سايتوكسان) التي كانت الجيل الأول من أدوية السرطان. وقد اقتُرِحَ استعمال هذا الدواء للعلاج من سرطان

المريض، كما يؤمل.) والتأثيرات الجانبية غير المسرة يُعلَنُ عنها، وهي بالفعل معلن عنها بشكلٍ واسع. (ألم العلاج الكيميائي هو (عبارة مثلى) من المستحيل تجنب تعطيل أو تدمير الخلايا الصحية (بالفعل، بعض الطرق المستعملة لعلاج السرطان يمكن أن تسبب السرطان)، لكن يُعتَقَدُ أن أي ضرر للجسم يُبَرَّرُ إذا أنقذ حياة المريض. طبعاً، غالباً هو لا يعمل (مثل القول: (علينا أن ندمر «بن سَك» كي ننقذه)). يوجد كل شيء ماعدا عدد الأجسام.

دخلت الاستعارة العسكرية في الطب حيز الاستعمال أول مرةٍ عام 1880 مع تعريف الباكتيريا كعوامل مساعدة للمرض. قيل إن الباكتيريا (تغزو) أو (تتسلل). لكن الكلام عن الحصار والحرب لوصف المرض، له الآن، مع السرطان، وصف مدهش وله مرجعية. ولا يوصَفُ فقط المسار السريري للمرض وعلاجه الطبي، ولكن ينظر إلى المرض نفسه كعدوٍ يشن المجتمع حرباً عليه. وفي الوقت الحاضر، بدت الحرب على السرطان حرباً كولونيالية – وقد خصصت الحكومات مبالغ باهظةً لمكافحة السرطان. وخلال عقدٍ من السنين عندما لم تكن الحروب الكولونيالية على مايرام، اتضح أن هذه البلاغة العسكرية تعطي نتائج عكسية، فالتشاؤم بين الأطباء فيما يتعلق بفعالية العلاج يتعاظم، على الرغم من التقدم الكبير في العلاج الكيميائي والعلاج المناعي المستمر منذ 1970، والمراسلون الصحفيون الذين يغطون (الحرب على السرطان) يحذرون الجمهور بين الوقت والآخر ليميزوا بين الكلام الرسمي عن

الدم، من قبل تجربةٍ شابها الإهمال في التعاطي مع الحرب الكيميائية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما مات من الخلايا البيضاء (أي من تسمم نخاع العظم) أكثر ممن مات بسبب الحروق أو شرب ماء البحر.

يبدو أن العلاج الكيميائي والتسلح متلازمان. كان أول نجاح لسلاح كيميائي معاصر مع السيفليس عام 1910، حيث قدَّمَ «بول إهلريكك» مشتقاً منّ الزرنيخ، (آرسفينامين) (سالفارسان)، الذي كان يُسَمَّى (الرصاصة السحرية).

هذا المرض والحقائق المزعجة. وقد وجد كاتب علوم أمريكي قبل بضع سنوات أن تصريحات جمعية السرطان الأمريكية عن أن السرطان يمكن علاجه، وأن هناك تقدماً في علاجه تصريحات متفائلة، وقد ذكّرَ (بتفاؤل الفيتناميين قبل الطوفان).

غير أنه يوجد هناك أمران: أن تشك في مصداقية الآراء والأوصاف المتعلقة بالسرطان شيء، وأن تدعم العديد من الأطباء قليلي المعرفة الذين يصرون أنه لم يحدث أي تقدم في علاج السرطان، وأنه مرض لا يُعالَج أي لا شفاء منه، أمر آخر مختلف تماماً. إن الملاحظات المبتذلة عن السرطان من قبل الأمريكيين، التي ترحب دون كلل بالانتصار القريب على السرطان؛ والتشاؤم المهني الذي يبديه عدد كبير من المختصين بالسرطان، الذين يتكلمون مثل ضباط غارقين في وحل حربٍ كولونيالية لا نهاية لها، هما تحريفان صنوان، أو رأيان تحريفيّان في هذه البلاغة العسكرية عن السرطان.

وهناك تشويهات أخرى تتبع توسيع صور السرطان في مخططاتٍ حربية متسمةٍ بالمبالغة الحمقاء. وكما مُثِّلَ السل على أنه عبارة عن تحويل الوعي أو الإدراك إلى شيءٍ روحاني، يُفهَمُ السرطان على أنه طغيان أو إلغاء للوعي (من قبل الضمير غيرالعاقل الذي لا عقل له). في السل، أنت تأكل نفسك المصَفّاة واصلاً إلى القلب، إلى (الأنت) الحقيقية. في السرطان، الخلايا غير الذكية (البدائية، والجنينية)، (والعائدة إلى صفات الأسلاف) تتكاثر، وأنت تُزاحُ ويحلُ محلك (ال ليس أنت). ويُصَنِّفُ أطباء المناعة خلايا الجسم المناعية كَ (لا نفس)، أو (لا ذات).

والجدير بالذكر أن «رايخ»، الذي عمل أكثر من أي واحدٍ آخر، على انتشار النظرية النفسية عن السرطان، وجد أيضاً شيئاً معادلاً للسرطان في طبقة البيوسفير.

يوجد أيضاً طاقة الأورغون القاتلة. إنها موجودة في الغلاف الجوي. تستطيع أن تعرضها على أدواتٍ مثل عدّاد «جيجر». وهذه الطاقة هي صفة مُستَنقَعية... مياه آسنة وقاتلة، لا تفيض ولا تستقلب (مثل العمليات التي تحصل في الجسم لتحويل الغذاء إلى طاقة). والسرطان، أيضاً يرجع إلى سكون جريان الطاقة الحياتية للعضوية التي هي جسمنا.

إن للغة «رايخ» تناسقاً وترابطاً لا يمكن تقليدهما. وكلما اكتسبت استعمالاتها المجازية مكاسب جديدة من حيث مصداقيتها أكثر فأكثر، تبين أن السرطان هو ما تكلم عنه هو والأوصاف التي وصفه بها، كان ولا زال مرضاً كونياً، هو شعار كل القوى أو القدرات التدميرية وغير المألوفة التي يستضيفها الجسم.

وكما كان السل مرض النفس المريضة، فإن السرطان هو مرض الآخر. يتابع السرطان مسيره بسيناريو القصص العلمية: غزو تقوم به الخلايا «الأجنبية» أو «المتَغيرة» أو غير المستقرة، والأقوى من الخلايا العادية. (غزو يقوم به مختطف الجسم، الشخص المنكمش أو الضعيف، البلوب، الشيء). الحبكة المثالية في قصص الخيال العلمي هي التغير. يصل المتغيرون من الفضاء الخارجي أو من التغيرات العرضية بين البشر. يمكن أن يوصف السرطان أنه تغيير منتصر، والتغيير هو الآن بشكلٍ رئيس صورة للسرطان. وكنظريةٍ للخلق النفسي للسرطان، فإن صور الطاقة التي يصورها «رايخ» تُفحَصُ، ولا يُسمَحُ لها بالتحرك نحو الخارج، ثم تُرجَعُ نحو الوراء إلى نفسها، طاردةً الخلايا بشكلٍ مسعور. إن هذه الصور هي مادة الخيال العلمي، وصورة «رايخ» للموت في الهواء -صورة الطاقة القاتلة التي تُسَجّل على عدّاد «جايجر»- تشير إلى أي مدى تستدعي صور الخيال العلمي عن السرطان أو تحاكي (المرض الذي يأتي من إشعاعاتٍ قاتلة، والذي يُعَالَجُ بإشعاعاتٍ قاتلة) الكابوس الجمعي. إن الخوف الأصلي من التعرض للإشعاعات الذرية أصبح تشوهاتٍ جينية في الجيل

التالي؛ وذاك استُبدِلَ بخوفٍ آخر، كما بدأت الإحصاءات بإظهار معدلات أعلى بكثير للإصابة بالسرطان بين الذين ظلوا على قيد الحياة من سكان هيروشيما وناغازاكي وذريا تهم.

السرطان هو صورة مجازية أو استعارة للشيء الذي يتمتع بأقوى وأشرس طاقة؛ وهذه الطاقات تشكل الشتيمة القصوى للنظام الطبيعي أي لنظام الطبيعة. في قصة خيال علمي لِـ «توماسو لاندولفي»، تُسَمَّى السفينة الفضائية (ملكة السرطان). من الصعب أن نتصور أن في مجال الصور البلاغية والاستعارات المجازية المتعلقة بالسل يمكن لكاتبٍ ما أن يتخيل إمكانية تسمية سفينةٍ جسورة بِـ (سفينة الهزال). وعندما لا يُفَسَّرُ السرطان على أنه شيء نفسي، مدفون في خبايا النفس، فإنه يُضَخَّمُ ويُطلَقُ في استعارةٍ مجازية أو بلاغية على أنه أكبر عدو، وأبعد إصابة. وهكذا، كان عرض «نيكسون» للتكافؤ مع «كينيدي» وضع الأمريكيين على القمر، هو (الانتصار) على السرطان. كان كلا الوعدين مغامرتين من مغامرات الخيال العلمي. وكان معادل التشريع الذي أسس برنامج الفضاء هو قانون السرطان القومي لعام 1971، الذي لم يستشرف أو يتوقع القرارات التي استطاعت أن تسيطر على الاقتصاد الصناعي الملوّث للبيئة، بل على غاية القانون العظيمة: التي هي الدواء أو العلاج.

كان السل مرضاً يخدم الرأي الرومانتيكي عن العالم. بينما السرطان الآن هو في خدمة رأي تبسيطي عن العالم، ويمكن أن يتحول إلى مرض جنون الاضطهاد أو جنون الارتياب الذي هو نزعة الشك والارتياب من الآخرين عند الفرد أو الجماعة. وغالباً ما يقول مريض السرطان صاحب الخبرة إنه شكل من أشكال التملك الشيطاني -الأورام هي(خبيثة) أو (حميدة) مثل القوى- ويميل العديد من مرضى السرطان المرعوبين للبحث عن الذين يداوون المعتقدات، وهم أصحاب التعاويذ والرقى، لكي يطردوا الأرواح الشريرة بها ولكي يتطهروا من الآثام والخطايا.

إن الدعم الرئيس المنظم للعقارات الخطيرة مثل ال (ليتريل) يأتي من جماعاتٍ في أقصى اليمين، الذين يضيف تصورهم الوهمي للعلاج المعجزة للسرطان إضافةً نافعةً إلى سياساتهم المتركزة على الشك والارتياب في الآخرين (سياسة البارانويا). ويشير السرطان بالنسبة للمثقفين، إلى عصيان أو ثورة البيئة الطبيعية: يشير إلى انتقام الطبيعة من العالم التكنوقراطي الشرير.

تُثارُ آمال كاذبة ومخاوف مبسَّطة من قبل إحصاءات فجّة ملَوّحةٍ بالتهديد للجمهور العام، مثل: 90%من كل أمراض السرطان (تسببها البيئة) أو أن النظام الغذائي وتدخين التبغ يسببان 75% من كل وفيات السرطان. مع الأخذ بعين الاعتبار لعبة الأرقام هذه، من الصعب أن نرى كيف يمكن الدفاع عن أية إحصاءات عن (كل السرطانات) أو كل وفيات (السرطان). وكيف يمكن الدفاع أيضاً عن: السجائر وأصبغة الشعر ولحم الخنزير المدَخَّن وحبوب السكارين والدواجن التي تُطعَمُ الهرمونات والمبيدات الحشرية والفحم الحجري ذي نسبة الكبريت المنخفضة - قائمة طويلة من المنتجات التي من المسلم به أنها تسبب السرطان.

تقدم أشعة إكس للسرطان (العلاج المطلوب منه مداواة القتلى)؛ كذلك تفعل الانبعاثات الإشعاعية من أجهزة التلفاز وفرن المايكروويف ووجه الساعة اللامعة. وكما هو الأمر في السيفيلس، فإن أي تصرف بريء أو سخيف -أو تعرض- في الحاضر يمكن أن تكون له نتائج رهيبة ومنذرة بكارثةٍ قادمة في المستقبل.

من المعروف أيضاً أن معدلات السرطان عالية عند العاملين في عدد كبير من المهن الصناعية. مع العلم أن المسارات الدقيقة لأسباب الإحصاءات المتعلقة بالسرطان لا تزال غير معروفة، يبدو أن العديد من أشكال السرطان يمكن منعها. ولكنه ليس فقط كمرض استُقدِم من قبل

الثورة الصناعية (كان السرطان في (آركيديا) وبالتأكيد أكثر من خطيئة الرأسمالية في حدود إمكاناتهم الصناعية، يُلَوِّثُ الروس البيئة بشكلٍ أسوأ مما نفعل). إن الرأي الدارج وواسع الانتشار عن السرطان كمرضٍ من أمراض الحضارة الصناعية هو غير متماسك علمياً بمقدار عدم تماسكه كوهمٍ يميني (العالم خالٍ من السرطان) (مثل عالمٍ خالٍ من المُدمِّرات).

إن تجربة القرون الوسطى عن الداء قد رُبِطَت بإحكام مع أفكار التلوث الأخلاقي، وبحث الناس عن فداءٍ خارج المجتمع المصاب. (مذابح اليهود بأعدادٍ غير مسبوقة حدث في كل مكان في أوروبا المصابة بالطاعون بين عامي 1347–1348، ثم توقفت هذه المذابح حالما انحسر الوباء). وبالنسبة للأمراض المعاصرة، الفدية أو الفداء ليس منفصلاً بسهولة عن المريض. وعندما تكتسب هذه الأمراض الطابع الفردي، فهي أيضاً تنتقي بعض هذه الاستعارات المجازية المستعملة مع الأمراض الوبائية. (الأمـراض التي فُهِمَ أنها، وبائية، أصبحت أقل استعمالاً كاستعارات مجازية، كما أُثبِتَ من خلال فقدان الذاكرة التاريخية شبه الكامل عن وباء الإنفلونزا بين عامي 1918–1919، حيث مات عدد أكبر من الناس من عدد الذين ماتوا خلال أربع سنوات استمرت فيها الحرب العالمية الأولى). في هذه الأيام، إنه كليشة أن تقول إن (البيئة تسبب السرطان) كما كان –ولازال– أن تقول أن العواطف التي تُدارُ بشكلٍ خاطئ هي التي تسببه.

وكان السل على صلةٍ بالتلوث (اعتَقَدت فلورانس نايتنغيل أن الهواء القذر في المنازل هو الذي يحثّه أو يحدثه [أي يسببه])، والسرطان الآن يُعتَقَدُ أنه مرض التلوث في العالم كله. كان السل (الوباء الأبيض) مع الوعي بالتلوث البيئي، وقد بدأ الناس بالقول إنه يوجد (وباء) أو (طاعون) هو السرطان.

الجزء التاسع

استُعمِلت الأمراض دائماً كاستعارات لإعطاء حيوية للتهم القائلة إن المجتمع فاسد أوغير عادل. إن استعارات المرض التقليدية هي أساساً طريقة للشدة أو العنف؛ وبالمقارنة مع الاستعارات المعاصرة، فهي لا حصر لها نسبياً. وقد أدخل «شكسبير» تغييراتٍ عديدة على شكلٍ مثاليٍ للاستعارة، وهي إصابة أو مرض في الهيكل السياسي، [الجسم]، دون تمييز بين عدوى بالملامسة أو إصابة أو التهاب أو خُرَّاج أوقرحة وبين ما نسميه ورماً. ومن أجل أغراض القدح والذم، نقول إن للأمراض نموذجين: مؤلمة لكنها ممكنة العلاج، وقاتلة. بعض الأمراض تظهر كأمثلةٍ للأمراض بشكلٍ عام؛ لا يوجد مرض له منطق مميِّز له. تُستَعمَلُ الصور البلاغية للتعبير عن الاهتمام بالنظام الاجتماعي، والصحة هي الشيء الذي يُفتَرَض أن كل شخص يعرف ما هو. وإن مثل هذه الاستعارات لا تُبرِزُ الفكرة المعاصرة لوجود مرض رئيس محدد هو موضوع النقاش الدائر في المجتمع.

تُعد الأمراض الأكثر أهمية مثل السل والسرطان هي أكثر الأمراض التي تدور حولها النقاشات خاصةً. تُستَعملُ هذه الأمراض لاقتراح معايير مثلى للصحة الفردية، وللتعبير عن شعورٍ بعدم الرضا عن المجتمع. على العكس من الاستعارات في العصر الإليزابيثي، التي تتذمر من انحرافٍ عام للكارثة العامة، التي هي بالنتيجة، مزعزعة للأفراد وموقعة

الاضطراب في أنفسهم – الاستعارات الحديثة تقترح عدم توازنٍ عميق بين الفرد والمجتمع الذي يُعد عدواً للفرد.

وتُستَعمَلُ استعارات المرض للحكم على المجتمع، ليس بأنه فاقد للتوازن، بل بأنه مجتمع قهر واضطهاد. وتبرز هذه الاستعارات بانتظام في البلاغة الرومانتيكية التي تضع القلب في تصادمٍ مع الرأس، والتلقائيةً مع العقل، والطبيعة مع التصنع، والريف مع المدينة.

عندما اختُرِعَ السفر إلى مناخٍ أفضل كعلاجٍ للسل في أوائل القرن التاسع عشر، اقتُرِحت أكثر الأمكنة أو البيئات تناقضاً. اقتُرِحَ الجنوب والجبال والصحارى والجزر التي يشير تنوعها إلى الشيء المشترك بينها: والذي هو رفض المدينة. في رواية (لا ترافياتا)، حالما يكسب «ألفريدو» حب «فايوليتا»، ينقلها من باريس الشريرة وغير الصحية إلى الريف الصحي: وتتبعهما الصحة الجيدة. وإن استسلام «فايوليتا» للسعادة هو معادل لمغادرتهما للريف وعودتهما إلى المدينة، حيث كان مصيرها المشؤوم مقدّرَاً، يعود السل إليها وتموت.

تُوسِّعُ استعارة السرطان مغزى رفض المدينة. إذ بعد أن فُهِمَ بدقة أن البيئة التي تحتوي عناصر مُسَرطِنة هي التي تسبب السرطان، كانت المدينة نفسها تُعد سرطاناً، بل تُعد مكاناًغريباً للنمو غير الطبيعي. قارن «فرانك لويد رايت» في روايته (ذا ليفينك سيتي) (1958) مدينة الأزمنة القديمة، مدينة العضوية الصحية [سكانها أصحاء الأجسام] ((لم تكن المدينة عندئذٍ خبيثة))، مع المدينة الحديثة. (عند النظر إلى مقطعٍ عرضي لمخطط مدينة كبيرة فإنك تنظر إلى ورمٍ ليفيٍ قوي)[1].

1- جذب انتباهي عالم الاجتماع «هربرت غانز» إلى أهمية السل والتهديد المزعوم أوالحقيقي، والذي أحدثه على حركات إزالة المواخير، وما كان يسمى المساكن المثالية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث كان الشعور أن المساكن المتواضعة جداً والمواخير التي كان يسكنها الفقراء قد سببت السل.

أصبحت استعارات المرض خلال القرن التاسع عشر خبيثةً وقاسية ومنافيةً للعقل والطبيعة وفوضوية. وكان يوجد ميل متزايد لتسمية أي موقفٍ أووضعٍ مُستَهجَنٍ أومستنكر مرضاً. المرض، الذي يُعد جزءاً من الطبيعة مثل الصحة، أصبح مرادفاً لكل شيءٍ (ليس طبيعياً). كتب «هوغو» في (البؤساء):

الرهبنة، كالتي كانت موجودةً في إسبانيا والموجودة في التيبيت، هي نوع من السل بالنسبة للحضارة. **إنها** تنهي الحياة. وببساطةٍ شديدة، إنها تُفرِغُ البلاد من السكان. إنها حجز وخصي. لقد كانت كارثةً وبلاءً في أوروبا.

و لقد استنكر «غرامشي» عام 1916 في كتابه (الاشتراكية والثقافة):

إن الاعتقاد عادة بأن الثقافة هي معرفة موسوعية... هذا الشكل من الثقافة يفيد في خلق المثقفين الباهتين وقليلي التأثير على المجتمع... الشيء الذي أنتج بدوره حشداً كاملاً من المدعين وحالمي اليقظة الذين هم أكثر ضرراً على الحياة الاجتماعية الصحية من السل أو من مايكروبات السيفيلس على جمال الجسم والصحة.

ودفع «ماندیلستام» الإتاوة التالية إلى «باسترناك»:

عندما تقرأ شعر «باسترناك»، فكأنك تنظف حنجرتك، وتقوي تنفسك، وتملأ رئتيك بالهواء؛ مثل هذا الشعر يجب أن يكون صحياً،

بدأ الانتقال من السل إلى السرطان في لغة التخطيط وبناء المساكن البلاغية في خمسينيات القرن العشرين. وتم النظر إلى (الآفة)، وهي مرادف حقيقي لِـ (ماخور) كسرطانٍ ينتشر بمكرٍ وغدرٍ. وإن استعمال كلمة (غزو) لوصف انتقال الملونين غير البيض إلى أحياء الطبقة الوسطى عُد استعارةً أُخذَت من السرطان كما أخِذَت من العسكريين: يتقاطع الوصفان.

يجب أن يكون علاجاً للسل. لا يوجد شعر صحي أكثر من هذا في الوقت الحاضر. إنه مثل شرب ال(كوميس) بعد الحليب الأمريكي المعلب.

وقال «مارينيتي» مستنكراً الشيوعية عام 1920:

الشيوعية هي سخط وغضب السرطان البيروقراطي الذي دمر الإنسانية دائماً. إنه سرطان ألماني، هو منتج من منتجات الفكر الألماني التمهيدي المُمَيّز. كل تحضيرٍ أو تمهيدٍ تعليميٍ مُتَحَذلِق هو مضادٌ للإنسانية.

وبسبب عدم المساواة هذا نفسه، يهاجم الكاتب الإيطالي المناصر للفاشية الشيوعية. ويهاجم المؤسس المقبل للحزب الشيوعي الإيطالي فكرةً بورجوازيةً معينة حول الثقافة (مؤذيةً بشكلٍ حقيقي، خاصةً للبروليتاريا)، يقول غرامشي، نظراً إلى أنها فكرةً مُتَكَلّفة وتعليمية وقاسية ولا حياة فيها. وقد استُحضِرَ السل والسرطان بانتظام لإدانة الممارسات والمثل الاضطهادية، حيث إن القهر هو المناخ الذي يجرد الشخص من القوة (السل) أو من المرونة والعفوية أو التلقائية (السرطان). إن استعارات المرض الحديثة تحدد النموذج المثالي لخير المجتمع ورفاهيته.

النظام هو أقدم اهتمام للفلسفة السياسية، وإذا كان من المقبول أوالمعقول أن نقارن المدينة بعضويةٍ ما، فمن المعقول أن نقارن الفوضى المدنية بالمرض. الصياغة الكلاسيكية التي تجد تماثلاً بين الفوضى السياسية والمرض -لنقل، من «أفلاطون» إلى «هوبز»- تفترض مسبقاً وتستلزم الفكرة الكلاسيكية الطبية والسياسية عن التوازن. المرض يأتي من عدم وجود التوازن. والعلاج يستهدف استعادة التوازن الصحيح. وبتعبيرٍ سياسي، يستهدف الهرمية الصحيحة. التكهن بما قد يحدث هو دائماً، من حيث المبدأ، تكهن متفائل. المجتمع، بالتعريف، لا يُصاب بمرضٍ قاتل.

عندما تُستَعمَلُ صورة بلاغية للمرض من قبل «ماكيافيللي»، الزعم هو أن المرض يمكن أن يُعالَج. كتب «ماكيافيللي»:

في البداية من السهل علاج المرض، ومن الصعب أن نفهمه؛ ولكن عندما لم يكتشف بعد في الوقت المناسب، ولم يعالج طبقاً لمبدأ صحيح، يصبح سهل الفهم وصعب العلاج. يحدث الشيء نفسه في أمور الدولة، باستشرافها عن بعد، الذي يجرى من قبل أشخاصٍ موهوبين، فإن الشرور ممكنة الظهور من هذه الأمور أو القضايا تُداوى بسرعة. ولكن عندما تتكاثر هذه الشرور حتى تصبح مرئيةً من قبل كل واحد، بسبب عدم وجود البصيرة الواعية، ففي هذه الحالة، لا يوجد أي علاج.

يستحضر «ماكيافيللي» السل كمرض يمكن أن يُوقَفَ، إذا اكتشف في مرحلةٍ مبكرة عندما تظهر أعراضه بالكاد. ومع وجود البصيرة النافذة، فإن مساره ليس متعذر الإيقاف أو الإلغاء.

ويحدث الشيء ذاته في اضطراب أمور الدولة. يستعمل «ماكيافيللي» استعارة مرضية هي ليست عن المجتمع بقدر ما هي عن فن الحكم (المعتقد أنه فن دوائي أوعلاجي): كما نحتاج إلى الفطنة والحنكة للسيطرة على الأمراض الخطيرة، نحتاج إلى البصيرة الثاقبة للسيطرة على الأزمات الاجتماعية. إنها استعارة متعلقة بالبصيرة، وهي أيضاً دعوة للبصيرة.

إن التشابه بين المرض والفوضى الاجتماعية في التقاليد العظيمة للفلسفة السياسية، يُقتَرَحُ تفعيله لتشجيع الحكام على اتباع سياسة أكثر عقلانية. «على الرغم من أن لاشيء يفعله الإنسان يمكن أن يكون خالداً»، يقول «هوبز»:

إلا أنه، إذا استعمل الناس عقولهم التي يدّعون وجودها عندهم، فإن صالحهم العام يمكن أن يكون آمناً، على الأقل، من الموت بفعل الأمراض

الداخلية... لذلك عندما يتفكك عقدهم، ليس بفعل العنف الخارجي، بل بسبب الفوضى الداخلية، فالخطأ ليس في الناس، على اعتبار أنهم المادة؛ ولكن على اعتبار أنهم الصانعون والآمرون من أجل تحقيق الصالح العام. إن رأي «هوبز» هذا هو كل شيء ماعدا قدري. المسؤولية تقع على الحكام ولديهم القدرة (من خلال العقل) للسيطرة على الفوضى.

بالنسبة لِـ«هوبز»، جريمة القتل («العنف الخارجي») هي الطريقة الوحيدة للمجتمع أوللمؤسسة الاجتماعية للموت. الهلاك بسبب الفوضى الداخلية -مشَبّه بالمرض- هو الانتحار، هو شيء يمكن منع حدوثه؛ هو حدث إرادي (أي خاضع للعقل).

لقد استُعمِلَت استعارة المرض في الفلسفة السياسية لتقوية الدعوة للاستجابة العقلانية. وقد ركّز «ماكيافيللي» و«هوبز» على ناحيةٍ واحدة من الحكمة الطبية، هي أهمية علاج أو إيقاف المرض الخطير في وقتٍ مبكر، في الوقت الذي يكون من السهل علاجه. وأمكن استخدام استعارة المرض، لتشجيع الحكام على امتلاك نوعٍ آخر من البصيرة (المعرفة المسبقة). كتب «لورد شافتسبوري» عام 1708:

> توجد أبخرة أو أخلاط في الجنس البشري التي يجب أن يكون لها منفذ أو مصرف للتصريف أوالنفاذ. عقل الإنسان وجسده هما جزء من هذه الأخلاط وهما عرضة للاضطراب والفوضى... حيث إنه يوجد خمائر في الدم تقوم بإفراغٍ غير طبيعي... إذا حاول الأطباء تخفيف هذه الخمائر وضربها أثناء هياجها (نفاذ الأبخرة أو إفراغها بقوة)، ربما بدلاً من العلاج الذي يحاولونه، يكونون قد قاموا بعملٍ طيب في إحداث وباءٍ وتحويل نبع ماء زلال أو فيض ماءٍ خريفي إلى حمى وبائية خبيثة. إنهم بالتأكيد أطباء مرضى كالآخرين مثل

النظام السياسي والإداري الحاكم الذي يتلاعب رجاله بهذه الثورات الفكرية. وبذريعة معالجة حكة، أو تأثير المعتقدات الخرافية، وإنقاذ الأرواح من عدوى التأثير المؤذي للحماس، سيثيرون الطبيعة كلها في اضطرابٍ وهياج صاخب، ويحَوّلون بضعة دمامل بريئة إلى التهاب وغرغرينة قاتلة.

الفكرة التي يشرحها «شافتسبري» هي أن تحَمُّلَ مقدارٍ معين من غير العقلانية هو شيء عقلاني («إيمان بالخرافات»، «حماس»)، وأن اتخاذ إجراءات صارمة وقاهرة يُحتَمل أن يُفاقِمَ الفوضى أكثر مما يعالجها، محولاً إزعاجاً ما إلى كارثة. ويجب على رجال النظام السياسي والإداري الحاكم ألا يكونوا مبالغين في معالجة الشرور الاجتماعية والصحية؛ ويجب ألا يُبحَثَ عن إيجاد علاج لكل اضطراب وفوضى.

بالنسبة لِـ«ماكيافيللي»، البصيرة (المعرفة المسبقة)؛ وبالنسبة لِـ«هوبز»، العقل؛ أما بالنسبة لِـ«شافتسبري»، التسامح - هذه هي كل الأفكار المتعلقة بفن الحكم (كيفية إدارة الدولة)، متخيلة بالتماثل مع الشبه الطبي، التي تستطيع أن تمنع الاضطراب والفوضى القاتلة. يُعتَقَدُ أن المجتمع هو أساساً في صحة جيدة؛ المرض (الاضطراب) هو بشكلٍ مبدئي دائماً ممكن العلاج.

إن استعمال الصور المجازية في الخطاب السياسي في الفترة الحديثة يتضمن مزاعم أخرى أقل ليناً. والفكرة الحديثة عن الثورة، المبنية على تقدير الانعزالية المستمرة للوضع السياسي الموجود، بعثرت أو أربكت الاستعمال القديم والمتفائل للاستعارات المجازية المتعلقة بالمرض. لقد كتب «جون آدامز» في دفتر مذكراته، في كانون الأول عام 1772:

> المشهد أمامي... كئيب جداً. بلادي في خطرٍ ومحنة، ولديها أساس ضعيف من الأمل... ويبدو مجموع الناس

متعبين وضعفاء جرّاء الكفاح ضد الفساد والرشوة والذل والخنوع والبغاء التي تأكل وتنبطح كالسرطان.

لقد بدأت الأحداث السياسية بشكلٍ عام بأن تُعَرّفَ أنها غير مسبوقة وأصولية؛ وأخيراً أصبحت الاضطرابات المدنية والحروب تُفهَمُ على أنها ثورات. وكما كان متوقعاً، نالت الاستعارات المجازية المتعلقة بالمرض وورثت استجاباتها المعنى الحديث خاصةً من الثورة الفرنسية وليس الثورة الأمريكية. وقد قارن «إدموند بيرك» في كتابه ‹أفكار حول الثورة في فرنسا› (1790) الحروب الأقدمَ والاضطرابات المدنية مع الثورة الفرنسية، التي عُد أن لها ميزات جديدة. وفي السابق، مهما كانت الكارثة، كان أعضاء أو أفراد الدولة، مهما كانوا مبعثرين، موجودين. ولكنه، خاطب الفرنسيين: ‹إن ارتباككم الحالي، مثل شللٍ، هاجم منبع الحياة نفسه›.

مثلما نحت نظريات المدينة الكلاسيكية منحى نظريات الأبخرة أو الأخلاط الأربعة كذلك تُمّمَ المفهوم الجديد عن السياسة بمفهومٍ جديدٍ عن المرض. المرض يعادل أويساوي الموت. استحضر «بيرك» مرض الشلل (‹والقرحة الحية لذاكرةٍ متآكلة›). كان سيصبح التأكيد بعد وقتٍ قصير على الأمراض الكريهة والقاتلة. مثل هذه الأمراض سوف لا تُعالَجُ؛ إنها سوف تُهاجَمُ. وفي رواية «هوغو» عن الثورة الفرنسية ‹كاتر فان تريز› 1874: الثوري «غوفين»، محكوم عليه بالإعدام بالمقصلة، يبرأُ الثورة، بكل الدماء التي أراقتها، بما فيه تنفيذ الحكم بإعدامه بعد قليل.

> لأنها عاصفة. تعرف العاصفة دائماً ماذا تفعل... كانت الحضارة في قبضة المرض، تأتي هذه العاصفة للإنقاذ. ربما هي ليست انتقائية بما يكفي. هل تستطيع أن تتصرف بشكلٍ آخر؟ إنها مؤتمنة على عملٍ شاق أو مهمةٍ شاقة هي كنس

المرض! إنني أفهم ثورة غضب هذه العاصفة عند النظر إلى وجه هذا الوباء اللعين.

من الصعب أن تكون هذه آخر مرةٍ لتبرير العنف الثوري على أساس أن المجتمع يعاني من مرضٍ أصولي مرعب. الصور الدرامية للاستعارات المجازية في الخطاب السياسي الحديث تزعم وجود مفهومٍ عقابي: عن المرض ليس كعقوبة ولكن كإشارة شرٍ أو شيءٍ ما يجب عقابه.

لقد نزعت الحركات الشمولية الحديثة، سواء أكانت يمينيةً أو يسارية إلى استعمال الصور البلاغية للمرض. صرح النازيون أن الشخص الذي أصله سلالة عرقية مختلطة هو شخص مثل المصاب بالسيفليس. وقد سُويَّ اليهود الأوروبيون بالسيفيلس والسرطان ولذلك يجب أن يُستأصَلوا. وكانت الاستعارات المجازية للمرض رائجةً في النقاشات البلشفية ومجادلات البلاشفة، واستعملها «تروتسكي»، الأعظم موهبةً من كل المجادلين الشيوعيين، بأعظم غزارة، خاصةً بعد نفيه من الاتحاد السوفييتي عام 1929. لقد سُميت الستالينية بالكوليرا والسيفيلس والسرطان[1]. إن استعمال الأمراض القاتلة فقط من أجل الاستعارات

1- كتب «تروتسكي» إلى «فيليب راف» في 21 آذار عام 1938: «هناك إجراءات معينة ضرورية من أجل النضال ضد النظرية غير الصحيحة، وإجراءات أخرى من أجل محاربة وباء الكوليرا. ستالين هو أقرب إلى الكوليرا من قربه إلى نظريةٍ كاذبة. يجب أن يكون النضال شديداً وضارياً ومهلكاً ودون رحمة. ومقدار من ‹التعصب›... مرحّبٌ به». وتكلم «تروتسكي» عن «سيفيلس» الستالينة أو عن «السرطان الذي يجب أن يُحرَقَ من الحركة العمالية بالحديد الحامي».

ومن الجدير بالذكر أن غرفة «سولجينيتزن» للحجر الصحي في السجن لأنه مصاب بالسرطان لا تحتوي على أي شيء يدل على استخدامه استعارات مجازية للسرطان – ربما بسبب الستالينية أو أي سببٍ آخر. لم يسئ سولجينيتزن تمثيل روايته، أملاً أن تُنشَرَ في الاتحاد السوفييتي، أخبر لجنة اتحاد الكتاب عام 1967 أن العنوان لم يكن ‹نوعاً من الرموز›، كما اتُهِم، وأن ‹الموضوع هو السرطان، حرفياً وبشكلٍ محدد›.

المجازية في السياسة يعطي هذه الاستعارات طبيعةً حادةً أكثر. والآن فإن تشبيه الحدث السياسي أو الوضع السياسي بالمرض، معناه أن نلصق تهمةً ما بهذا الحدث، وأن نقوم بالعقاب.

هذا صحيح خاصةً بالنسبة لاستعمال السرطان كاستعارة مجازية. هذا يعني، أن الوضع ليس سيئاً إلى درجة أنه لا يمكن إنقاذه. في أول خطبةٍ سياسيةٍ لاذعةٍ له، كُتِبَت في أيلول عام 1919، اتهم اليهود إنهم أنتجوا «سلاً عرقياً بين الشعوب»[1]. واحتفظ السل بمقامه وهيبته واحترامه كمرضٍ مُقدرٍ وجدير باللوم في القرن التاسع عشر. (تذكر مقارنة «هوجو» الرهبنة بالسل) ولكن سرعان ما حَدّث النازيون خطابهم، وبالفعل كانت الاستعارات المجازية للسرطان ملائمةً أكثر لأغراضهم. وكما قيل في خطاباتٍ عن «المشكلة اليهودية»، خلال ثلاثينيات القرن العشرين: عندما تريد معالجة السرطان، يجب أن تستأصل الكثير من الأنسجة السليمة حوله. وتوصي الاستعارات المتعلقة بالسرطان بالنسبة للنازيين، بالعلاج (الجذري)، مقارنة مع العلاج «الطري»، الذي يُعتَقَدُ أنه مفيد للسل –الفرق بين المصحات (أي المنفى) والجراحة (أي الحرق أو المحرقة). (أصبح اليهود أيضاً يُعرّفون بِـ، وأصبحوا استعارات مجازية لِـ، حياة المدينة– في الخطاب النازي الذي استحضر كل الكليشات التي تصف المدن بأنها آيلة للانهيار، ومتطلبةٌ للانتباه، وملَوّثة أخلاقياً وبيئة غير صحية).

إن وصف ظاهرةٍ ما أنها سرطان هو تحريض على العنف. واستعمال

1- [إن قوة] «اليهودي» هي قوة المال الذي هو على شكل فائدةٍ تضاعف نفسها دون جهد وإلى مالا نهاية، وهي في يديه وتفرض على الأمم نير العبودية الأخطر من كل شيء آخر.... كل شيء يجعل الناس يناضلون من أجل الأمور العليا، سواء أكانت الدين أو الاشتراكية أو الديمقراطية، هو بالنسبة له وسيلة إلى غاية فقط، التي هي إشباع جشعه للمال والسيطرة. وتنتج نشاطاته سلاً عرقياً بين الشعوب والأمم...».

السرطان في الخطاب السياسي يشجع القدرية في التفكير ويبرر «الإجراءات الصارمة» - بقدر ما يقوي الفكرة واسعة الانتشار التي تقول: إن المرض قاتل بالضرورة. وليس مفهوم المرض بريئاً. ولكن يمكن الجدال أن استعارات السرطان هي بنفسها متضمنة للإبادة الجماعية. ولا يوجد رأي سياسي محدد يحتكر هذه الاستعارة. لقد سمى «تروتسكي» الستالينية سرطان الماركسية؛ وفي الصين في السنة الأخيرة، أصبحت عصابة الأربعة، من بين أشياء أخرى، «سرطان الصين». وشرح «جون دين» وترغيت لِـ «نيكسون»: «لدينا سرطان داخل حكومتنا -مقرب من الرئاسة- وهو ينمو ويكبر». والاستعارة المثالية في الخطاب السياسي العربي -المسموع من قبل الإسرائيليين في الإذاعة كل يوم على مدى العشرين سنةً الأخيرة- هو أن إسرائيل هي «سرطان في قلب العالم العربي» أو هي «سرطان الشرق الأوسط». وقد وصف ضابط مع القوات المسيحية اللبنانية اليمينية التي كانت تطوق مخيم اللاجئين الفلسطينيين في تل الزعتر في آب عام 1976، وصف المخيم أنه «سرطان في الجسم اللبناني». يبدو أن استعارة السرطان من الصعب رفضها من قبل الذين يرغبون في تسجيل غضبهم وكرههم. وهكذا كتب «نيل أشيرسون» عام 1969 أن قضية الـ «سلانسكي» كانت سرطاناً ضخماً في جسد الأمة التشيكوسلوفاكية ودولتها أو حكومتها». ويتكلم «سيمون ليس» في كتابه «ظلال صينية»، عن «السرطان الماوي الذي يقضم وجه الصين». وسمّى «د. إتش. لورنس» العادة السرية «أعمق وأخطر سرطان في حضارتنا». وكتبت أنا مرةً، آنان حرارة اليأس من الحرب على فيتنام، أن «العرق الأبيض هو سرطان التاريخ الإنساني».

ولكن كيف نكون قساةً في أواخر القرن العشرين؟ كيف، عندما يكون هناك الكثير لنكون قساةً عليه؛ كيف، عندما يكون لدينا إحساس بالشر ولكن لم يعد لدينا اللغة الدينية أو الفلسفية لنتكلم بذكاءٍ عن الشر. إن

محاولة فهم الشر (الأصولي أو الجذري) أوالشر (المطلق) تتطلب بحثاً عن الاستعارات الكافية. لكن كل استعارات المرض المجازية الحديثة هي طلقات رخيصة. وإن الأشخاص الذين لديهم المرض الحقيقي قلما يُساعَدون عن طريق سماعهم اسم مرضهم يُطلَقُ باستمرار على أنه مثال الشر أو أنه صورة مصغّرة عنه، ذلك أن أي حدثٍ تاريخي أو مشكلة كالمرض هي مشكلة بأكثر المعاني تحديداً، واستعارة السرطان هي شديدة أو تامة. وهكذا، من المشجِّع أن نبسِّط المعقد وهو دعوة للاستقامة النفسية، إن لم تكن دعوةً للتعصب.

من المفيد أن نقارن صورة السرطان بصورة الغانغرين. فبعض الاستعارات المجازية نفسها كاستعارات السرطان، فهو يبدأ من لاشيء؛ ثم ينتشر؛ إنه مثير للاشمئزاز، إذ يبدو الغانغرين مثقلاً بكل شيء يريده المناظر أوالمجادل بعنف. فقد كان يُستَعملُ بالفعل في مناظرةٍ أخلاقيةٍ مهمة ضد استعمال الفرنسيين للتعذيب في الجزائر في خمسينيات القرن العشرين؛ وكان عنوان الكتاب الذي فضح التعذيب هو (الغانغرين). لكن هناك فرق كبير بين السرطان واستعارات الغانغرين. أولاً هو أن السببية واضحة في الغانغرين، إنه خارجي (يمكن أن يتطور الغانغرين من لا شيء)؛ بينما من المفهوم أن السرطان هو أحجية أو لغز، إنه مرض له أسباب عديدة، داخلية وخارجية. وثانياً أن الغانغرين ليس مصيبةً مطوّقةً للمريض كالسرطان. إنه يؤدي غالباً إلى بتر العضو المصاب، ونادراً ما يؤدي إلى الموت. بينما السرطان يؤدي إلى الموت في معظم الحالات. ويبقى السرطان أكثر الاستعارات المجازية راديكاليةً. هذا، على الرغم من كل المحاولات المختلفة لكلٍ من «آرتود» و«رايخ» و«كامو» فرض استعارات الكئيب والموحش على الغانغرين والطاعون. وبالضبط لأنه راديكالي جداً، فإن السرطان ينزع لأن يكون متحيزاً - وهذه استعارة جيدة لمرضى البارنويا (جنون العظمة أو الاضطهاد أو الارتياب والشك

بالآخرين)، الذين يحتاجون لأن يقلبوا الحملات الانتخابية إلى حروب صليبية، والذين هم قدريون (السرطان = الموت)، والذين يخضعون لنفوذ التفاؤل الثوري التاريخي وسلطانه (فكرة أن التغيرات الجذرية فقط هي المرغوب فيها). وطالما يلتصق بأوصاف السرطان وعلاجه الكثير من الغُلُوّ العسكري، فهو استعارة مجازية غير ملائمة لمحبي السلام.

من المحتمل، طبعاً، أن تتطور اللغة عن السرطان في السنوات القادمة. يجب أن تتغير بكل تأكيد، عندما يُفهَم المرض أخيراً وعندما تصبح نسبة الشفاء أعلى. إنها تتغير مع تطور أساليب العلاج. ولأن العلاج الكيميائي يحل محل الأشعة أكثر فأكثر في علاج مرضى السرطان، يحتمل أن يظهر شكل فعّال للعلاج (هو علاج داعم وذا نفعٍ مثبت ومجرّب) في نوعٍ ما من أنواع الأدوية المناعية (التي تزوّد الجسم بالمناعة). وقد بدأت المفاهيم بالتغير في بعض الدوائر الطبية، حيث يركز الأطباء على البنية الحادة لاستجابات الجسم المناعية للسرطان. وطالما تتطور لغة العلاج من استعاراتٍ عسكرية متعلقة بالحرب العدوانية إلى استعاراتٍ تظهر ملامح (الدفاعات الطبيعية) للجسم (لما يُسمّى (النظام المناعي الدفاعي) التي يمكن -لكي تتخاصم بشكلٍ كلي مع الاستعارات العسكرية- أن نسميها أيضاً (كفاءة الجسم المناعية))، فسوف يقل بشكلٍ جزئي اعتبار السرطان خرافةً أو لغزاً. وعندئذٍ سيكون من الممكن أن نقارن شيئاً ما بالسرطان دون تضمين التشخيص القدري ولا الدعوة إلى استنهاض القتال بأية وسيلةٍ مهما كانت ضد عدوٍ ماكر ومقاتل شرس. ثم ربما سيكون من المسموح به أخلاقياً، حيث إنه ليس كذلك الآن، أن نستعمل السرطان كاستعارةٍ مجازية.

ولكن في ذلك الوقت، ربما سوف لا يريد أي شخصٍ أن يقارن أي شيءٍ مرعب بالسرطان. لأن اهتمام الاستعارة هو بالضبط أنها تشير إلى مرضٍ مغطىً بالإرباك والتعمية، ومشحونٍ بوهم الموت الذي لا مهرب

منه. ذلك لأن آراءنا عن السرطان وعن الاستعارات التي فرضناها عليه هي عربة أو أداة نقل تقصير ثقافتنا الكبير، ووجهة نظرنا الضحلة عن الموت، وقلقنا على مشاعرنا، واستجاباتنا الطائشة وقصيرة النظر (المشكلاتنا الحقيقية في النمو) وعدم قدرتنا على بناء مجتمعٍ صناعيٍ متقدم يضبط الاستهلاك بشكلٍ صحيح وكما يجب، ومخاوفنا المبررة من المسار المتعاظم عنفه للتاريخ. عندئذٍ ستكون استعارة السرطان مهملةً ومن طرازٍ عتيق، حسبما أتنبأ، قبل أن تُحَلّ المشكلات التي عكستها هذه الاستعارة بشكلٍ مقنع بوقتٍ طويل.

مكتبة
t.me/t_pdf

مرض المناعة المكتسبة
واستعاراته

بعد قراءتي لِـ «المرض كاستعارة»، الآن، فكرت:

الجزء الأول

لقد قصدت بالاستعارة لا أكثر أو أقل من أقدم وأبلغ تعريفٍ أعرفه، وهو تعريف «أرسطو» في كتابه «الشعر» عام1475 ق. م، حيث كتب «أرسطو»: «تتألف الاستعارة من إعطاء الشيء اسماً يخص شيئاً آخر». فالقول إن شيئاً ما هو أو هو مثل شيء آخر هو عملية ذهنية قديمة قدم الفلسفة والشعر، هو الأرضية المولّدة أو المفرّخة لمعظم أشكال الفهم، بما فيها الفهم العلمي، والقدرة على التعبير. وقد كتبت قبل عشر سنوات، مستعملةً استعاراتٍ مجازيةٍ قصيرةٍ وجميلة، تعويذةً ساخرة عن قوة إغراء اللغة البلاغية وإغوائها. كتبت ذلك لأعترف أنني كتبت مقدمة ضد المناظرة التي كانت متعلقة باستعمال الاستعارات المجازية للمرض. طبعاً لا يستطيع المرء أن يفكر دون استعارات مجازية. ولكن ذلك لا يعني أنه لا يوجد بعض هذه الاستعارات التي من الأفضل أن نمتنع عن استعمالها. وطالما أن كل التفكير طبعاً هو تفسير، وهذا لا يعني أنه ليس صحيحاً أحياناً أن نكون «ضد» التفسير.

خذ، مثلاً، استعارةً متماسكةً كانت قد شكَّلَت (وحجبت فهم) الكثير من الحياة السياسية لهذا القرن، الفهم الذي يوزّع ويُمَحوِرُ المواقف والحركات الاجتماعية وفق علاقاتها مع «اليسار» أو «اليمين». وترجع العبارات عادةً إلى الثورة الفرنسية وإلى ترتيب مقاعد الجمعية الوطنية

عام 1789، عندما جلس الجمهوريون والراديكاليون إلى يسار رئيس الجمعية، بينما جلس الملكيون والمحافظون إلى يمينه. ولكن الذاكرة التاريخية وحدها لا تستطيع تعليل التطويل المجفل لهذه الاستعارة. يبدو من الأكثر احتمالاً أن يكون إصرار هذه الاستعارة على الخطاب السياسي حتى يومنا هذا يأتي من الميل المحسوس إلى الخيال الحديث العامي (عند عامة الناس) الذي يستعمل استعارات مجازية متعلقة بتكييف الجسم وفق الاتجاهات المكانية -يسار ويمين، أعلى وأسفل، إلى الأمام وإلى الخلف- من أجل وصف الصراع الاجتماعي، الشيء الذي هو تمرين على استعمال الاستعارات المجازية التي أضافت شيئاً جديداً إلى وصف المجتمع، المتكرر دائماً، كنوعٍ من الجسم المؤدب والمهذب والمنضبط المحكوم من قبل (رئيس). كانت هذه، منذ أفلاطون، الاستعارة الطاغية، ربما بسبب نفعها من أجل تبرير الاضطهاد. حتى أكثر من مقارنة المجتمع بالأسرة، وربما أن مقارنته مع جسم أو شخص تجعل تنظيم المجتمع على أساس إخضاع جميع أفراده لمصلحة الدولة (نظام شمولي)، شيئاً محتوماً ولا يمكن تغييره.

يُزوّدنا «رادولف فيرشو»، مؤسس علم الأمراض الخليوية، بواحدٍ من الأمثلة العلمية المهمة والنادرة للإجراءات العكسية، التي هي استعمال الاستعارات المجازية السياسية للكلام عن الجسم. لقد كانت استعارة الدولة الليبرالية في المناظرات البيولوجية في خمسينيات القرن التاسع عشر، الاستعارة التي وجدها «فيرشو» مفيدةً في تطوير نظريته عن الخلية أنها الوحدة الأساسية للحياة. ومهما كان هيكل أو بنية العضويات معقدة، فهي، قبل كل شيء، وببساطة (متعددة الخلايا)، أو متعدد المواطنة [مجتمع يضم العديد من المواطنين]. الجسم هو (جمهورية) أو (كومون ويلث موحدة). بين أصحاب البلاغة العلميين، كان «فيرشو» شخصاً خارجاًعلى الجماعة، ولم تكن سياسية استعاراته، التي كانت تُعد

مضادةً للسلطة بمقاييس القرن التاسع عشر، أقل الأسباب لخروجه على الجماعة. ولكن تشبيه الجسم بالمجتمع، سواء أكان ليبرالياً أو لا، لم يكن أقل شيوعاً من تشبيهه بأنظمة موحدة ومعقدةٍ أخرى، مثل الآلة والمشروع الاقتصادي.

في بداية الطب الغربي، في اليونان، كان هناك استعارات مهمة لوحدة الجسم قد اقتُبِسَت من الفنون. وقد اختيرت «الهارموني» [التوافق والتآلف والتناسق والانسجام] لتعبِّر عن الاحتقار والازدراء من قبل «لوكريتوس» فيما بعد، الذي جادل أنها لا تقر حقيقة أن الجسم يتألف من أعضاءٍ أساسية وغير أساسية، أو حتى لا تقر بمادية الجسم. وهذه هي الأبيات الختامية لنبذه الاستعارة الموسيقية، وهو أول شيء عرفته عن التفكير البلاغي المجازي المتعلق بالمرض:

يجب أن تفهم أنه ليس كل الأعضاء
متساوية الأهمية ولا تعتمد الصحة
عليها بالتساوي، ولكن بعضها
هو أساس التنفس وحرارة الجسم
وبها نستمر في الحياة.
وعندما تذهب
هذه الأعضاء، تغادر الحياة أصحابها،
والروح هي جزء من الإنسان، أترك الموسيقيين
يحتفظون بتلك العبارة المنزلة من «هيليكون»
العالي – أو ربما وجدوها في مكانٍ آخر وجعلوها
تنطبق على شيءٍ ما لا اسم له حتى الآن في فنهم –
أتكلم عن الانسجام. مهما كان،
أرجعه للموسيقيين.

إن تاريخ البلاغة استعمال الاستعارات المجازية للجسم في هذا

المستوى من العمومية، يتضمن عدة صور مأخوذة من فنون أخرى ومن التكنولوجيا، وخاصةً من هندسة العمارة. بعض هذه الاستعارات لا يمكن شرحها، مثل الفكرة الشعرية الوعظية التي شرحها القديس «بطرس» عن الجسم كمعبد. وبعضها يتسم بنبرةٍ علمية، مثل فكرة أن الجسم مثل معمل، وصورة الجسم الذي يعمل تحت إشارة الصحة، والجسم كقلعة، وصورة الجسم الذي ينبئ بالكارثة.

لصورة الجسم كقلعة تاريخ طويل من الأصول ما قبل العلمية، بينما المرض نفسه استعارة للسلوك الأخلاقي، ولضعف الإنسان وأنه عرضة للسقوط. وفي ألحان «جون دون» النثرية المتعلقة بالمرض (1627)، ‹ديفوشينز أبون إيميرجنت أوكيجنز›، التي كتبها عندما اعتقد أنه يموت، يصف المرض كعدو يغزو الجسم ويحاصره:

نحن ندرس الصحة، ونفكر بأكلنا وشربنا وتنفسنا وتمارينا، ونصبغ كل حجر نستعمله في ذلك البناء؛ ولذلك فإن صحتنا هي عمل طويل ومنتظم؛ ولكن في لحظةٍ واحدة يقصف مدفع كل شيء ويدمر كل شيء؛ إنه مرض لا يمكننا علاجه على الرغم من كل ذكائنا، ولم نتوقعه على الرغم من كل حبنا للاستطلاع...

بعض الأعضاء أكثر هشاشةً من أعضاءٍ أخرى: يتكلم «دون» عن الدماغ والكبد أنهما قادران على تحمل حصار الحمى ‹غير الطبيعية› و‹الهائجة› ‹التي سوف تفجّرُ القلب، مثل اللغم، خلال دقيقة›. الذي يغزو في صور «دون» هو المرض. يمكن أن يقال: إن التفكير الطبي يبدأ عندما تصبح الاستعارة العسكرية الفظة محددةً، الشيء الذي يحدث فقط عند قدوم نوع جديد من التدقيق، المُمّثَل في علم الأمراض الخليوي وأسبابها الذي بدأه «فيرشو»، وبفهمٍ أدق أكثر لأسباب الأمراض (بمساعدة المجهر) التي هي عضويات مرئية، ويمكن التعرف عليها ووصفها بدقة. وقد أصبح الطب

مؤثراً وفعّالاً عندما شوهد الغازي ليس على أنه المرض، بل العضوية الدقيقة جداً التي تسبب المرض. واكتسبت الاستعارات العسكرية مصداقيةً جديدة ودقة. منذ ذلك الوقت، صارت هذه الاستعارات تستعمل كل أوصاف الوضع الطبي. وعُد المرض غزواً من قبل عضويات أجنبية، يستجيب لها الجسم بعملياته العسكرية الخاصة به كتحريك (دفاعاته) المناعية، والطب (عدوانياً)، كما هو في لغة العلاج الكيميائي.

وتظل الاستعارة الأكثر فظاظةً حيةً في الثقافة الطبية، حيث يوصف المرض بانتظام أنه يغزو المجتمع، وتسمى الجهود التي تُبذل لتقليل الوفيات (قتالاً) أونضالاً أوحرباً ضد المرض. أصبحت الاستعارات المجازية العسكرية بارزةً في بواكير القرن العشرين، في حملاتٍ، تعاظمت خلال الحرب العالمية الأولى، لتثقيف الناس عن السيفيلس، وبعد الحرب عن السل. وقد كان أحد الأمثلة، من الحملة التي أجريت ضد السل في إيطاليا في عشرينيات القرن العشرين، ملصقاً سمي (الحرب على الذباب)، الشيء الذي يدل على التأثيرات المميتة للأمراض التي ينقلها الذباب. وقد عُرِضَ الذباب وكأن هذه الحشرات كانت طائراتٍ تطلق قنابل الموت على السكان الأبرياء. وقد كتبت على إحدى القنابل (ميكروبات)، وعلى أخرى (مرض). ويركب هيكل عظمي يرتدي عباءةً سوداء وقبعةً على رأسه أول ذبابة في السرب كمسافرٍ أو قائد للطائرة. وفي ملصقٍ آخر، نقرأ: (بهذه الأسلحة سوف ننتصر على السل)، ويُرَى شبح الموت مثبتاً على الجدار بسيوفٍ مسلولةٍ، يحمل كل واحد منها عبارةً تسمي الإجراء المتخذ للتغلب على السل. كتبت كلمة (نظافة) على نصل أحد هذه السيوف. وكتبت كلمة (شمس) على نصل سيفٍ آخر. (هواء). (راحة). (طعام مناسب). (صحة). (طبعاً لم يكن أي من هذه الأسلحة مهماً. إن ما يهزم -أي يداوي- السل هو المضادات الحيوية، التي لم تُكتَشَف إلا بعد مضي عشرين سنة، في أربعينيات القرن العشرين).

بينما كان الطبيب هو الذي يشن الحرب على المرض، يقوم المجتمع كله الآن بذلك. بالفعل، إن تغير شكل الحرب إلى مناسبةٍ للتحرك الآيديولوجي الجماهيري، جعل مفهوم الحرب مفيداً كاستعارةٍ لكل أنواع الحملات التحسينية التي أهدافها هي هزيمة ‹عدو›. لقد قمنا بحروبٍ ضد الفقر، حل محلها الآن ‹الحرب على المخدرات› وحروب أخرى ضد أمراضٍ محددة كالسرطان. وربما تكون إساءة النظر إلى الاستعارات العسكرية حتميةً في مجتمعٍ رأسمالي، مجتمعٍ يقلِّص باستمرار مدى مناشدات المبدأ الأخلاقي ومصداقيته، الذي يُؤمن بسخف إخضاع ما يقوم به الشخص إلى حسابٍ للمصلحة الذاتية والربح أو الخسارة. شن الحرب هو واحد من بضع نشاطات الناس الذين ليس من المفترض أن ينظروا ‹بواقعية›؛ أي أن ينظروا بدافع الكلفة والنتيجة العملية. إن المصروفات غير المحددة في الحرب الشاملة، ليست من الفطنة، حيث إن الحرب بالتعريف هي أمر طارئ، ولهذا يُرَحّبُ بأية تضحية. ولكن الحروب ضد الأمراض ليست مجرد دعواتٍ لحماسٍ أكثر وجمع مبالغ مالية أكبر لصرفها على البحث. تُنَفّذُ الاستعارة المجازية الطريقة التي تُصَوّرُ بها الأمراض المرعبة خاصةً كَآخر أجنبي، كما يُصَوَرُ الأعداء في الحرب الحديثة. والانتقال من شيطنة المرض إلى أن المريض هو سبب المرض، انتقال حتمي، حتى مع الاعتقاد أن المرضى هم الضحايا، وإن تسمية المرضى ضحايا تشير إلى براءتهم. والبراءة، بحكم المنطق العنيد، هي التي تحكم العبارات ذات العلاقة، وتشير إلى الذنب.

تسهم الاستعارات المجازية العسكرية في تشويه بعض الأمراض وبعض المرضى أيضاً. لقد كان اكتشافي لوصم الناس وتشويههم هو الذي دفعني إلى كتابة ‹المرض كَاستعارة›.

عندما أُصِبتُ بالسرطان قبل اثني عشر عاماً، كان ما أثار غضبي خاصةً -وحوّل انتباهي عن الرعب واليأس اللذين أصاباني عندما شخّص لي

الطبيب مرضي- هو رؤيتي كم أضافت سمعة هذا المرض إلى معاناة المرضى الذين أُصيبوا به. لقد أبدى الكثير من زملائي المرضى الذين كنت أتكلم معهم خلال علاجي في المستشفى ومع الآخرين الذين قابلتهم خلال مدة السنتين ونصف السنة التي قضيتها في تلقي العلاج الكيميائي في عدة مستشفيات، كمريضةٍ خارج المستشفى، هنا وفي فرنسا -اشمئزازهم وتقززهم وشعورهم بالعار من مرضهم، السرطان. وبدوا وكأنهم واقعون في قبضة أوهامٍ عن مرضهم لم تُغوني بالإيمان بها. وخطر لي أن بعض هذه الأفكار والأوهام المتعلقة بالسل النقيض للمعتقدات التي استُبعِدت بشكل كامل الآن. ومثلما كان يُنظَرُ للسل نظرة عاطفية، كان يُنظَرُ للسرطان بتقززٍ لا عقلاني على أنه تصغيرٌ وتحقيرٌ للذات. توجد أيضاً مقولات مشابهة عن المسؤولية والنزعة الخاصة بالشخصية فيما يخص السرطان. فهو يُعد المرض الذي يُصيبُ المهزومين نفسياً والانطوائيين والمقهورين أوالمضطهدين- وخاصةً أولئك الذين لديهم غضب مكبوت أو أحاسيس جنسية. بينما كان السل يُعد -خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين- (بالفعل حتى اكتُشِفَ كيف يُعالَجُ) ميَّالاً لأن يصيب أولئك الذين لديهم حساسية مفرطة والأذكياء الموهوبون والعاطفيون.

هذا التوازي -بين الخرافات عن السل التي ننظر إليها باستخفافٍ الآن والخرافات المتعلقة بالسرطان التي لا تزال تلقى القبول عند الكثيرين من مرضى السرطان وعائلاتهم- أعطاني الاستراتيجية الرئيسة لكتابٍ صغير قررت أن أكتبه عن السرية والخفاء والألغاز التي تحيط بالسرطان، أو عن (تحويل هذا المرض إلى مرضٍ يكتنفه الغموض والسرية والألغاز). لم أعتقد أنه سيكون مفيداً -وأردت- لكي يكون الكتاب كذلك - أن أكتب قصةً أخرى تُروى وكأنها حدثت لي أنا، عن شخصٍ أصيب أو أصيبت بالسرطان وبكى وناضل وعانى الكثير وواساه الآخرون وتَشَجَّع... مع

أن هذه القصة هي قصتي أنا أيضاً. بدا لي أن القصة ستكون أكثر فائدةً من الفكرة. فمن أجل السرور الذي يحصل من قراءة القصة، رغبت أن أستغيث بكتابٍ آخرين. وعلى الرغم من أن العديد من الأمثلة من الأدب خطرت ببالي فوراً للمرض الساحر، السل، وجدت أن تشخيص السرطان كمرضٍ أصاب الذين لم يعيشوا في كتب مثل كتاب «توليستوي» (موت إيفان إيليتش)، أو كتاب «آرنولد بينيت» (رايسمان ستيبس)، أو كتاب «بيرنانوس» (مذكرات قسيسٍ من الريف).

وهكذا كتبت كتابي، كتبته بسرعة كبيرة، مُحَفَّزَةً بحماسٍ إنجيلي وبقلقٍ على الوقت الذي لم أستغله في عمل أي شيءٍ لكسب العيش أو في الكتابة. كان هدفي هو تخفيف المعاناة غير الضرورية، كما صاغها «نيتشة» بالضبط، في مقطعٍ في (ذي بريك) الذي وقعت عليه حديثاً:

> أفكار عن المرض! - لتهدئة خيال المقعد، لكي، لا يتوجب عليه على الأقل أن يحصل مثلما حصل حتى الآن، أن يقاسي من التفكير بمرضه أكثر من التفكير بالمرض نفسه. وأعتقد أن ذلك سيكون شيئاً ذا قيمة! سيكون شيئاً كبيراً.

كان غرضي من الكتاب هو تهدئة الخيال، وليس إثارته. ولم يكن الهدف هو منح المعنى، الذي هو الغرض التقليدي لأي عملٍ أدبي، بل تجريد شيءٍ ما من المعنى: ولأطبق استراتيجية المناظرات الدونكيشوتية (الرمانتيكية، والوهمية وغير العملية)، (ضد الشرح)، على العالم الواقعي هذه المرة. بالنسبة للجسم، كان غرضي عملياً قبل كل شيء، ذلك لأنه، كان لملاحظتي الكئيبة التي تكررت مراراً، والتي هي أن الزخرفات المجازية التي تسيء إلى تجربة الإصابة بالسرطان لها نتائج حقيقية. هذه النتائج تنهي الناس من ملاحقة العلاج ومتابعته في وقتٍ مُبَكّر. وكنت مقتنعةً أن الاستعارات المجازية والخرافات تقتل. (مثلاً تجعل الناس

خائفين بشكل لا عقلاني من الإجراءات المؤثرة كالعلاج الكيميائي، وتُنَمّي شكلاً من مصداقية الأدوية غير النافعة كالأنظمة الغذائية والعلاج النفسي). أردت أن أقدم للناس الآخرين الذين كانوا مرضى، وللذين يعتنون بهم أداةً للقضاء على هذه الاستعارات المجازية، هذه الموانع. أملت أن أقنع الناس المرعوبين الذين كانوا مرضى أن يستشيروا الأطباء، أو أن يُغَيّروا أطباءهم غير الأكفّاء بآخرين أكفّاء يمكنهم أن يقدّموا رعايةً صحيةً أفضل. أردت أن أعد السرطان كما ولو كان مرضاً فقط. إنه مرض خطير جداً، لكنه مجرد مرض. إنه ليس لعنةً، وليس عقاباً، وليس إحراجاً أو إرباكاً. أردت ألا يُعطى «معنى» خاصاً به. وألا يكون بالضرورة حكماً بالموت (أحد أشكال تحويله إلى خرافات وألغاز هو السرطان = الموت). «المرض كاستعارة» مجازية ليس نقاشاً أو مناظرةً فقط، بل هو أيضاً نصح وتحذير. كنت أقول: اجعل الأطباء يقولون لك الحقيقة؛ كن مريضاً عارفاً ونشطاً؛ ابحث لنفسك عن علاج جيد، لأن العلاج الجيد موجود (في خضم عدم الكفاءة المنتشرة). ومع أن العلاج المطلوب ليس موجوداً أحياناً، فإن أكثر من نصف الحالات يمكن أن تُعالَجَ بطرق العلاج المتوافرة.

لقد تطورت وجهات النظر والآراء المتعلقة بالسرطان منذ كتابتي لِـ «المرض كاستعارة»، قبل عقدٍ من الزمن. وقد عُولِجتُ من السرطان، على الرغم من عدم تصديق أطبائي وتشاؤمهم من شفائي. الإصابة بالسرطان ليست وصمة عار، ولا هي خالقة لِـ «هوية» قد أُفسِدَت بفعل المرض (لأستعمل تعبير «إيرفينغ غوفمان»). تُلفظ كلمة سرطان بحريةٍ أكبر الآن، وتوقف وصف الناس في المرثياتِ أنهم ماتوا بعد صراعٍ طويلٍ مع «المرض». وعلى الرغم من أن الأطباء الأوروبيين واليابانيين لا يزالون يفصحون عن أن تشخيص السرطان له علاقة أولاً بعائلة المريض، وغالباً ينصحون بإخفائه عن المريض، فإن الأطباء الأمريكيين أقلعوا بالحقيقة

عن مثل هذه السياسة؛ وبالفعل بات إعلان التشخيص الفظ للمريض شائعاً الآن.

إن الصراحة الجديدة المتعلقة بالسرطان هي جزء من صراحة الأقلية الحاكمة (أو قلة اللياقة والتهذيب) التي تجلب لنا رسوماً بيانية للكولون المستقيم أو لأوجاع للقناة البولية والتناسلية عند قادتنا القوميين على التلفاز وعلى الصفحات الأولى للصحف. وهذا الشيء يصبح، أكثر فأكثر، فضيلةً في المجتمع، أن تتكلم عن الشيء الذي من المفروض ألا يُسَمّى. هذا التغير يمكن أيضاً أن يُفَسّر بخوف الأطباء من الدعاوى القضائية بحقهم في مجتمع يميل إلى إقامة الدعاوى. ومن بين الأسباب التي يُنظَرُ إلى السرطان لأجلها بكره أقل وبتستُّرٍ أقل مما كان يُنظر له قبل عقدٍ من الزمن، هو أنه لم يُعد المرض الأكثر رعباً. وقد رُفِعَ عبء السرطان في السنوات الأخيرة بسبب ظهور المرض الذي يتهم أنه يسبب العار للمريض، ويخلق للمريض هويةًقد أُفسِدَت.. المرض الذي تُهَمُهُ أكبر بكثير من التهم الموجهة للسرطان. يبدو أن المجتمعات بحاجةٍ إلى مرضٍ واحد يُعرَفُ أنه مرض شرير، ويلحق اللوم لِـ (ضحاياه)، ولكن من الصعب أن يستبد بنا ويثير بنا الهواجس أكثر من مرض.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء الثاني

كما يمكن التنبؤ بقدوم مرضٍ غير مفهوم تماماً ولا يستجيب للعلاج، فإن قدوم هذا المرض المرعب والجديد بشكل الانتشار السريع الذي يقوم به، زودنا بفرصةٍ كبيرةٍ لاستعمال الاستعارات المجازية للكلام عنه.

إيدز – نقص المناعة المكتسبة، ليس اسم مرضٍ أبداً، إنه اسم لحالة طبية، برزت نتائجها كطيف من الأمـراض. بالمقارنة مع السيفيلس والسرطان، اللذين يزودانا بالنموذج الأصلي لمعظم الاستعارات المجازية المتعلقة بالإيدز، فإن تعريف الإيدز يتطلب وجود أمراضٍ أخرى، تسمى بالأمراض الانتهازية والمهلكة. وعلى الرغم من أن الإيدز ليس مرضاً واحداً، فهو يُعد كذلك، ذلك لأنه على العكس من السرطان والسيفيلس، يعتقد أن له سبباً واحداً.

وللإيدز أصل مجازي ثنائي. إنه يوَصَفُ كالسرطان، كغزوٍ. وعندما يكون التركيز على انتقال المرض، تُستَحضَرُ استعارة أقدم: هذه الاستعارة هي التلوث. (يحصل المرء عليها من الدم أو السوائل الجنسية للمصابين أو من منتجات الدم الملوث). ولكن الاستعارات العسكرية المستعملة لوصف الإيدز تختلف عن الاستعارات التي تستعمل لوصف السرطان. فبالنسبة للسرطان، تقلل الاستعارة من أهمية مسألة مسبب المرض (الذي لا يزال موضوعاً غامضاً في البحوث المتعلقة بالسرطان) ثم تتسارع عندما تبدأ خلايا الجسم بالتكاثر والتغير، منتقلةً في النهاية من الموقع

الأصلي أوالعضو لتجتاح أعضاءً أخرى أو أنظمة أخرى. وفي وصف الإيدز، العدو هو الذي يسبب المرض، هو عنصر معدٍ آتٍ من الخارج:

> الغازي صغير جداً، هو عبارة عن جزء من ستة عشر ألفاً من رأس دبوس... يبحث عن الجهاز المناعي للجسم، وعن الخلايا الكبيرة، ويتحسس وجود الغريب الصغير جداً، وينبه الجهاز المناعي على الفور. إنه يبدأ في تحريك عددٍ كبيرٍ من الخلايا، التي تنتج أجساماً مضادة لتعالج التهديد. يهمل فايروس الإيدز العديد من خلايا الدم في طريقه، ويتجنب المدافعين المتقدمين ويستقر على المساعد الأساسي للجهاز المناعي، على خلية المساعد تِ.

هذه هي لغة الخوف والارتياب السياسي، بعدم ثقتها المميزة من عالمٍ جماعي. إن نظاماً دفاعياً مؤلفاً من خلايا (تنتج أجساماً مضادة لتتعامل مع التهديد)، ليس نداً لغازٍ (الذي يقوم بالغزو) يتقدم بثبات. ونكهة قصص الخيال العلمي الموجودة سلفاً في الكلام عن السرطان هي حادة أكثر في أوصاف الإيدز -هذا الوصف مأخوذ من مجلة تايم في أواخر 1986- حيث يوصف المرض كالحرب الإلكترونية التي نحن مستعدون لها عن طريق أوهام قادتنا وتسليات الفيديو. وفي حقبة حرب النجوم وغزو الفضاء، برهن الإيدز أنه مرض مفهوم:

> على سطح الخلية، يجد الإيدز مستَقبِلاً بروتيناً من بروتيناته المُغَلّفة ملائماً جداً مثل ملائمة الثياب للجسم أو دخول المفتاح في ثقب القفل. بعد أن يدخل الفايروس إلى الخلية مثلما تدخل السفينة في حوض إصلاح السفن، فإنه يخترق نسيجها ويُعَرّى من صدفته التي تحميه أثناء دخوله.

ثم يقيم هذا الغازي، الفايروس، إقامةً دائمة، على طريقة الأجنبي الذي يحل محل الذي يطرده، كما نرى ذلك في قصص الخيال العلمي. وتصبح خلايا الجسم نفسها هي الغازية، وبفعل إنزيمٍ يحمله الفايروس معه.

> ثم يغير فايروس الإيدز العاري الـ(آر إن أي) الذي يخصه إلى... دي إن أي، الذي هو سيد جزيئات الحياة. ثم يخترق هذا الجزيء نواة الخلية، مدخلاً نفسه في أحد الكروموزومات، ليستلم دوره في القيام بجزء من آلية هذا الكروموزوم الذي هو توجيهه لإنتاج فايروسات إيدز أكثر. وأخيراً، وبعد أن يتغلّب عليها مُنتَجها الأجنبي، فإن الخلية تنتفخ أو تتورم وتموت، مخلفةً وراءها طوفاناً من الفايروسات الجديدة لتهاجم خلايا أخرى...

وعندما تهاجم الفايروسات خلايا أخرى، تستمر الاستعارة، فإن ‹مجموعةً من الأمراض الانتهازية، التي عادةً يقوم الجسم بكف أذاها عنه عن طريق نظامه المناعي الصحي، تهاجم الجسم›، الذي سُلِبَ من تماسكه وقوته بفعل ‹المنتج الأجنبي› الذي يلاحق دفاعاته المناعية. ثم يموت الجسم، ضحية الإيدز، بعد ‹إضعاف المرض التدريجي له، أحياناً خلال بضعة شهور، ولكن دائماً على الأغلب بعد بضع سنوات›. إن أولئك الذين لم يخضعوا مسبقاً يوصفون بأنهم ‹تحت الهجوم، مبينين الأعراض الدالة على المرض›، بينما ملايين غيرهم ‹يحملون الفايروس›، هم عرضة للهجوم الكاسح النهائي في أي وقت.

إن السرطان يجعل الخلايا تتكاثر؛ بينما تموت الخلايا في السل. حتى ولو غُيِّرَ هذا الطراز الأصلي من الإيدز (الصورة العكسية لمرض ابيضاض الدم أو تكسر صفائح الدم) فإن وصف كيفية قيام الفايروس بعمله يستمر في أنه انعكاس لطريقة تَصوره متسللاً للمجتمع. ‹وُجد فايروس الإيدز

مختبئاً في الخلايا، مراوغاً الاكتشاف ومتحايلاً على الاختبارات العادية للكشف عنه) كان عنواناً لقصةٍ في الصفحة الأولى في جريدة (نيو يورك تايمز معلنةً اكتشاف أن الفايروس يمكن أن (يتربص) لسنوات في (الماكروفيجيز)، الآكلات الكبيرة للبكتيريا - مفسداً وظيفتها في قتال المرض دون أن يقتلها، حتى ولو كانت هذه الآكلات مليئةً بالفايروسات إلى درجة الانفجار، ودون أن ينتج أية مضاداتٍ كالتي يصنّعها الجسم كاستجابةٍ ضد (الفيروسات المهاجمة) والتي عُد وجودها العلامة التي لا تخطئ على وجود المرض[1].

نظراً إلى أن الفايروس ليس قاتلاً لكل الخلايا حيث يسكن هو، كما يُعتَقَدُ الآن، يزيد فقط من سمعة عدو المرض أنه ماكر ولا يُقهَر.

وإن مايجعل هجوم الفايروس مرعباً هوالاعتقاد أن التلوث والقابلية للمرض أبديان. حتى ولو لم يبد المصاب بالمرض أية أعراضٍ له - لوظلت العدوى أوالإصابة، أو أمكن، بتدخل العلاج، تحويل المرض إلى مرضٍ غير نشط- فالفايروس العدو سيظل داخل الجسم بشكلٍ دائم. وفي الحقيقة، هكذا يُعتَقَدُ، إنها مسألة وقت قبل أن يوقظ الفايروس، قبل

1- إن الدور الأكبر المناط بالآكلات الكبيرة للباكتيريا -هو أن تعمل كخزّانٍ لفايروسات الإيدز، لأن الفايروس يتكاثر فيها ولكن لا يقتلها، كما يقتل (خلايا تي 4)- يُقَالُ إنه يفسّرُ الصعوبة التي هي غير شائعة في اكتشاف خلايا تي 4ليمفاوية مصابة في المرضى الذين لديهم أجسام مضادة للفايروس وأعراض الإيدز. (لا يزال يفتَرَضُ أن الأجسام المضادة سوف تتطور حالما ينتشر الفايروس إلى هذه الخلايا التي هي (الهدف الأساسي)). والدليل على أن الخلايا تصاب فوراً محير ومحدود أو غير متسق مثلما هو الدليل على الإصابة في المجتمعات البشرية - محيّر ومربك، بسبب الاعتقاد أن المرض موجود في كل مكان، ويجب أن ينتشر. (لقد قدر الأطباء أن واحدةً من كل مليون من خلايا تي 4 تُصاب بالمرض، الشيء الذي أدّى إلى أن يسأل بعضهم: أين يختبئ الفايروس؟...) وهناك فكرة مدوية أخرى ذُكِرَت في المقالة نفسها (جريدة نيو يورك تايمز، 7 أيار، 1988): الآكلات الكبيرة للباكتيريا المصابة بالمرض يمكن أن تنقل الفايروس إلى خلايا أخرى، عن طريق لمس هذه الخلايا.

ظهور (الأعراض الدالة) على وجوده أوالإصابة به. مثل مرض السيفيلس، المعروف لأجيالٍ من الأطباء أنه (المتخفي الأكبر)، الإيدز هو تفسير معنى سريري، هو استنتاج. ويأخذ هويته من وجود بعض الأعراض في قائمة أو سجلٍ من الأعراض الطويلة والمتزايدة باستمرار، أعراض (تعني) أن المريض يعاني من هذا المرض. إن معنى هذا المرض يرجع إلى اختراع، ليس الإيدز فقط، ككليةٍ أو بنيةٍ سريرية، بل إيدز في صفوفه الدراسية الأولى، الذي يُسَمّى (المركب المرتبط بالإيدز) (أي آر سي)، الذي يوصف الناس الذين أصيبوا به إذا أظهروا أعراضاً (مبكرة) وغالباً متقطعة من نقص المناعة المكتسبة كالحمى وفقدان الوزن والإصابات الفطرية وظهور الغدد الليمفاوية المتورمة. الإيدز هو مرض يتقدم باطراد، إنه مرض يعتمد على مرور الزمن. وحال الحصول على كثافةٍ من الأعراض، فإن مسار المرض يصبح سريعاً ويسبب آلاماً فظيعةً. إضافة إلى (تقديم) الأمراض (بعضها حتى الآن غير مألوف، على الأقل بشكلٍ قاتل، كسرطان جلد نادر وشكلٍ من أشكال التهاب الرئة النادر)، فإن مجموعةً من الأمراض التي تسبب الإعاقة والتغير الجسدي والأعراض التي تُذل مريض الإيدز، وتجعله غير متماسك الجسم بثباتٍ واستمرار وعاجزاً ضعيفاً وغير قادر على الاعتناء بنفسه للقيام بوظائف جسمه الحيوية وحاجاته الحياتية.

إن الإحساس أو المعنى الذي نعطيه له أنه مرض بطيء يقربه من السيفيلس، الذي يتميز (بالمراحل)، أكثر من السرطان. والتفكير بمنطق (المراحل)، هو ضروري للكلام عن الإيدز. أما السيفيلس في أشد أشكاله رعباً فهو (السيفليس الثلاثي)، السيفيلس في مرحلته الثالثة. والذي يُسَمّى إيدز من المفهوم أنه إيدز في مرحلته الثالثة والأخيرة -حيث تكون المرحلة الأولى منه هي الإصابة بفايروس نقص المناعة المكتسبة (إتش آي في) والدليل المبكر على وصول الفايروس إلى الجهاز المناعي-

والبقاء فيه لفترة كامنة بين الثانية والثالثة، فترة يمكن أن تستمر إلى عقود. ولكن تجدر الملاحظة أنه عندما ظهر السيفيلس أولاً كوباء في أوروبا في نهاية القرن الخامس عشر، كان مرضاً سريعاً، وذا عنفٍ لا يمكن تفسيره وليس معروفاً حتى الآن، والذي حدث الموت به في المرحلة الثانية، أحياناً خلال أشهرٍ أو بضع سنين. ويبدو أن فترة الكمون لفايروس الإيدز ليست طويلةً كفترة الكمون في السيفيلس. السرطان ينمو ببطء: لا يعتقد أنه يكمن لوقتٍ طويل. (ويبدو أن وصفاً مقنعاً لمسار المرض ومروره (بمراحل) يتضمن فكرة التأخير العادي أو التوقف للمسار، كفكرة الكمون). من الصحيح القول: إن السرطان يمر(بمراحل). هذا هو أداة أساسية للتشخيص، الشيء الذي يعني أن نصنفه وفق خطورته، مقررين كم هو (متقدم). ولكنها في معظمها فكرة تخص المكان: إن السرطان يتقدم من خلال الجسم، مسافراً أو مرتحلاً على طول طرقٍ يمكن التنبؤ بها أوتوقعها. السرطان هو أولاً وأخيراً مرض متعلق بجغرافيا الجسم، بالمقارنة مع السيفيلس والإيدز، اللذين يعتمد تعريفهما على بناء تسلسلٍ زمنيٍ للمراحل.

السيفيلس هو بلوى لا يتوجب عليها أن تكمل مسارها المرعب والشنيع إلى آخره، إلى الشلل (كما فعلت مع «بودلير» و«موباسان» و«جوليس دي كونكورت»)، واستطاعت هذه البلوى أن تبقى في مرحلة الإزعاج، وفقدان الوقار (كما فعلت مع «فلوبير»). كانت البلوى أيضاً كليشة، كما لاحظ «فلوبير» نفسه. إن من لديه سيفيلس يقرأ كثيراً أو قليلاً مدخلاً واحداً في (قاموس الآراء المقبولة)، خزنته من تفاهات منتصف القرن التاسع عشر. وأفلح السيفيلس في امتلاك صلةٍ معتمة الإيجابية بأوروبا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما أُقيمت صلةٌ بين السيفيلس والنشاط العقلي المعمق (المحموم) الذي يوازي الصلة التي أُقيمت منذ فترة الكتاب الرومانتيكيين بين السل الرئوي والنشاط العاطفي

المكَثَّف. وكأنه كان على شرف كل الكتاب والفنانين البارزين الذين أنهوا حياتهم في عُتهٍ أو خَبَلٍ متعلقٍ بالسيفيلس، أصبح من المصدّق به أن الكشط أو الحت الدماغي الذي يسببه السيفليس العصبي يمكن أن يوحي بفكرٍ أصيل أو فنٍ أصيل. ويجعل «توماس مان»، الذي كان أدبه مستودعاً للخرافات والأوهام المتعلقة بالمرض في بواكير القرن العشرين، يجعل من هذه الفكرة عن السيفيلس مصدر وحيٍ أو ميوز (أحد الآلهة التسعة في الميثيولوجيا اليونانية التي ترعى الآداب والفنون) مركزياً لقصته «الدكتور فاوستوس»، التي كانت الشخصية الأساسية فيها، أو شخصية البطل، شخصية مؤلف موسيقي عظيم، نقل العدوى بمرض السيفيلس إلى نفسه عن عمد -بكفالة أو ضمانة الشيطان أن العدوى ستكون محصورةً بالجهاز العصبي المركزي- لكي يمنحه الشيطان عشرين سنةً من الإبداع الخلاّق. يتذكر «إي. إم. سيوران» في رومانيا أواخر عشرينيات القرن العشرين، كيف تم تصوير الحسد المتعلق بالسيفيلس في توقعاته المراهقة بالمجد الأدبي. (أي أنه توقع أن يصبح مشهوراً عن طريق تناوله لموضوع الحسد من المصاب بالسيفيلس في أدبه). يكتشف «سيوران» أنه أصيب بالسيفيلس، وأنه سيكافَأ، من أجل هذا، بعبقريةٍ أدبية خارقة تدوم بضع سنين، ثم ينهار في جنونٍ مطبق. إن تحويل الخبل إلى خبلٍ رومانتيكي (الصفة المميزة للسيفيلس العصابي أو العصبي) هو السَبّاقُ إلى الوهم الأكثر إلحاحاً في هذا القرن (العشرين) في الكلام عن المرض العقلي كمصدرٍ للإبداع الفني أو الأصالة الروحية. لكن في الإيدز -مع أن الخبل هو أيضاً عرض متأخر شائع- لم تبرز أية ميثيولوجيا، أو بدا أنه يمكن أن تبرز. إن الإيدز كالسرطان، لا يسمح بتحويل المرض إلى شيءٍ رومانتيكي أو الكلام عنه بمنظار العواطف، ربما لأن ارتباطه بالموت ارتباط قوي. وفي فيلم «كريستوف زنوسي» «سبايرال» (1978)، الذي هو أكبر وصفٍ صادقٍ أعرفه للغضب من الموت، لم يُحَدّدْ مرض الشخصية

الرئيسة؛ لذلك، يجب أن يكون السرطان. والآن بعد عدة أجيالٍ، نجد أن الفكرة المتعلقة بجنس السرطان الأحيائي، أي أنه وراثي أولاً، كانت ولا تزال موتاً بالسرطان، الذي يُعد تجربة هزيمةٍ نوعية. وإن التوبيخ النوعي للحياة والأمل هو الإيدز.

الجزء الثالث

بسبب فترات الازدهار المجازية التي لا حصر لها، والتي جعلت السرطان مرادفاً للشر، فقد عُد السرطان من قبل الكثيرين معيباً أو مسبباً للعار، وأنه شيء يجب إخفاؤه، وهو شيء غير عادل، هو خيانة لجسم الإنسان. يصرخ مريض السرطان بمرارة، «لماذا أنا؟». أما في الإيدز، فالعيب أو العار مرتبط بإلصاق الذنب؛ والفضيحة ليست غامضةً أبداً، وقد يتساءل بعض الناس «لماذا أنا؟» غير أن معظم الناس في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى المصابين بالإيدز يعرفون (أو يعتقدون أنهم يعلمون) كيف أُصيبوا. إنه ليس مرضاً خفياً يصيب كيفما اتفق، من حيث لا يدري الشخص. في الحقيقة، إن الإصابة بالإيدز التي يُكشَفُ عنها، في معظم الحالات حتى الآن، هي إصابة شخصٍ كعضوٍ من «مجموعة يمكن أن تسبب المخاطر»، مجموعة من المنبوذين. يُظهِرُ المرض هويةً كان يمكن أن تظل مخبأةً عن الجيران وزملاء العمل والأسرة والأصدقاء. إنه أيضاً يؤكد هويةً. ولقد كان مثليو الجنس من بين «مجموعة الخطر» في الولايات المتحدة التي تأثرت بشكلٍ قاسٍ في البداية. لقد كان هذا المرض أيضاً محدثاً لمجموعةٍ من الناس، ولتجربةٍ توجب عزل المرضى وتعَرّضهم للمضايقات والاضطهاد.

إن الإصابة بالسرطان، أيضاً، تُفهَمُ على أنها نتيجة لخطأ شخصٍ ما انغمس في سلوك «غير آمن» كمدمن الكحول المريض بسرطان

المري، والمدخن المريض بسرطان الرئة: عقوبة للعيش حياةً غير صحية. (بالمقارنة مع أولئك الذين أُجبِروا على القيام بأعمالٍ غير آمنة، مثل العامل في مصنعٍ للبيتروكيماويات الذي يصاب بسرطان المثانة). يُبحَث باستمرار عن وجود أي ارتباط بين الأعضاء أو الأنظمة الأولية والممارسات الخاصة التي يُدعى الناس لرفضها، كالأفكار الحديثة التي تربط بين سرطان الكولون وسرطان الثدي والأنظمة الغذائية الغنية بالدهون الحيوانية. لكن العادات غير الآمنة المرتبطة بالسرطان، من بين أمراضٍ أخرى، حتى مرض القلب، الذي لم يتهم بعد المصاب به أنه هو الذي سببه، يُعد الثمن الذي يدفعه المصاب للإفراط في النظام الغذائي و«أسلوب الحياة»، هي كلها نتيجة لضعف الإرادة، أو انعدام الفطنة، أوالإدمان على الكيماويات القانونية (على الرغم من خطورتها). وإن السلوك غير الآمن الذي يؤدي إلى الإيدز يُقَيّم على أنه أكثر من ضعف. إنه انغماس، وتقصير وإهمال، وإدمان على الكيماويات غير القانونية وعلى ممارسة الشذوذ الجنسي.

ويُعد نقل الإيدز عن طريق الجنس مصيبةً يجلبها المريض على نفسه. ويُحكَمُ عليها بقسوةٍ أكبر من الوسائل الأخرى، خاصةً أن الإيدز لا يُعد مرض الإفراط في ممارسة الجنس فقط، ولكنه مرض الانحراف أيضاً. (طبعاً، إنني أفكر بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث يُقال للناس حالياً إن نقل الإيدز عن طريق ممارسة الجنس بين جنسين مختلفين هو نادر، وغير محتمل، وكأن أفريقيا لم توجد على سطح الكرة). وإن المرض المعدي الذي ينتقل بشكل أساسي عبر ممارسة الجنس، يضع أولئك الأكثر نشاطاً جنسياًبالضرورة في مخاطرةٍ أكبر، والذين من السهل عليهم اعتباره عقوبةً على تلك الممارسة. هذا الكلام صحيح فيما يتعلق بالسيفيلس. وهو صحيح أكثر فيما يتعلق بالإيدز. لأن سبب الإيدز ليس فقط ممارسة الجنس المختلط، ولكن الممارسة الجنسية الخاصة التي تُعد غير طبيعية.

ويُعتَقَدُ أن الإصابة بالمرض من خلال الممارسة الجنسية هو إرادي أكثر، لذا يستحق لوماً أكبر. وإن المدمنين الذين يُصابون عن طريق المشاركة في الأبر الملوثة، ينظر إليهم على أنهم يقترفون (أو يكملون) نوعاً من الانتحار غير المقصود. وإن الرجال المثليين الذين يمارسون الجنس المختلط من خلال عاداتهم الجنسية الحماسية والملتهبة وفق الاعتقاد المضلل، الذي نميّ بالآيديولوجيا الطبية وزعمها وجود المضادات الحيوية التي تداوي كل الأمراض، والذي يزعم أن كل الأمراض التي تُنقَلُ عن طريق ممارسة الجنس هي حميدة وغير ضارة. يُنظَرُ إلى أولئك الرجال المثليين على أنهم يؤمنون بمذهب المتعة وحياتهم مكرسة لخدمة هذا المذهب، على الرغم من وضوح سلوكهم الآن أنه كان ليس أقل رغبةٍ في الانتحار. أولئك الذين هم مثل الذين ينزعون إلى نزف الدم الوراثي والذين يتلقون الدم المنقول، الذين لا يمكن أن يُعدوا مسؤولين عن مرضهم، يمكن أن يكونوا قد شُجّعوا دون رحمة من قبل الناس الخائفين، والذين يشكلون تهديداً أكبر، لأنهم على العكس من الناس الموصومين سلفاً، ليس من السهل أن يُعرفوا.

تثير الأمراض المعدية التي يُلصَقُ بها الخطأ الجنسي المخاوف دائماً من العدوى السهلة والأوهام الشاذة الغريبة ومن نقل الأمراض عن غير طريق الحقن بالأبر في الأمكنة العامة. ولقد كان تغيير أقفال الأبواب وتركيب الأبواب الدوّارة على أبواب سفن البحرية الأمريكية واختفاء أكواب الشرب المعدنية التي كانت مربوطةً بنوافير الماء العامة في الولايات المتحدة الأمريكية في العقد الأول من القرن العشرين، من النتائج المبكرة(لاكتشاف) عدوى السيفيلس التي نُقِلَت ببراءة؛ وتحذير أجيالٍ من أطفال الطبقة الوسطى أن يضعوا دائماً بين المؤخرة العارية والحمام العام ورقاً على مقعدة المرحاض. كان كل ذلك علامةً أخرى على قصص الرعب عن جراثيم السيفيلس التي تُنقل للأبرياء من قبل

القذرين، والتي كانت منتشرةً في ذلك الوقت. كل مرض وبائي مرعب، عدا الأمراض المرتبطة بالفسق الجنسي، تولد تمييزاً يشغل البال بين الناقلين المفترضين (الشيء الذي يعني الفقراء -وفي هذا الجزء من العالم- الناس الملونين) وأولئك الذين يُعرّفون أنهم -خبراء صحة والبيرقراطيون الذين يقومون بتعريف أولئك- أنهم (عامة السكان). لقد (أحيا) الإيدز مخاوف مشابهة وهلعاً من التلوث والملوِّثات بين نسخة هذا المرض من (عامة السكان): الذين يمارسون الجنس المختلط من البيض دون أن يحقنوا أنفسهم بالمخدرات أو يمارسوا الجنس مع الذين يحقنون. ومثل السيفيلس الذي ينقله مرضاه من الآخرين الخطرين، يُنظَرُ إلى الإيدز على أنه البلوى التي تبلي عدداً أكبر بكثير من الناس الذين بلاهم السيفيلس حتى الآن. لكن السيفيلس لم يُعرَّفُ أنه يسبب موتاً معيناًبعد معاناةٍ طويلةٍ من الألم، كما كان السرطان يُعتَقَدُ أنه يفعل وكما يُزعَم عن الإيدز الآن.

الإيدز ليس مرضاً واحداً، بل هو مجموعة متزامنة من الأعراض التي تظهر دفعة واحدة بعضها مع بعض، وهي تتألف من قائمةٍ ليست نهائية من الأمراض المساهمة (التي تشير إلى أن الشخص مصاب بهذا المرض). وحقيقة أن هذا المرض هو هكذا تجعله موضوعاً للتعريف والبناء، أكثر مما تجعله مرضاً معقداً ومتعدد الأشكال مثل السرطان. وبالفعل فالنقاش حول أن الإيدز هو مرض قاتل يعتمد جزئياً على ما قرره الأطباء من تعريفٍ للإيدز، محتفظين بمراحله الأولى المميزة له على أنه مرض الإيدز في الاحتياط. ويعتمد هذا القرار على فكرة ليست أقل مجازيةً بدائيةً من المرض كامل القدرة على الفتك[1]. فهو (قاسي العود) أو (مكتمل النمو)،

1- إن التعريف المثالي يميز بين الناس المرضى بالإيدز أو المرضى بمركب أو مجموعة أعراض (تحقق معايير أو مقاييس ملاحظة ومراقبة الإيدز) وعددٍ أكبر من الناس المصابين بِـ(إتش آي في) الذين لا يحققون مقاييس الفحص السريري (للمرض

بمعنى أنه قاتل، و(زغلول) بمعنى أنه سيكبر ويصبح بالغاً راشداً. استعارة الأطباء هذه النباتية والحيوانية هي التي تحدث تطوراً وانتقالاً إلى الإيدز. إنني لا أقول إن الاستعارة تخلق الفكرة التحليلية، لكنني أجادل أنها تقرها. إنها تدعم الدليل السريري الذي لا يزال غير مثبتٍ ولكن يمكن إثباته. ببساطة شديدة، من المبكر أن نستنتج فيما يتعلق بمرضٍ اكتشف فقط قبل سبع سنوات أن هذا المرض سوف يؤدي دائماً إلى الموت، أو أن نقول إن كل شخص لديه ما يُعَرّف أنه إيدز سيموت به. (كما تأمل بعض الكتاب الذين يكتبون عن الطب، أن معدلات الموت المرعبة يمكن أنها سجلت الوفيات السريعة الأولى لأولئك الذين كانوا معرضين للفايروس -بسبب تأهلهم لنقص المناعة، بسبب النزعة الجينية الموروثة، من بين عوامل ممكنة أخرى- وليس بسبب هجوم المرض القاتل). وإن بناء المرض على أنه مقسم إلى مراحل متميزة، كان الطريقة الضرورية لتطبيق استعارة (قاسي العود). ولكن هذا البناء أو التركيب للمرض أضعف فكرة حتمية القتل (إن المرض قاتل) المقترحة للاستعارة. وبالنسبة للذين يريدون بوعيٍ وإدراك وقاية رهاناتهم المتعلقة حول كيف سيثبت المرض أنه قاتل يمكنهم أن يستعملوا التصنيف الثلاثي - مرض الـ (إتش آي في)، ومرض المركب المتصل بالإيدز (أي آر سي)، وإيدز. وذلك لقبول واحدةٍ من إمكانيتين أو كليهما معاً: الأقل كارثيةً من الأخرى، وهي أن ليس كل واحدٍ مصاب بالمرض سيتقدم و(يتخرج) من الـ (إتش آي في)، والثانية وهي أن كل مصاب سوف يموت.

قاسي العود). هذه المجموعة من الإشارات والأعراض فيما يتعلق بالإصابة بـ (إتش آي في) سُمِيت بمركب الإيدز (أي آر سي). ثم يتبع ذلك النسبة المئوية الإجبارية. (يُقَدَّرُ أن 25% تقريباً من المرضى بالـ (أي آر سي) يكتسبون المرض قاسي العود خلال ثلاث سنوات). من (مبادئ الطب الداخلي) لِـ«هاريسون»، الطبقة 11 (1987)، ص 1394.

إن القراءة الأكثر كارثيةً للدليل الذي طغى على النقاش المتعلق بالمرض، هو الخلط بين تسمية المخبريين الاختصاصيين للمرض وبين تسمية الأطباء الباحثين. لذلك فاعتماد وصف وتسمية الأطباء هي الأدق بغض النظر عن استخدام مفهوم «الاكرونيمز» من قبل الباحثين؛ لأن تسمية المخبريين ليست إلا إعادة تأكيد ضحلة. والاقتراحات الحديثة لإعادة التسمية -مثلاً تقسيم الفئة (أي آر سي) إلى فترات- لا تتحدى القول إن المرض يمر بمراحل، ولكنها تضع ضغطاً إضافياً على استمرارية مسار المرض. وينظر إلى ‹المرض قاسي العود› على أنه حتمي أكثر الآن، الشيء الذي يقوي القدرية الموجودة سلفاً[1].

عرف أول مرضٍ كبير أنه مجموعة الأحرف الأولى من كلمات التسمية، الحالة المسماة إيدز، الذي لا يملك أية حدود طبيعية. إنه مرض هويته مصممة لأغراض التحقيق والبحث وبتسميةٍ وملاحظة ومراقبة بيروقراطيات (مجموعات من الموظفين) طبية وغير طبية في المشهد. ومن هنا تأتي المساواة غير المدركة لنفسها في الكتاب الطبي بين ماهو سريري مع ما يتعلق بالملاحظة والمراقبة، كفكرتين مشتقتين

1- لقد اقترحت اللجنة الرئاسية للإيدز لعام 1988 ‹عدم التأكيد على استعمال عبارة (أي آر سي) لأنها تميل لأن تحجب المظاهر المهددة للحياة لهذه المرحلة من المرض›. هناك بعض الضغط لإسقاط عبارة إيدز، أيضاً. وإن تقرير اللجنة الرئاسية استعمل الأكرونيم (إتش آي في) ليعبر عن الإيدز، كجزءٍ من الانتقال الموصى به من ‹ملاحظة المرض› إلى ‹ملاحظة الإصابة›. ومن جديد، فإن أحد الأسباب المقدمة هو أن الاصطلاحات الحالية تخفي الخطورة الحقيقية للتهديد. (هذا التركيز المستمر منذ زمنٍ على المظاهر السريرية للإيدز وألا تكون على كل مراحل الإصابة بـ(إتش آي في) [أعني من الإصابة الأولية حتى تحول مصل الدم إلى مرحلة الجسم المضاد الموجب التي لا تظهر الأعراض فيها، أي إلى الإيدز قاسي العود] - هذا الانتقال كان له حتى الآن تأثير غير مقصود في تضليل الناس بشأن مدى انتشار المرض بينهم...›) ويبدو من المحتمل أن هذا المرض سوف تُعاد تسميته. هذا التغير في التسمية ستبرر بشكلٍ رسمي سياسة ضم المصابين الذين لا تظهر عليهم أعراض هذا المرض الى قائمة المصابين به.

من نماذج مختلفة تماماً للفهم. (إيدز هو ما يحقق أن الشيء المشار إليه هو(إما تعريف مقاييس الملاحظة والمراقبة) أو (المقاييس السريرية): التي هي الإصابة بالـ(إتش آي في)، إضافة إلى مرضٍ آخر أو أكثر موجودة على قائمة أو سجل الموظف الإداري الرئيس المسؤول عن تعريف المرض في الولايات المتحدة الأمريكية، في المراكز الفيدرالية للسيطرة على المرض). هذا التعريف المشروط أو المتعاقد عليه بشكلٍ تام مع الاستعارة المتعلقة به للمرض البالغ سن الرشد، يؤثر قطعاً على فهم المرض.

من البداية اعتمد بناء المرض على أفكار كانت تفصل مجموعةً من الناس عن أخرى -المرضى عن المتعافين، والمصابين بالـ(أي آر سي) عن المصابين بالإيدز، تفصلهم وتفصلنا - بينما توحي بالانتهاء القريب لمثل هذه التمييزات أو التباينات. وبدت التنبؤات دائماً قدريةً. وهكذا بدت النقاشات حول الإيدز من قبل المختصين وموظفي الصحة العامة تمريناً على إدارة الرأي العام، وذلك لإخماد الأخبار المغيظة على جرعات في عدة خطوات. وتشير التقديرات للنسبة المئوية المتوقعة للذين يبدون أعراضاً إلى أنهم سيصابون بالإيدز خلال خمس سنوات، التي يمكن أن تكون منخفضةً كثيراً - عندما كتبت هذا كان الرقم 30 إلى 35%. هذه التقديرات يتبعها التأكيد أن (معظم)، ثم يتبعها (من المحتمل أن)، كل أولئك المصابين سوف يمرضون أخيراً. الرقم الدقيق إذن هو ليس نسبة الناس المحتمل أن يُصابوا بالإيدز في حدود وقتٍ قصيرٍ نسبياً، ولكن أقصى فترة يمكن أن تمتد بين الإصابة بالـ(إتش آي في) (الذي يُوصَف أنه مدى الحياة ولا يمكن علاجه) وبين ظهور الأعراض الأولى. ومع تراكم السنين التي يُلاحق المرض فيها بالعلاج، كما تتراكم السنوات بين نقل المرض والإصابة به، التي تُقَدَّرُ الآن بسبع سنوات في الوباء، يستمر المرض بين عشر سنوات إلى خمس عشرة سنةً. هذا الرقم، الذي يُفتَرَضُ

أن يُرَاجَعَ صعوداً، يعمل الكثير ليحافظ على تعريف الإيدز كمرضٍ قاتل لا يمكن علاجه.

إن النتيجة الواضحة للاعتقاد أن كل أولئك الذين(يخفون) الفايروس سوف يمرضون أخيراً بهذا المرض، هي أن أولئك الذين نتيجة فحصهم موجبة يُعدون مرضى بالإيدز، وهم في الحقيقة لم ينقلوه بعد. إنها مسألة وقت مثل أي حكمٍ بالإعدام. والأقل وضوحاً من هذا هو أن مثل أولئك الناس يُعدون مصابين غالباً. نتيجة الفحص الموجبة لمرض (إتش آي في) (الذي يعني عادةً أن الشخص قد فُحِص، ليس لاكتشاف فايروس المرض، بل لاكتشاف وجود جسيمات مضادة للفايروس). عدت نتيجة الفحص الموجبة تلك دليلاً على أن الشخص مريض بالفعل. كلمة مصاب تعني مريض، من هذه النقطة إلى الأمام (نَقَلَ العدوى ولكنه ليس مريضاًحتى الآن)، وهذه العبارة القيِّمة جداً للطب السريري (يحتفظ الجسم أويخبئ عدة إصابات)، أُزيحت ليحل محلها أفكار حول الطب الحيوي التي مهما كان تبريرها العلمي، تَرقى إلى إحياء منطق التدنيس المضاد للعلم، وتجعل فكرة (مصاب ولكنه في صحةٍ جيدة) فكرةً متناقضةً جداً أن يكون الشخص مريضاً. بهذا المعنى الجديد يمكن أن تكون له نتائج عملية عديدة. يخسر الناس وظائفهم عندما يُعرَفُ أنهم (إتش آي في) إيجابي (مع العلم أنه ليس قانونياً في الولايات المتحدة أن تطرد شخصاًمن عمله لذلك السبب)، والإغراء الذي يدفع نحو إخفاء نتيجة الفحص الموجبة يجب أن يكون كبيراً. والتبعات التي تحصل بعد اكتشاف فحص الـ(إتش آي في) الموجب هي تبعات عقابيةً أكثر لتلك المجموعات السكانية المنتقاة -سيكون هناك مجموعات أكثر- تقوم الحكومة بفحصها إجبارياً. وقد أعلنت وزارة الدفاع في الولايات المتحدة الأمريكية أن العسكريين الذين فحصهم للـ(إتش آي في) موجبة يتم نقلهم حالياً من(الوظائف الحسَّاسة والتي تسبب توتراً)، بسبب وجود دليل على أن مجرد نقل الفايروس، وفي

غياب أية أعراضٍ أخرى، يُحدِثُ تغيراتٍ دقيقة وخبيثة في القدرات العقلية في أقليةٍ مهمةٍ من حاملي الفايروس. (الدليل الذي استُشهِدَ به: درجات أخفض في اختباراتٍ عصبية معينة أُجريت لبعض الذين نتيجة فحصهم للـ (إتش آي في) كانت موجبةً، التي يمكن أن تؤشر إلى عطبٍ عقلي كان سببه التعرض إلى الفايروس. مع العلم أن معظم الأطباء يعتقدون أن هذا غير محتمل، أو أنه يمكن أن يُسَبِبَ هذا العطب -كما اعتُرِفَ بهذا رسمياً تحت المساءلة- (الغضب، والاكتئاب، ورعب الناس الذين عَرِفوا للتو أنهم (إتش آي في) موجب). وطبعاً النتيجة الموجبة للاختبار تجعل الشخص الآن غير مؤهلٍ للهجرة إلى أي مكان.

في كل وباءٍ سابق ذي طبيعةٍ معدية، يكون الوباء معادلاً لعدد الحالات المجدولة أي المسجلة. يُعد هذا الوباء الآن أنه يتألف من ذلك الرقم، إضافة إلى وجود عددٍ أكبر بكثير من الناس الذين في صحة جيدة كما يبدو (ظاهرياً أصحاء، لكن المرض مقدر عليهم). وتجرى الحسابات عدداً من المرات ثم تعاد وتعاد، ويتعاظم الضغط للتعرف على هؤلاء الناس، ووضع إشارةٍ عند أسمائهم. وبأحدث اختباراتِ بيولوجية طبية، من الممكن خلق طبقةٍ جديدةٍ من المنبوذين مدى الحياة، الذين هم مرضى المستقبل. لكن نتيجة هذا التوسع الجذري في مفهوم المرض الذي أوجده انتصار الفحص الطبي الحديث تبدو أيضاً رجوعاً إلى الماضي، قبل فترة الانتصار الطبي، عندما كانت الأمراض لا حصر لها وغامضةً، وعندما كان التقدم من حالة [المريض في خطرٍ شديد] إلى حالة [المريض يموت] شيئاً عادياً وشائعاً (ليس «مثل الآن» فشلاً طبياً مصيره التصحيح). إن الإيدز الذي يُفهَمُ منه أن الناس مرضى قبل أن يمرضوا؛ والذي يَخلِقُ عدداً لا يُحصَى من الأمراض التي لها أعراض؛ والتي تُعالَجُ حتى الآن بالمُسَكِّنات؛ والتي تجلب للعديدين موتاً اجتماعياً يسبق الموت الفيزيائي. هذا الإيدز يُرجِعُ شيئاً ما مثل تجربة المرض ما

قبل الحديثة، كالموصوفة في «ديفوشينز» «دون». حيث «كل شيء يفسد مَلَكَةً [من الملكات التي يهبها الله للإنسان] ووظيفتها هو مرض»، يبدأ عندما نكون مبتلين سلفاً، ومبتلين بأكثر من هذا بكثير، مبتلين بالغيرة والشك، وبالخوف من المرض، قبل أن نستطيع تسميتها مرضاً. لسنا متأكدين أننا مرضى؛ تسأل يدنا اليد الأخرى بجس النبض، وعيوننا تسأل بَولَنا، كيف نحن؟... نحن معذبون بالمرض، ولا نستطيع الانتظار حتى يأتينا العذاب... الذي تصل ذراعه [ذراع العذاب] الطويلة إلى كل جزء من جسمنا، ويجعل الدواء الحقيقي وهمياً «بانتظار الصدفة إن لم تكن عَرَضاً للمرض الأساسي، الذي هو عنيف جداً لدرجة أن الطبيب يجب أن يعالج ذلك المرض [الذي هو العذاب] قبل أن يعالج المرض نفسه»، والذي نتيجته هي التَهَتُّك والانغماس في الملذات:

> بما أن المرض هو أكبر شقاء، لذلك فإن أكبر شفاءٍ للمرض هو الشعور بالعزلة والوحشة. وعندما تمنعهم العدوى بالمرض من المجيء، مَن الذي يُعين؟؛ حتى الطبيب يخاف من المجيء... إن هذا نبذٌ ومقاطعةٌ للمريض...

في الطب ما قبل الحديث، يوصف المرض على أنه ما يُجَرّبُ وجدانياً، كعلاقةٍ بين الخارج والداخل: إحساس داخلي أو شيء ما يُلاحظ على سطح الجسم، بالنظر (أوأسفل الجسم، بالإصغاء، وبالجس أو اللمس)، الشيء الذي يؤكد عندما يُفتَحُ الداخل للنظر (في الجراحة، أو أخذ عينة ما). الطب الحديث -أي الفعّال- هو الذي يتميز بالأفكار الأكثر تعقيداً المتعلقة بماذا يجب أن يُلاحَظَ داخل الجسم: ليس فقط نتائج المرض (أعضاء معطوبة) ولكن سببه (العضويات الدقيقة) أيضاً، وتلاحظ بدراسة التركيب البنيوي للمرض.

في الفترة الأقدم، فترة التشخيصات الحرفية الماهرة، أن تُفحَص، أو

أنك فُحصتَ كان يُنتِجُ حكماً مباشراً، بسبب رغبة الطبيب في الكلام عن المرض. أما الآن، فالفحص يعني الاختبارات، [وهكذا يقلُ باستمرار اعتماد الطبيب على الفحص السريري نتيجة مساعدة الأجهزة، أو بالأحرى الأجهزة قد حلت محل الفحص السريري]. وبعد الفحص هناك فترة من الزمن يمكن أن تستمر إلى أسابيع، مع الأخذ بعين الاعتبار مسألة الفحص المهني أو الحرفي الكفء: وهذه الفترة هي تأخير مؤلم لأولئك الذين ينتظرون الحكم بالموت أو البراءة. العديد من هؤلاء الناس يتذمرون من الفحص، بسبب الخوف من الحكم الذي يعني وضعهم في قائمةٍ يمكن أن تسبب لهم التمييز ضدهم في المستقبل أو الأسوأ بسبب الفكرة القدرية (ما هو الشيء الجيد لي الذي سينتج عن هذا الفحص؟). إن نفع الفحص الذاتي من أجل الاكتشاف المبكر لبعض السرطانات الشائعة، هو أن احتمال وجود القاتل منها هو احتمال ضعيف إذا عُولجت قبل أن تصبح متقدمةً، وهذه المنفعة مفهومة الآن. وإن الاكتشاف المبكر للمرض الذي يُعد أنه لا يمكن أن يُعالَجُ لا يمكن أن يبدو ذا مزايا جيدة أو حسنات.

ويُعد الإيدز من الأمراض الأخرى التي تجلب الشعور بالعار، وهو سر غالباً، ولكن ليس عن المريض. كان تشخيص السرطان غالباً يُخفى عن المرضى من قبل أسرهم. وكان المرضى أنفسهم يخفون هذا التشخيص عن أسرهم. وكما هو الحال بالنسبة للأمراض الخطيرة الأخرى المعتبرة أكثر من مجرد أمراض، فإن العديد من مرضى الإيدز يُجَرّون إلى علاجٍ لكل الجسم وليس لعلاجٍ خاصٍ بمنطقة المرض، الشيء الذي يُعتَقَدُ أنه إما غير فعّالٍ أو خطيرٍ جداً. (الحط من قدر الطب الفعّال والعلمي عند تقديم العلاج الذي هو علاج لمنطقة المرض بشكلٍ خاص، والذي يمكن أن يكون علاجاً ساماً، هو سوء حزرٍ متكررٍ للرأي الذي يُعد نفسه متنوراً). هذا الاختيار الكارثي لا يزال يُعمَلُ به من قبل بعض الناس المصابين بالسرطان، المرض الذي يمكن أن يعالج بالجراحة والأدوية.

وهناك خليط مُتَنَبأ به من الخرافات والتسليم المؤدي إلى أن بعض الناس المصابين بالإيدز يرفضون العلاج الكيميائي المضاد للفايروسات، الذي أثبت فعاليته، حتى في حالة غياب العلاج، (وذلك في تخفيض سرعة تقدم المرض وتجنيب المريض الإصابة ببعض الأمراض الدارجة). وبدلاً من ذلك، أثبت فعاليته في جعل المرضى يبحثون عن كيفية معالجة أنفسهم، ويتم ذلك غالباً تحت رعاية (زعيم روحي للطب البديل). ولكن إخضاع الجسم الذي أنحله المرض إلى تطهير النظام الغذائي الماكرو بيولوجي يساعد في علاج الإيدز، كما يساعد الذي ينزف دماً، العلاجُ الطبي الكلي للاختيار في زمن «دون».

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد دراسة اشتقاق الكلمات وأصولها، أقول: إن كلمة مريض تعني مُعاني أو مُقاسي. ليست المعاناة كمعاناة هي التي تُخشَى بعمق، ولكن ما يُخشى هو الألم الذي يتعاظم ويزداد. أن يكون المرض ليس فقط ملحمة معاناة، بل أيضاً فرصة نوع ما من التصعيد أو التسامي النفسي، هو شيء مؤكدٌ من قبل الأدب العاطفي، وبشكل مقنع أكثر، أومن قبل تاريخ الوقائع المقدم من قبل كتاب أطباء. تبدو بعض الأمراض قابلة أكثر من أمراض أخرى لمثل هذا التفكير. يستعمل «إوليفر ساكس» المرض العصبي الكارثي كمادةٍ لصورة للمعاناة والتسامي الذاتي، وللحط من القدر والتمجيد. ويُعد السير «توماس براون»، رائده العظيم، استعمل السل لغرضٍ مشابه، ليتأمل المرض بشكل عام، ففي‹رسالةٍ إلى صديق، بمناسبة موت صديقه المقرب› (1657)، معطياً معنىً ما قبل رومانتيكي لبعض الأمثلة من السل: إنه الشكل المميز للمرض (‹نظراً إلى أن هذا المرض مرض طويل›) والحالة المميزة للموت (‹موته الهادئ›). في الأدب المتعلق بالميتات الهادئة والسهلة في الحقيقة، كان الموت بالسل دائماً صعباً ومؤلماً جداً، لقد كان جزءاً من الميثيولوجيا المرتبطة بمعظم الأمراض التي تُعد عاراً أومُحِطّة للقدر.

بالمقارنة مع الموت الناعم الذي يُعزى للسل، فإن الإيدز كالسرطان، يقود إلى موتٍ صعب. والأمراض الموصوفة ببلاغةٍ مجازية التي تُكثِرُ التردد على الخيال الجمعي هي جميعها ميتات صعبة أو صُوِّرت كذلك.

وهذا بالطبع ليس كافياً بحد ذاته لإحداث الرعب، حتى إنه ليس ضرورياً، كما هو الحال في الجذام، الذي ربما يكون أكثر الأمراض التي تجلب العار لصاحبها، مع العلم أنه من النادر أن يكون قاتلاً، وهو لا ينتقل إلا بصعوبةٍ كبيرة. إن مرض السرطان مرعب أكثر من مرض القلب، مع العلم أن احتمال موت مريض القلب بعد بضع سنواتٍ من المرض أكبر من احتمال موت المريض بالسرطان. والنوبة القلبية هي حدث ولكن لا تعطي الشخص الذي يُصابُ بها هويةً، محوِّلةً إياه إلى واحدٍ من أولئك الذين يُصابون بالسرطان. مرض القلب لا يغير شكل المريض باستثناء تحويله إلى حالةٍ أفضل: بتحفيزٍ من الخوف يمتلك مريض القلب عاداتٍ جيدة كممارسة الرياضة والنظام الغذائي الجديد، ويبدأ حياةً أكثر حذراً وفطنةً وصحةً من حياته قبل العلاج. ويُعتَقَدُ أنها غالباً تؤدي إلى أو تُنتِجُ موتاً سهلاً.

إن أكثر الأمراض رعباً هي التي يُفهَمُ أنها ليست فقط قاتلةً، بل تلك التي هي سالبة لإنسانية المريض، حرفياً هكذا. الذي كان يُعَبَّرُ عنه في الهلع المرضي من الكَلَب في فرنسا في القرن التاسع عشر، بكل حالاته الكاذبة المتعلقة بالتلوث من قبل بعض الحيوانات التي حُوِّلت من جديد إلى (متوحشة) وحتى إلى الكَلَب التلقائي (الحالات الفعلية للكلب، (لاراج))، والتي كانت نادرةً جداً، كانت هذه الحالات وَهماً حَوّلَ الناس إلى حيواناتٍ أصيبت بالجنون، وأطلق نزعاتٍ جنسيةً وتكفيريةً لا تمكن السيطرة عليها، وكانت نزعاتٍ قاتلةً، إلى أن اكتشف «باستير» علاجاً لها عام 1858. وبينما قتل الكوليرا عدداً أقل من الناس في أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر مما قتل الجدري، كان مرعباً أكثر، بسبب المفاجأة التي يضرب بها وعدم وقار الأعراض أوهيبتها. كانت الأعراض إسهالاً مداهماً وإقياءً، كانت نتيجته منذرةًبخطر التفسخ بعد الموت. وبعد عدة ساعات قلص نقص السوائل جسم المريض إلى كاريكاتيرٍ ذابلٍ لجسمه أو جسمها قبل المرض. وتحول لون البشرة إلى أسودٍ تشوبه الزرقة (الرعب

الطاغي والمقعد للمريض لا زال يُعَبَّرُ عنه في الفرنسية بِـ «أزرق قليلاً»)، وأصبح الجسم بارداً: وتلا ذلك الموت في اليوم نفسه أو بعد ذلك بقليل.

يمكن أن تكون تأثيرات شلل الأطفال مرعبةً -لقد جفَّف الجسم- لكنه لم يترك أثراً في الجلد ولا أنتن اللحم: لم يكن مقزِّزاً أو مثيراً للاشمئزاز. والأكثر من هذا، أن الشلل أثر فقط على الجسم، على الرغم من أنه يبدو تدميراً كافياً، وليس على الوجه. ويعود أكثر رد الفعل المناسب وغير المجازي على شلل الأطفال إلى حالة الوجه المحظوظ، وهو الذي يحدد تقييمنا للجمال الشكلي والعطب الفيزيائي. كل الفضح الديكارتي للفصل بين العقل والجسم في الفلسفة الحديثة والعلم الحديث لم تقلل ذرةً واحدةً من اعتقاد هذه الثقافة بالفصل بين الوجه والجسم، الذي يؤثر على كل مظهر من مظاهر آداب السلوك الاجتماعي العام والموديلات والاستظراف الجنسي والحس الجمالي، وفي الحقيقة، كل أفكارنا عن التوافق الاجتماعي العام. هذا الفصل هو المسألة الرئيسة للتقاليد الأيقونية الرئيسة للثقافة الأوروبية، كتصوير التضحية المسيحية، بكل انفصالها المذهل بين ما هو مُعَبَّرٌ عنه على الوجه وبين ما يحدث للجسم. تلك الصور التي لا حصر لها للقديس «سيباستيان» والقديسة «آغاثا» والقديس «لورانس» (ولكن ليس للمسيح نفسه)، والوجه الذي يشير إلى التفوق والترفع عن الأشياء الفظيعة التي كانت بلوى الناس هناك. وفي الأسفل تدمير الجسم. وفي الأعلى يوجد شخص مُجَسَّدٌ في وجهه، ينظر إلى البعيد وعادةً إلى الأعلى، ولا يظهر على وجهه ألم أو خوف: هو ينظر سلفاً إلى مكانٍ ما (فقط المسيح، ابن الإنسان وابن الله، يقاسي في وجهه: له عاطفته). وفكرتنا عن الشخص، عن الوقار، تعتمد على فصل الوجه عن الجسد[1]، على افتراض أن الوجه يمكن أن

1- لا يمكن أن يكون هناك جدال حقيقي ضد أُرسُتقراطية الوجه، التي هي مزحة غايتها التعريف فقط. والتسلط المقلق على العقل نتيجة فكرة الادعاء بوجود فصل بين

يكون مستثنى، أو أن الوجه أعفى نفسه، من الذي يحدث للجسد. ومهما كانت قاتلةً، فإن الأمراض مثل الأزمات القلبية والإنفلونزا التي لا تعطل أو تدمر الوجه لا تثير الرعب الأعمق أبداً. لا يُعد كل تغير في الوجه مُقَزِّزاً أو معيباً. وأكثر الناس مكروهين يبدون كالتغيرات الافتراضية الوراثية إلى الحيوانية (‹وجه الأسد› المعطى للمجذوم) أو كنوع من العفن (كما في السيفيلس). إن إبراز أهمية بعض الأحكام الأخلاقية الملصقة بالمرض هي أحكام جمالية عن الجميل والبشع، والنظيف والوسخ، والمألوف وغير المألوف أو الغريب والخارق للطبيعة. (وبدقةٍ أكبر، هذه أحكام تتولد قبل المرحلة التي تنقسم فيها التصنيفات الجمالية والأخلاقية، وبالتالي، تبدو أنها متعارضة)، وماله أهمية أكبر من مقدار التشويه، هو أن هذه الأحكام تعكس أهمية التغيرات المستمرة نحو انحلال الشخص.

والجدري أيضاً مرض يُشَوِّهُ الوجه بحفره عليه؛ لكن حُفَرَ الجدري لا تصبح أسوأ مما هي. إنها بالفعل وصمات الذي ظل حياً. العلامات على وجه المجذوم والمصاب بالسيفيلس والمصاب بالإيدز هي علامات تغيرٍ مستمر وتغير بنية؛ شيء عضوي.

هناك تشخيصات شريرة ومشؤومة للشيء العضوي الملوث في القرن التاسع عشر لوصف المرض وسببه. وإن الأمراض المحددة، كالكوليرا، وحالة أن يكون الشخص عرضةً للمرض، اعتُقِد أنها بسبب الجو ‹المصاب أو الملَوَّث› (أو الفاسد والكريه والشنيع)، والانبعاثات المُوَلَّدَة تلقائياً من

الوجه والجسم هو استحواذٌ مركزي على العقل في ‹فيرديديوركي› لِـ «غومبرو فيتج» التي تستمر في تكرار اقتراح أن الجسم هو مجموعة أجزاء أو أعضاء، لكل منها حياته المستقلة، والوجه هو عبارة عن جزء أو عضو آخر من الجسم. وجهة النظر التي يَشرَعُ «غومبرو فيتج» بهجائه الرابيلي (نسبةً إلى رابيليه)، انطلاقاً منها، للمُقَضَّمين [مثل أوراق الأشجار المُقَضَّمَة] وللطبقة الاجتماعية -وجهة النظر هذه ما هي إلا رجعةٌ مفروضةٌ بالقوة ومخزية إلى الطفولة- وليست إذلالاً مفروضاً بالقوة يقوم به المرض. أعني أن رواية «غومبروفيتج» هي ملهاة، وليست مأساة.

شيء ما قَذِر. هذا الجو الحامل للمرض الذي يُعرَفُ (أولاً عن طريق رائحته الكريهة) كمادةٍ عضويةٍ متفسخةٍ، أصبح معروفاًبالقذارة المتعلقة بالمدينة وليست المتعلقة بالريف، وبالزبالة، وليس، بالقرب من المقابر. لقد هُزِمت هذه الادعاءات أخيراً عن طريق اكتشافات «باستير» و«كوخ» للدور الذي تقوم به عضويات خاصة متناهية الصغر. توقف أهل العلم عام 1880 عن الاعتقاد أن هناك أبخرة متعفنة ومنتنة تنبعث من البحيرات، وتسبب الكثير من الأمراض، وتوقف الاعتقاد بتوالدها التلقائي أيضاً. (في عام 1883، أي بعد سنةٍ من اكتشاف كوخ لعصية السل، اكتشف عصية الملاريا التي تُصيبُ بالملاريا عن طريق الماء). ولكن حتى بعد هزيمة نظرية الأبخرة عن طريق نظرية الجراثيم التي تسبب العدوى، استمرت نظرية الأبخرة في الوجود، مهيضة الجناح بسبب فقدانها لمركزها كمسبب من الطراز الأول للمرض، الذي قلل من شأنها، ومن حيث ما كان يُعتَقَدُ أنها، مع عنصرٍمساعد غامض آخر، كانت تساعد على تفسير الكثير من الأمراض. إن الاعتقاد أن العيش في مدنٍ مظلمةٍ ووسخة يسبب (أو على الأقل ينتج القابلية للسل) هو نسخة من نظرية الأبخرة، وقد استمرت في نيل التصديق حتى القرن العشرين، لمدة طويلةٍ بعد اكتشاف سبب السل. ويبدو أن شيئاً ما مثل الذي تزود الأبخرة به، وهو تعميم الإصابة لتصبح جواً عاماً، هو من المتطلبات لتحويل المرض إلى شيءٍ متعلقٍ بالأخلاق.

وقد أوحت نظرية الأبخرة على أثر رفضها من قبل العلماء، بعملٍ فني عظيمٍ واحدٍ على الأقل هو الأوبرا (ديبَسي) التي صُنِعَت من مسرحية (بيلياس وميليساندي) لِـ «ماتير لينك»، وهي نوع من تريستان وإسولدي التي أُعيد وضعها في عالم الأبخرة. من الصحيح القول: إن بيلياس وميليساندي، التي يعترف فيها كل واحدٍ بمشاعر الضعف والضياع، وأن بعض الناس يمرض مسبقاً. وبتلك القلعة القديمة والمتداعية التي لا تسمح بدخول أي ضوء، وحيث الأرض مليئة بالرعب تحت الأرضي

والرطوبة أوالأعماق المائية التي يمكن أن يسقط الشخص فيها. إن كل الأشياء مترابطة العلاقة المتعلقة بالأبخرة عدا النتانة، تبدو لنا صورةً لمرضٍ نفسي، هو العصاب أوالاضطراب العصبي الوظيفي. لأنه عندما أُخرِجت فئة الأمراض النوعية من التفكير الطبي للقرن التاسع عشر، عن طريق الفهم الجديد لأسباب المرض، هاجر هذا الفهم إلى منطقة علم النفس الآخذ في التوسع. وأصبح الشخص المريض فيزيائياً شخصاً مريضاً بالنَهَك [الإنهاك] العصبي أو أصبح شخصاً عصابياً. وعادت فكرة البيئة المُلَوَّثة عضوياً، والمُسَبِّبة للمرض موضوعاًللظهور في مفهوم البيئة السيكولوجية المُلَوَّثة التي أنتجت الميل إلى المرض العقلي.

لم يبقَ مفهوم أو لم تبقَ فكرة البيئة السيكولوجية الملوثة محصورةً في منطقة علم النفس، بعد ظهور مصداقيته الجديدة كعلم وعادت لتؤثر على الطب. والرأي المُتَبَنّى على نطاقٍ واسع أن العديد أو حتى معظم الأمراض ليست بالفعل فيزيائيةً، بل هي عقلية (وبشكلٍ محافظٍ أكثر، نفسجسدية [نفسية جسدية في الوقت نفسه]). وقد أدام هذا الرأي بعمر شكل نظرية الأبخرة - وبفائضها من السببية، ومن المعنى في نسخةٍ جديدة كانت ناجحةً إلى حدٍ كبير في القرن العشرين. إن نظرية أن الأبخرة السيكولوجية (الاكتئاب، والذعر) يمكن أن تسبب المرض الفيزيائي [الجسمي] قد جُرِّبَت بدرجاتٍ متفاوتةٍ من الاحترام على عدة أمراضٍ بما فيها السرطان. وكانت هناك طريقة واحدة لئلا يُحَوَّل الإيدز إلى مرضٍ نفسي، حيث تتداخل استعارات هذا المرض المجازية مع السرطان وتتشابك، على الرغم من اختلافه الكبير عنه، والمرض المشبع بالتقييمات الحديثة المميزة للطاقة وللكارثة كالجذام والسيفيلس، والمُجَرَّبُ على أنه شكل من التَأَسُل [الرجوع إلى صفات الأسلاف التي ابتعدوا عنها] إلى الأمراض ما قبل الحديثة مثل الجذام والسيفيلس، ولهذا لم يُغوَ أو يُغرَ أحدٌ، حتى الآن على الأقل، كي يحوِّلَه إلى مرضٍ نفسي.

الجزء الخامس

‹الوباء› هو الاستعارة المجازية الرئيسة التي يُفهَمُ الإيدز بها. ولأن الإيدز، التعريف الخاطئ الشعبي للسرطان ككارثة أو مصيبة، وحتى كوباء، يبدو أنه يتراجع: إن الإيدز قد جعل السرطان تافهاً ومبتذلاً.

الوباء، من الكلمة اللاتينية ‹بلاغا› (ضربة، جرح)، كان يُستَعمَلُ مجازياً كأعلى مثالٍ للنكبة أو الكارثة أو المصيبة الجماعية وللشر الجماعي والعقوبة الجماعية. وقد سَمَّى «بروكوبيوس»، في رائعته عن الافتراء لتشويه السمعة، ‹التاريخ السري› الإمبراطور «جوستينيان» أسوأ من الوباء (‹البعض نجوا›) – سمّاه اسماً عاماً لعدة أمراضٍ مخيفة، مع أن المرض الذي أُلصِقَت به الكلمة بشكلٍ دائم أنتج أكثر الأوبئة فتكاً من الأوبئة المسجلة، حيث إنه جُرِّبَ على أنه يذبح دون رحمة، فليس ضرورياً لمرض ما أن يُعد كالوباء. إن الجذام، الذي هو قاتل نادر هذه الأيام، لم يكن قاتلاً إلى درجة كبيرةٍ عندما كان في أعظم قوته الكارثية، بين نحو 1050 و1350. وقد عُد السيفيلس وباءً. يتكلم «بليكس» عن ‹لعنة المومس الشابة› التي تُتلِفُ بالأوبئة نعش الزواج كما تتلف ‹الآفة›، ليس لأنها غالباً ما تَقتُل، بل لأن ذلك يجلب العار، ويضعف القوة، ويثير الاشمئزاز.

يُنظر إلى الأوبئة عادةً على أنها كوارث. وإصابة الجماهير الواسعة بالمرض هي بلوى يبتلي بها الناس. إن اعتبار المرض عقوبةً هو أقدم

فكرة لأسباب المرض، وهي فكرة على النقيض تماماً من العناية بالمرضى التي تستحق الاسم النبيل الذي هو الطب. لقد أعلن «أبيقراط» أن أسباب المرض التي يُزعَمُ أنها عقوبة أو عقابٌ للمرضى على شيءٍ سيءٍ أو خطيئة اقترفوها، ليست واردةً على الإطلاق. وقد كتب عدة أطروحاتٍ عن الأوبئة، واستبعد فكرة ‹غضب الله› كمسبب لها، بما فيها وباء الطاعون. لكن الأمراض التي فُسِّرت في العالم القديم كعقوبات، كالوباء في ‹أوديب›، لم يُعتَقَدُ أنها معيبة، كم أصبح الجذام والسيفيلس فيما بعد. كانت الأمراض التي طالما اكتسبت معنى، كوارث أو مصائب جماعيةً، وعبارة عن أحكامٍ على مجموع الناس. الأضرار كالجروح والإعاقات فقط، وليس الأمراض، هي التي كانت تُعد مُستَحقَّةً بشكلٍ فردي [أي يستحقها فقط الشخص الذي أصابته]. وهناك شيء مشابه في أدب العالم القديم للمعنى الذي كان يُعتَقَدُ عن المرض في العصور الحديثة، أنه معيب ويقتضي العزل، عند «فيلوكتيتيز» وجرحه المُنتِن.

الأمراض الأكثر إخافةً للبشر، تلك التي هي، ليست ببساطة قاتلةً فقط، بل تُغَيّر شكل الجسم إلى شيءٍ غريب كالجذام والسيفيلس والكوليرا والسرطان (في خيال الكثيرين). هي الأمراض التي تبدو مؤهلةً للرفع إلى مرتبة ‹الوباء›. كان الجذام والسيفيلس أول مرضين يوصفان باستمرار أنهما مقززان ويثيران الاشمئزاز. إن السيفيلس الذي كان في الأوصاف المبكرة له من قبل الأطباء في نهاية القرن الخامس عشر قد وَلَّدَ نسخةً من الاستعارات المجازية التي ازدهرت عند وصف الإيدز: هو مرضٌ، لم يكن مقززاً وعقوبةً أو قصاصاًلصاحبه فقط، بل كان أيضاً غازياً يستهدف جموع الناس. ومع العلم أن «إيراسموس»، أكثر المعلمين الأوروبيين تأثيراً في بواكير القرن السادس عشر، وصف السيفيلس أنه ‹لا شيء ولكنه نوع من الجذام› ثم (سماه عام 1529 ‹شيئاً أسوأ من الجذام›)، وقد فُهِمَ سلفاً أنه مرض مختلف، لأنه يُنقَلُ عن طريق ممارسة الجنس.

يتكلم «باراسيلسوس» في شرح الشاعر «دون» عن ‹ذلك المرض القذر والكريه والشرير والمعدي الذي غزا الجنس البشري في بضعة أماكن، ولأنه ازدهر فيها كلها، فقد ابتلى الله الناس به لمعاقبة الفُسق العام›. وقد استمر الاعتقاد أن السيفيلس كان عقاباً على اقتراف الشخص للفواحش، لوقتٍ طويل، حتى أصبح المرض يعالج بسهولة. ومع ذلك لم يتوقف عن اعتباره عقوبةً على الفحش المقتَرَف من قبل الجماعة، كما هو بالنسبة للإيدز الآن في البلدان الصناعية الغنية، مقارنة مع السرطان، الذي هو مفهوم بالطريقة الحديثة كمرضٍ يجلبه المريض على نفسه وهو مُعَبِّرٌ عن المريض، أي أنه يصيب الناس كأفراد، فإن الإيدز مفهوم بطريقة ما قبل العصور الحديثة، يجلبه الناس على أنفسهم كأفراد، وفي الوقت نفسه، كأعضاء من ‹مجموعة مخاطرة› أو مجازفة الفئة البيروقراطية التي تبدو حياديةً، والشيء الذي يُحيي الفكرة القديمة المتعلقة بمجموعة من الناس المدّنسين والملوثين والملطخين الذين أصدر المرض حكمه عليهم.

طبعاً، ليس كل كلام أو شرحٍ أو وصفٍ للوباء أو للأمراض التي تشبه الأوبئة هو عربة لنقل أمثلةٍ فظيعةٍ وشنيعةٍ وتعوزها الأصالة عن المرض والمرضى. وإن الجهد اللازم للتفكير النقدي والتاريخي بالمرض (وبالكوارث بشكلٍ عام) قد حاول أصحابه تجريبه خلال القرن الثامن عشر؛ لنقل من ‹صحيفة سنة الوباء (1722) لِـ«ديفو» إلى ‹المخطوبة› لِـ«أليساندرو مانزوني» (1827). إن أدب «ديفو» التاريخي الهادف إلى أن يكون كلاماً شاهداًعلى وباء الطاعون في لندن عام 1665، لا يوَسِّعُ أي فهم للوباء كعقوبةٍ أو كجزء لاحق من النص، كتجربةٍ تغيِّر هذا الفهم. و«مانزوني» في وصفه في النص المتعلق بالوباء من خلال دوقية ميلان عام 1630، كان ملتزماً بصدق بتقديم رأيٍ دقيق أكثر وأقل اختزالاً أو تصغيراً من مصادره التاريخية. ولكن حتى وجود هاتين القصتين المعقدتين تقويان بعض الأفكار التبسيطية المتكررة عن الوباء. وإحدى صفات

النص المألوف عن الوباء: أن المرض يأتي من مكانٍ ما آخر. إن أسماء السيفيلس، عندما بدأ موجته الوبائية الكاسحة في أوروبا في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، هي مثل موضِّحٌ للحاجة إلى جعل المرض المُرَوِّع أجنبياً[1]. كان السيفيلس (فرنسياً) بالنسبة للإنكليز، و(الموربوس) ألمانياً للباريسيين، ومرض (نابولي) للفلورنسيين، والمرض (الصيني) لليابانيين.

ولكن الذي يمكن أن يبدو كنكتة عن حتمية الشوفينية [المغالاة في التعصب] يكشف حقيقةً أكثر أهميةٍ: هي أن هناك صلة بين تصور المرض وتصور التابعية الأجنبية. ربما هي في فكرة الخطأ نفسه، التي كانت في القديم ينطبق معناها لا علينا، بل على الأجانب. كما لاحظت «ميري دوغلاس» أن الشخص المُلَوِّث مخطئ دائماً. والعكس صحيح أيضاً: فشخص يُحكَمُ عليه بأنه مخطئ، هناك احتمال على الأقل، أن يكون مصدراً للتلوث.

إن المكان الأجنبي لأصل الأمراض المهمة، كالمكان الأصلي للتغيرات العنيفة والمتطرفة للطقس، وربما لا يكون أكثر بعداً من بلدٍ مجاور. المرض هو نوع من الغزو، وبالفعل يحمله الجنود غالباً. وإن كلام «مانزوني» عن وباء 1630 (الأجزاء من 31–37) يبدأ بالتالي:

> الوباء الذي خافته محكمة الصحة يمكن أن يدخل المقاطعات الميلانية مع القوات الألمانية التي دخلتها، كما هو معروف للجميع؛ ومن المعروف أيضاً أنها لم تتوقف هناك، بل تابعت غزو جزء واسع من إيطاليا، وإفراغه من سكانه.

1- كما لُوحِظَ في التقارير الأولى عن المرض: (هذا الداء الذي وصلنا من شعوب مختلفة والذي أحب أسماءً مختلفة)، كتب «جيوفاني دي فيغو» عام 1514: في عام 1495، أي بعد سنةٍ من بدء الوباء، أصدر الإمبراطور «ماكسيميليان» مرسوماً صرَّحَ فيه أن السيفيلس هو ابتلاء من الله بسبب خطايا الناس.

إن نظرية أن السيفيلس أتى حتى أبعد من بلدٍ مجاور، وأنه كان مرضاً جديداً في أوروبا، كما كان مرضاً من العالم الجديد قد أُرجع إلى العالم القديم من قبل بحارة «كولومبوس» الذين نقلوه من أمريكا، أصبحت التفسير المقبول لأصل السيفيلس في القرن السادس عشر الذي لا يزال مصدّقاً على نطاقٍ واسع. ومن الجدير بالذكر أن الكتاب الأوائل في الموضوعات الطبية لم يقبلوا النظرية المشكوك فيها، متكلماً عن مسألة ما إذا كان (المرض الفرنسي) تحت اسمٍ آخر شائعاً عند القدماء) قال إنه يؤمن بذلك بقوة.

وتبدأ أخبار «ديفو» عن وباء 1665 بشكلٍ مشابه، باضطرابٍ من التخمين المتردد بشكلٍ واضح عن الأصل الأجنبي لهذا المرض:

كان الوقت في بداية أيلول عام 1664، كنت مع بقية جيراني، سمعت من الناس أن المرض عاد ثانيةً إلى هولندا؛ لأنه كان عنيفاً جداً هناك، وخاصةً في أمستردام وروتردام، في سنة 1663، إلى أين؟ يقولون: لقد جُلِبَ، قال بعضهم: إلى إيطاليا. وقال آخرون: من الشرق، بين بعض البضائع التي جُلِبَت إلى الوطن بوساطة أسطول تركيا. وقال بعض آخر: جُلِبَ من كانديا [ربما كندا]؛ وآخرون قالوا: من قبرص. لم يكن مهماً من أين جُلِبَ؛ لكن وافق الجميع أنه أتى إلى هولندا ثانيةً.

إن وباء الطاعون الذي ظهر ثانيةً في لندن في عشرينيات القرن الثامن عشر وصل من مرسيليا، التي كانت المكان، الذي كان يُعتَقدُ أن الوباء يدخل منه إلى أوروبا الغربية، يَجلِبُه البحارة، ثم ينقله الجنود والتجار.

وفي القرن التاسع عشر كان الأصل الأجنبي عادةً دخيلاً أكثر، ووسيلة النقل أقل تخيلاً، وأصبح المرض نفسه رمزياً ومشهداً دائم التغير.

في نهاية رواية «الجريمة والعقاب»، لِـ«دويتوفيسكي»، يحلم راسكولنيكوف بالبلاء: «حلم أن كل العالم قد ابتلي بوباءٍ جديدٍ وغريب ومرعب أتى إلى أوروبا من أعماق آسيا». في بداية الجملة «إنه العالم كله»، الذي يتغير في نهاية الجملة إلى «أوروبا»، المبتلاة بزيارة قاتلة من آسيا. مثال دوستويفيسكي دون شك هو الكوليرا المسماة الكوليرا الآسيوية، والوباء الطويل في البنغال، الذي أصبح بسرعة وبقي تحت هذا الاسم، خلال معظم القرن التاسع عشر، المرض الوبائي على النطاق العالمي. إن جزءاً من فكرة أن أوروبـا هي وحدة ثقافية ذات امتياز، هو أن أوروبا مُستَعمَرَةٌمن قبل أمراض قاتلة قادمة من أمكنة أخرى. ويُزعَمُ أن أوروبا من حقها أن تكون خاليةً من المرض. (والأوروبيون لم يكونوا مكترثين بمدى الدمار الذي أحدثته الأمراض الفَتَّاكة التي جلبوها إلى العالم «البدائي»، الغريب جداً، كغزاةٍ ومستعمرين. فَكِّر بدمار الجدري والإنفلونزا والكوليرا للسكان الأصليين في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية وأستراليا). إن تماسك صلة الأصل الغريب والمرض المرعب هو أحد الأسباب التي جعلت الكوليرا، التي اجتاحت أوروبا في القرن التاسع عشر أربع مراتٍ، وحصدت أرواحاً أقل من المرة التي سبقت، استمرت في ذاكرة الأوروبيين أكثر من الجدري، الذي ازداد تدميره مع مرور القرن (مات بوباء الجدري في أوروبا نصف مليون

إنسان في سبعينيات القرن التاسع عشر) ولكنه لم يؤوَلُ على أنه شبه وبائي، وهو الجدري ذو الأصل غير الأوروبي.

لم تعد الأوبئة (مرسلةً)، كما كانت قديماً في عالم التوراة والإغريق، لأن مسألة الوسيط أصبحت غامضةً. وبدلاً من ذلك، تقوم الأوبئة (بزيارة) الشعوب. وتتكرر الزيارات، كما هو مسلم به في العنوان الفرعي لقصة «ديفو»، التي تشرح، أن ذلك عن (الذي حدث في لندن خلال الزيارة الأخيرة العظيمة عام 1665) حتى بالنسبة لغير الأوروبيين، يمكن أن يسَمَّى زيارة. لكن الزيارة (لهم) تُوصف على أنها مختلفةٌ عن الزيارة (لنا). ((أعتقد أن نصف الناس الذين يتكلمون عن(من هو الذي يمرض)، هم المعنيون بهذه الزيارة)). كتب الرَحَّالُ الإنكليزي «أليكساندر كنغليك»، عندما وصل إلى القاهرة أثناء اجتياح وباء الطاعون (الذي يُسَمَّى (الطاعون الشرقي)). (لكن الشرقيين لديهم قوة هادئة أو بأس هادئ أكثر من الأوروبيين أثناء البلاء من هذا النوع) [البلاء بالطاعون]. ويُلقي كتاب «كنغليك»، (إيوثن)، المعنون بعنوانٍ ثانوي، هو (آثار السفر التي جلبت إلى الوطن من الشرق) الضوء على العديد من المزاعم الأوروبية المتركزة على الذات عن الآخرين، بدءاً من الوهم القائل إن الشعوب الأقل عقلاً [أو ذات العقل الصغير] تتوقع الاستثناء من سوء الحظ أو من الكوارث كالأوبئة، لأن لها قدرات أقل من قدرات الشعوب الأخرى على الإحساس بهذه الكوارث.

وهكذا يُعتَقَدُ أن الآسيويين (أو الفقراء، أو السود، أو الأفارقة، أو المسلمين) لا يعانون ولا يحزنون مثل الأوروبيين (أو البيض). وحقيقة أن المرض له علاقة بالفقراء -الذين هم، من منظور الطبقات العليا ذات الامتيازات، غرباء أو أجانب في وسطهم- غالباً يُقَوِّي ربط المرض بالمكان الأجنبي أو الغريب جداً والبدائي.

وهكذا، بعد شرح النسخة الكلاسيكية للطاعون، يُعتَقَدُ أن الإيدز قد بدأ في «القارة السمراء»، ثم انتشر إلى هايتي، ثم إلى الولايات المتحدة ثم إلى أوروبا، ثم... من المفهوم كمرضٍ مداري: إنه بلوى أخرى مما يُسَمَّى العالم الثالث، حيث يعيش معظم سكان العالم، وسكان المناطق الاستوائية الحزينة. إن الأفارقة الذين يكتشفون أمثلةً لا تتغير مع الزمن في الكثير من التخمين عن الأصل الجغرافي للإيدز ليسوا مخطئين (وليسوا مخطئين في الاعتقاد أيضاً، أن تصوير أفريقيا كمهدٍ للإيدز يجب أن يغذي التحيز المضاد لأفريقيا في أوروبا وآسيا). والعلاقة السامية التي أُقيمت مع أفكارٍ متعلقةٍ بالماضي البدائي والفرضيات العديدة التي نُشرَت عن الانتقال الممكن من الحيوان (مرض القرود الخضراء، وحمى البط الأفريقي) لا يمكن إلا أن يُفَعِّلَ مجموعة معروفةً من الأمثلة التي لا تتغير عن الحيوانية والفسق أو الانحراف الجنسي والسود. لقد بدأ رد الفعل العكسي في زائير وبلدان أخرى في وسط أفريقيا، حيث يقتل الإيدز عشرات الآلاف، فالعديد من الأطباء والأكاديميين والصحفيين والموظفين والناس الآخرين المثقفين يعتقدون أن الفيروس أُرسِل إلى أفريقيا من الولايات المتحدة،، وأن هذا عمل من أعمال الحرب الباكتيريولوجية (التي كان هدفها تقليل معدل ولادات الأفارقة) الذي خرج عن نطاق السيطرة ورجع ليبلي مُرَوِّجيه، حيث تقول النسخة الأفريقية لهذا الاعتقاد عن أصل الفايروس أو مصدره إنه صُنِّعَ في مختبر جيش وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في ميريلاند، وأُرسِلَ من هناك إلى أفريقيا، وأُعيد إلى بلده الأصلي عن طريق المبعوثين الأمريكيين مثليي الجنس العائدين من أفريقيا إلى ميريلاند[1].

1- هذه الإشاعة يمكن أنها لم تولد مثلما زعمت حملة «التشويه» المتبناة من قبل ال كي جي بي، لكنها تلقت دعماً من اختصاصيي الدعاية السوفييت. في تشرين الأول عام 1985 نشرت الجريدة السوفييتية الأسبوعية «ليتيراتورنايا غازيتا» مقالةً تزعم أن

لقد زُعِمَ في البداية أن الإيدز يجب أن يصبح منتشراً في كل مكان في شكله الكارثي نفسه الذي ظهر به في أفريقيا، وأولئك الذين لا زالوا يعتقدون أن هذا سيحدث أخيراً يستحضرون الموت الأسود [الطاعون]. إن استعارة الوباء هي عربة ضرورية لنقل أكثر القراءات المتشائمة المتعلقة بتوقعات علم المرض الوبائي. من الأدب الكلاسيكي إلى آخر صحافة، قصة الوباء المثلى لا يمكن أن تُرفَض ولا يمكن التغاضي عنها. والذين لا يستعدون يُؤخذون على حين غرة؛ أولئك الذين يراعون التحذيرات المقترحة يُسقَطُ في يدهم أيضاً. لكن يخضع كلهم عندما تُخبَرُ القصة من قبل قاصٍّ غير محدود العلم، كما هو في حكاية «بو» الرمزية ذات المغزى الأخلاقي ‹قناع الموت الأحمر› (1842) المستوحاة عن طريق وصفٍ لحفلةٍ راقصة أقيمت في باريس خلال فترة وباء الكوليرا عام 1832. لقد رويت القصة في معظمها بلسان شاهدٍ مصابٍ بجرحٍ أو بصدمة، والذي سيكون شخصاً مخدراً متخلفاً عن الموت، كما في رواية «جان جيونو»

فايروس الإيدز قد صمم من قبل الحكومة الأمريكية أثناء البحوث المتعلقة بالحرب البيولوجية في ‹فورت ديتريك›، ميريلاند، ونُشِرَ خارج الولايات المتحدة عن طريق موظفيها المدنيين الذين استُعمِلوا كخنازير الجنيه. وكان المصدر المُستَشهَد به مقالةً في جريدة ‹باتريوت› الهندية. ثم كررت قراءة هذه المقالة على إذاعة‹راديو السلام والتقدم› في موسكو بالإنكليزية، وأُخذت القصة من قبل الجرائد والمجلات إلى كل أنحاء العالم. وبعد سنة نُشِرَت ككلمة العدد على الصفحة الأولى للجريدة الإنكليزية اللندنية المحافظة واسعة الانتشار. (‹صُنِعَ فايروس الإيدز القاتل من قبل علماء أمريكيين خلال تجارب مخبرية شابها الخطأ بشكلٍ كارثي. وكانت هناك تغطية واسعة كي تظل هذه الحادثة سراً عن العالم حتى اليوم›) مع العلم أن ما حدث قد تجاهلته معظم الصحف الأمريكية. وقد كررت قصة ال ‹سندي إيكسبريس› في معظم بلاد العالم. وفي صيف 1987، ظهرت القصة في صحف كينيا والبيرو والسودان ونيجيريا والسينيغال والمكسيك. ومنذ ذلك الحين قدمت سياسات فترة «غورباتشيف» إنكاراً رسمياً لهذه الادعاءات من قبل عضوين بارزين من أكاديمية العلوم السوفييتية، ونُشِرَ هذا الإنكار في جريدة الـ «إزفيستيا» في أواخر تشرين الأول عام 1987. ولكن القصة لا تزال تُكَرَّرُ – من المكسيك إلى زائير، ومن أستراليا إلى اليونان.

«الخيَّالُ على السقف»، (1951)، حيث كان هناك شاب إيطالي نبيل مصاب بالكوليرا في المنفى، يتجول في جنوب فرنسا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

تُعد الأوبئة أحكاماًعلى المجتمع، وإن توسيع الإيدز المجازي إلى مثل هذه الأحكام أيضاً يُعَوِّدُ الناس على حتمية الانتشار الكوني. لقد برز هذا الاستعمال التقليدي للأمراض المنقولة عن طريق ممارسة الجنس؛ في أن توصف على أنها عقاب أو قصاص، ليس للفرد فقط، بل للجماعة («فسق عام»). وهذا لا يتعلق بالأمراض التناسلية فقط، فقد استُعمِلَت في هذه الطريقة للتعرف على السكان المتجاوزين للعادات والأعراف السائدة والأشرار. وإن تفسير أي وباءٍ كارثي على أنه عقوبة على انحلالٍ أخلاقي أو انحطاطٍ سياسي كان شائعاًحتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر مثل ربط الأمراض المرعبة بأجنبية التابعية [أي بأجنبية المسبب أو المصدر]، (أو ربطها بالأقليات المكروهة والمخيفة). وهكذا فإن إرجاع السبب إلى الآخر أو إلى الخارج لم يُعتَرَض عليه من قبل الوقائع التي لا تؤكده. لقد ربط واعظو الكنيسة «الميثوديست» في إنكلترا وباء الكوليرا لعام 1832 بالإدمان على المشروبات الروحية (كانت حركة الاعتدال قد بدأت في نشاطها)، وهؤلاء الواعظون لم يفهم أنهم كانوا يَدّعَون أن كل شخص قد أصيب بالكوليرا كان سكّيراً؛ كانت هناك فرصة دائماً لل«ضحايا الأبرياء» (الأطفال والنساء الصغيرات). وقد رُبِطَ السل أيضاً في هويته كمرض الفقراء (وليس «الحساسين») بالكحول من قبل مصلحي أواخر القرن التاسع عشر. إن الاستجابات للأمراض المتعلقة بمرتكبي الخطايا والفقراء كانت توصي بتبني قيم الطبقة الوسطى: العادات المتعارف عليها والإنتاجية وضبط العواطف التي كان السُكرُ يُعد أكبر عائقٍ لها[1].

1- طبقاً للتشخيص الأكثر شمولاً الذي فضّلَه المصلحون غير الدينيين، كانت الكوليرا نتيجةً لسوء التغذية و«اللانغماس في العادات غير المنتظمة». وقد حذر موظفون في

عُرِّفَت الصحة نفسها أخيراً بهذه القيم، التي كانت قيماً دينيةً وتجاريةً، وأنها الدليل على الفضيلة، كما هو المرض دليل على فساد الأخلاق والفسق. والمثل العامي (تأتي النظافة مباشرةً بعد التُقى والورع) يجب أن يُقبَلَ حرفياً. إن تعاقب وباء الكوليرا في القرن التاسع عشر يؤشر إلى ذبول التفسيرات الدينية للمرض؛ وبدقةٍ أكثر، صارت هناك تفسيرات أخرى إلى جانب التفسيرات الدينية. مع العلم أنه عند هجوم الوباء في 1866، كان مرض الكوليرا مفهوما بشكل عام على أنه ليس ببساطة عقاباً أو قصاصاً، ولكن نتيجةً وجود أخطاءٍ أو خللٍ صحي يمكن علاجه، وبذلك كان ولا يزال يُعد أداة عقاب لمرتكبي الأخطاء والرذائل. وقد صَرّح كاتب في جريدة النيويورك تايمز عام 1866، أن (الكوليرا هي عقاب، وخاصةً لمهملي القوانين والنظم الصحية؛ إنه لعنة القذرين وغير المعتدلين والمنحطين الفاسدين).

ويبدو الآن أنه لا يمكن تخيل أن الكوليرا أو أي مرض مشابه نستطيع اعتباره عقوبةً أو لعنةً. وهذا لا يعني أن القدرة على التقييمات الأخلاقية للمرض قلّت أونقصت، بل يعني تغيراً في نوع الأمراض التي توصف بمعايير أخلاقية أو بالوعظ. كان مرض الكوليرا ربما آخر مرض وبائي مؤهل تماماً ليكون بمنزلة الوباء الكارثي أوالبلوى لقرنٍ من الزمن. (أعني الكوليرا كمرضٍ أوروبي وأمريكي، ولذلك كان وباء القرن التاسع عشر. ولم يأت مرض الكوليرا حتى1817 وظل محصوراً في الشرق الأقصى).

اقتُبِسَ من «تشارليس إي. روزينبيرغ» ، (سنوات الكوليرا: الولايات المتحدة في 1832، 1849، و1866) (1962).

الأنفلونزا يبدو كوباءٍ أكثر من أي وباءٍ آخر في هذا القرن، وفق المعيار

اللجنة الصحية المركزية في لندن أنه لم يكن هناك علاج خاص بالمرض، ونصحوا الاهتمام بالهواء النقي والنظافة، مع أن الموانع الحقيقية للمرض هي الجسم السليم والعقل المبتهج وغير المُكَدَّر. اقتُبِسَ من آر. جي. موريس، (كوليرا 1832) (1976).

الرئيس الذي هو عدد الوفيات. حلَّ بشكلٍ مفاجئ كالكوليرا وقتل بسرعة الكوليرا، عادةً في بضعة أيام، لم يُنظَرُ إليه مجازياً كوباء. ولم يُنظَر إلى شلل الأطفال الأحدث من الأنفلونزا، مجازياً أيضاً كوباء. وأحد الأسباب التي لم تستحضر الأفكار المتعلقة بالوباء، كان أن هذه الأوبئة لم يكن لديها من الخواص ما يكفي لاعتبارها وبائية. (مثلاً، كان يُفهمُ أن الشلل هو بشكلٍ رئيس مرض أطفال - مرض البراءة). والسبب المهم الثاني هو أنه قد حدث تحول في أهمية الاستغلال الأخلاقي للمرض. هذا التحول، إلى الأمراض التي يمكن تفسيرها كأحكام على الفرد، يجعل من الأصعب استعمال المرض الوبائي كوباء. كان السرطان لمدةٍ طويلة المرض الذي لاءم حاجة الثقافة الدنيوية للوم والعقاب والانتقاد من خلال الصور البيانية والمجازية للمرض. كان السرطان مرضاً فردياً، وكان مفهوماً أنه نتيجة ليس لما قام به الشخص من أشياء سيئة، بل لما لم يقم به، أو نتيجة فشلٍ في القيام بشيء ما (فشل في أن يكون فطناً وحذراً، وأن يمارس ضبط النفس اللازم والملائم، أو الفشل في ألا يكون ميَّالاً للانطواء والانعزال). يكاد يكون من المستحيل في القرن العشرين أن نتكلم كلاماً أخلاقياً عن الأوبئة، ما عدا تلك التي تنتقل عن طريق ممارسة الجنس بشكلٍ غير طبيعي.

إن استمرار الاعتقاد أن المرض يكشف، وهو عقوبة على الانحلال الأخلاقي أوالفساد الأخلاقي يمكن أن يُرى بطريقةٍ أخرى، بملاحظة أوصاف الفوضى أوالفساد كمرض. ومن هنا كان استعمال الاستعارات المجازية للوباء لا يمكن الاستغناء عنه للوصول إلى أحكام نهائية عن الأزمة الاجتماعية. قلما خَفَّ أو قَلَّ هذا الاستعمال خلال الفترة التي لم تعد تُوصف الأمراض الوبائية فيها بمعايير أخلاقية -الفترة بين الأنفلونزا والأمراض الجنسية شبه الوبائية في أوائل عشرينيات القرن العشرين وأواسطها. وقلما قلّ هذا الاستعمال المجازي أيضاً عند الاعتراف

بالأمراض الوبائية الجديدة وغامضة الأسباب في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين- وعندما أُعلِن عن أن الأوبئة المعدية أو السارية هي أمراض من الماضي[1].

كانت استعارة الوباء شائعةً في ثلاثينيات القرن العشرين كمرادفٍ للكارثة الاجتماعية والنفسية. إن استدعاء الوباء من هذا النموذج يتلاءم عادةً مع الكلام بطريقة مسرحية أومع التبجح أو وجهة النظر المضادة لليبرالية: فَكِّر بِـ (مسرح ووباء) لِـ «أرتود»، وفَكِّر بِـ «ويلهيلم رايخ» في (الوباء العاطفي). إن مثل هذا (التشخيص) النوعي يُقَوِّي بالضرورة التفكير غير التاريخي، وإن قياس الزوايا وعلم دراسة الشياطين والعفاريت لا يثير شيئاً ما يرمز إلى الشيطان، ولكن يجعل منه حاملاً لعدالةٍ فظة وفظيعة. في(الوباء الأبيض) (1937) لِـ «كارل كابيك» الطاعون أو الوباء الكريه الذي ظهر في الحالة التي وصلت الفاشية فيها إلى الحكم في أنه يحزن ويبتلي فقط الأشخاص الذين هم فوق الأربعين من عمرهم، أولئك الذين يُعدون مسؤولين أخلاقياً.

إن المسرحية الرمزية التي كتبها «كابيك» عشية استيلاء النازيين على تشيكوسلوفاكيا هي شيء ما شاذ، والذي هو استعمال الاستعارة الخاصة بالمرض للتعبير عن التهديد والوعيد للذي يُعرِّفُ أنه بربري من قبل الليبرالي الأوروبي. وداء المسرحية الغامض والغريب هو شيء مثل الجذام السريع المفترض أنه أتى طبعاًمن آسيا. لكن «كابيك» لم يكن مهتماً بالتعريف بالوضع السياسي السيء نظراً للغزو الأجنبي. إنه يُعَلِّم

1- بدأ المؤرخُ «ويليام إتش. ماكنيل» مؤلف (الوباء والناس) عام 1983، مراجعته لتاريخ جديدٍ للموت الأسود [الطاعون] بالتأكيد على أن: (أحد الأسباب التي تفصلنا عن أسلافنا، وتجعل من التجربة المعاصرة عميقة الاختلاف عن تجربة عصورٍ أخرى، هو اختفاء المرض الوبائي كعامل خطير في حياة الإنسان). (مراجعة نيويورك، 21 حزيران، 1983). المزاعم المتركزة على أوروبا في هذا الكلام وفي أقوالٍ أخرى مشابهة لا تحتاج إلى توضيح.

النقاط التعليمية بالتركيز ليس على المرض، بل على إدارة المعلومات عنه من قبل العلماء والصحفيين والسياسيين. ويخطب مراسل صحفي أشهر اختصاصي في الخِطابات المتعلقة بالمرض: (‹نستطيع القول إنه مرض الساعة. لقد مات به حتى الآن نحو خمسة ملايين، وهناك نحو عشرين مليوناً مصابون به حتى الآن، كما أن هناك على الأقل ثلاثة أضعاف هذا العدد لا يزالون يقومون بأعمالهم، غير مدركين لوجود البقع البيضاء كالرخام الأبيض على أجسامهم›). لامني طبيب وهو زميلي على استعمال عباراتٍ عامية، ‹الوباء الأبيض› و‹جذام بكين›، بدلاً من الاسم العلمي، ‹أعراض ال تشينغ›. وقد قال هذا الزميل الطبيب أوهاماًعن أن عمل عيادته الخاص بالتعرف على الفايروس الجديد وإيجاد العلاج اللازم (‹كل عيادة في العالم عندها برنامج بحثٍ مُكَثَّف›) ستضيف إلى مكانة العلم المرموقة وتمنح جائزة «نوبل» لمكتشف الفايروس. ثم ينتشي بالإطناب عندما يُظنُّ أن الفايروس قد اكتُشِفَ، وكان أكثر مرضٍ خطراً في التاريخ كله، كان أسوأ من الطاعون. لقد كشف عن خططٍ لإرسال الذين يحملون أعراض المرض إلى معسكرات حجرٍ محروسةٍ بشكل جيد، شرط أن يكون كل ناقلٍ للمرض ناشراً محتملاً له، يجب علينا أن نحمي الذين لم ينقلوا العدوى من الذين نقلوها. كل موقفٍ عاطفي في هذا الخصوص هو موقف قاتل وإجرامي. ومهما بدت تعبيرات «كابيك» ساخرةً، إنها ليست صورةًغير محتملة لكارثةٍ (طبيةٍ وبيئية) كحدثٍ عامٍ يديره بعض الناس في المجتمع الجماهيري المعاصر. وعلى الرغم من استعماله الاستعارة المجازية للوباء بشكلٍ تقليديٍ، كأداةٍ عقابية (في النهاية يصرعُ الوباء الديكتاتورَ نفسه)، فإن إحساس «كابيك» المرهف بالعلاقات العامة تقوده إلى التوضيح في المسرحية لفكرة المرض كاستعارة مجازية. يصرح الطبيب المشهور أن إنجازات العلم هي لا شيء بالمقارنة مع جدارة الديكتاتور وفضائله، والذي هو على وشك أن يشن

حرباً، «الذي تجنب بلاءً أسوأ: بلاء الفوضى وجذام الانحطاط والفساد، وباء الحرية البربرية، وباء الانحلال الاجتماعي الذي يُذبِلُ نظام أمتنا».

أما «الطاعون» لِـ «كامو»، الذي ظهر بعد نحو عقدٍ من الاجتياح النازي لتشيكوسلوفاكيا، فهو استعمال حرفي أقل بكثير للوباء من استعمال ليبرالي أوروبي عظيم آخر، استعمالاً ذكياً لِـ «كابيك» في «الوباء الأبيض». كان «الطاعون» قد كُتِبَ وفق مخطط. ليست رواية كامو، كما يقال أحياناً، قصةً رمزية عن قدوم وباء الطاعون من مدينةٍ في حوض البحر الأبيض المتوسط، ممثلاً للاحتلال النازي. هذا الوباء ليس عقابياً. إن «كامو» لا يحتج على أي شيء، لا الفساد ولا الاضطهاد والظلم، ولا حتى الموت. الوباء ليس أكثر أو أقل من حادثٍ عبارة عن مثال، قدوم الموت الذي يعطي الحياة جديتها. استعماله للوباء، كصورةً مصغرة أو كملخصٍ أكثر مما هو استعارة، هو استعمال غير متحيز وشجاع وواعٍ.. إنه ليس عن إصدار الحكم بالعقاب أوالقصاص، ولكن كما هو في مسرحية «كابيك». إن الشخصيات في رواية «كامو» يصرحون أن مالا يخطر على البال هو أن يوجد الوباء في القرن العشرين... كما لو كان الاعتقاد أن مثل هذه الكارثة لا يمكن أن تحدث من جديد، يعني أنها ستحدث.

مكتبة
t.me/t_pdf

الجزء السادس

إن ظهور وباءٍ كارثي جديد، عندما كان يُزعم لمدة عدة عقود بثقة أن مثل هذه الكوارث صارت من الماضي. وحتى لو حدثت فهي ليست كافيةً لإحياء التضخيم الأخلاقي (للوباء) وتحويله إلى بلوى أو ابتلاء من قبل الخالق. كان من الضروري أن يكون الوباء واحداً من الأوبئة، الذي كان الجنس من أكثر سبل انتقاله شيوعا.

لقد سَمّت «كوتون ماذار» السيفيلس عقاباً (احتفظ به حكم الإله العادل لعصورنا المتأخرة). عندما نتذكر هذا ونتذكر الهراء الذي قيل عن السيفيلس من نهاية القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن العشرين، قلما يندهش المرء من أن الكثيرين يريدون أن ينظروا إلى الإيدز بشكلٍ مجازي كَشبيهٍ بالوباء، كحكمٍ أخلاقي على المجتمع. لا يستطيع الذين يمتهنون الشجب والاستنكار أن يقاوموا الفرصة البلاغية التي يعرضها عليهم مرض منقول عن طريق الجنس أنه قاتل. وهكذا فحقيقة الإيدز هي أنه، وإلى درجةٍ سائدة ومهيمنة مرض منقول عن طريق الممارسة الجنسية بين جنسين مختلفين، [كالبشر والقرود، مثلاً] في البلدان التي ظهر فيها في البداية في شكلٍ وبائي. وهذه الحقيقة لم تمنع مثل هؤلاء الحامين للأخلاق العامة مثل «جيسي هيلمز» و«نورمان بودورتيز» من تصوير الإيدز على أنه زيارةٌ مستهدفةٌ، بشكلٍ خاص، (ومستَحَقَّةٌ من قبل) مثليي الجنس الغربيين. بينما يخطب «بات بيوكانان» أحد مشهوري الفترة

الريغنية [نسبةً إلى فترة حكم «ريغان»] عن «الإيدز والإفلاس الأخلاقي»، ويعرِضُ «جيري فالويل» تشخيصاً نوعياً قائلاً: إن «الإيدز هو حكم الله على مجتمعٍ لا يعيش طبقاً لقوانينه [قوانين الله]». والمدهش هو أن وباء الإيدز استُغِلَّ بهذه الطريقة، ولكن مثل هذا الرياء أوالنفاق حُصِرَ بقَطَّاعٍ من المتعصبين المتوقعين؛ وإن الخطاب الرسمي عن الإيدز يتضمن تحذيراتٍ ضد التعصب.

إن تأكيدات أولئك الذين يزعمون أنهم يتكلمون في صالح الله يمكن أن تُهمَل بمُجمَلِها كبلاغة تُثَارُ بانتظام من قبل المرض المنقول عن طريق الجنس، من حكم «كوتون فاثار» إلى الأقوال الحديثة لرجلي كنيسةٍ برازيليين، بيشوب برازيليا، «فالكاو»، الذي يصرح أن الإيدز هو «نتيجة للانحلال الأخلاقي»، وكاردينال ريو دي جانيرو، «يوجينيو ساليس»، الذي يريد ذلك بالاتجاهين، وصف الإيدز أنه «عقاب الله» ووصفه كانتقام الطبيعة. والمثير للاهتمام أكثر من هذا هو أن أغراضهما معقدة أكثر، ولذلك فهما الراعيان المدنيان لهذا الذم والطعن. إن الآيديولوجيات السياسية السلطوية لديها مصالح مُخَوَّلَةٌ لأصحابها لتنمية الخوف، الذي هو الشعور باقتراب إزاحتهم من مراكزهم من قبل الغرباء، فالأمراض الحقيقية هي مادةٌ مفيدة لهم، والأمراض الوبائية تستثير الدعوة إلى فرض حظرٍ على دخول الأجانب والمهاجرين. وقد صَوَّرَت دعايةُ رهاب الأجانب [الخوف من الأجانب وكرههم] الأجانب كحاملين للمرض (في أواخر القرن التاسع عشر الكوليرا والحمى الصفراء والتيفوئيد والسل). ويبدو منطقياً أن الشخصية السياسية في فرنسا «جان ماري لوبان» والتي تمثل الأفكار المتطرفة المتعلقة بالأصالة المتطرفة لأهل البلاد الأصليين، وبالآراء العنصرية، قد جَرَّبَت استراتيجية مضاعفة الخوف من هذه المخاطرة الأجنبية الجديدة، مُصِرَّةً على أن الإيدز ليس فقط معدياً بل سارياً، وداعيةً للشروع في فحصٍ إجباريٍ للأجانب في كل

أنحاء فرنسا، وحجر كل شخصٍ حاملٍ للفايروس. والإيدز هو هبة للنظام الحالي في جنوب أفريقيا، الذي صَرَّحَ وزير خارجيته حديثاً، مثيراً وقوع المرض بين عمال المناجم الأجانب المستقدمين من البلدان ذي البشرة السوداء: «المخربون يأتون إلينا الآن ومعهم سلاح أمضى وأكثر رعباً من الماركسية: إنه الإيدز».

يقوم وباء الإيدز، كإسقاطٍ مثاليٍ، على خدمة الكره السياسي للأجانب في بلدان العالم الأول. ذلك أن فايروس الإيدز ليس هو الغازي الأساسي من العالم الثالث فحسب، بل يمكن أن يُمَثَّلَ أو يعني أي تهديدٍ ميثولوجي. أثار الإيدز في هذه البلدان، حتى الآن ردود فعلٍ عنصرية أقل حدةً مما أثارها في أوروبا، بما فيها الاتحاد السوفييتي، حيث أُكِّدَ على الأصل الأفريقي للمرض. وهذا المرض هو مُذكّرٌ أيضاً بالمشاعر المتعلقة بتهديد العالم الثاني، مثلما هو صورة أنه اجتيح من قبل العالم الثالث. ويمكن التنبؤ أن الأصوات العامة في هذه البلد الأكثر التزاماً باستخلاص الدروس الأخلاقية من وباء الإيدز، كَـ«نورمان بودهوريتز»، هي أصوات أولئك الذين هدفهم الرئيس هو القلق على إرادة أمريكا وتصميمها، على أن تظل محافظةً على نزعتها القتالية ومصروفاتها على التسلح وموقفها الثابت ضد الشيوعية، وأولئك الذين يجدون الدليل في كل مكان على أُفول السلطة الأمريكية السياسي والإمبريالي. وإن استنكارات «الوباء المثلي» هي جزء من التذمر الأوسع الشائع بين مناهضي الليبرالية في الغرب والعديد من المنفيين من الحلف الروسي، من التراخي والتساهل في جميع الأمور: النقد الساخر العنيف الدارج الآن للغرب «الطري» و«الرخو» ولمذهبه في المتعة، ولموسيقاه المثيرة للجنس، ولانغماسه في المخدرات، ولحياته الأسرية المفككة، الأشياء التي جففت قوة الإرادة عنده في تحدي الشيوعية. الإيدز هو أحد الاهتمامات المفضلة لأولئك الذين يترجمون أجندتهم السياسية إلى مسائل علم النفس الجمعي:

مسائل الاحترام الذاتي القومي والثقة بالنفس. ومع أن هؤلاء المختصين بالمشاعر البشعة التي تشير إلى أن الإيدز هو عقاب على الممارسة الشاذة للجنس، الذي يدفعهم ليس فقط، ولا حتى بشكلٍ أساسي، لكره البشر، إلا أن الأهم من ذلك هو نفع الإيدز في متابعة أحد الأنشطة الرئيسة للذين يُسَمّون المحافظين الجدد، الذين هم اختصاراً ضد كل ذلك الذي يُسَمَّى (بلا تدقيق)، مرحلة ستينيات القرن العشرين. لقد أقفلت على هذا المرض سياسة كاملة ‹للإرادة›، إرادة التعصب وكره الأجانب والخوف من الضعف السياسي.

إن الإيدز هو محفز معروف لمخاوف بناء الإجماع التي زُرِعَت على مدى عدة أجيالٍ، مثل الخوف من ‹التدمير›، وللمخاوف التي برزت حديثاً من التلوث الخارج عن السيطرة ومن الهجرة التي لا يمكن إيقافها من العالم الثالث، الشيء الذي يبدو حتمياً أن الإيدز يُصَوّرُ في هذا المجتمع على أنه شيء مهدد للحضارة بشكلٍ كلي. وإن الرفع من مكانة الإيدز عن طريق إبقاء المخاوف حيةً من إمكانية نقله أو انتقاله بسهولة وإمكانية انتشاره القريبة، لا يقلل من مكانته الأساسية، كنتيجةٍ للممارسات المحرمة وغير المشروعة (أو نتيجة للتخلف الاقتصادي والثقافي). أن يكون عقاباً على سلوكٍ منحرف وأنه يهدد الأبرياء. هاتان الفكرتان عنه ليستا متناقضتين. وهكذا هي قوة الاستعارة وفاعليتها غير العادية الخاصة بهذا المرض: إنها تسمح للمرض بأن يُعد كشيء يَجلِبُه المريض لنفسه من ‹الآخرين› الذين هم عرضة للسقوط أو غير الحصينين، وكمرضٍ محتمل أن يكون مرض كل واحد.

أن نؤكد كيف يهدد المرض كل واحد منا (لكي نثير الرعب ونشدِّد على التحيز) هو شيء، وشيء آخر تماماً أن نجادل (لكي ننزع فتيل التعصب، ونقلل من وصمة العار). إن الإيدز في المطاف الأخير، سوف يؤثر على كل واحد بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. وإن هؤلاء الميثولوجيين الذين

كانوا ولا زالوا توّاقين لاستعمال الإيدز للتحريك الآيديولوجي للناس ضد الانحراف قد تراجعوا عن التقديرات التي تثير رعباً كبيراً من المرض. إنهم من بين المنادين بأعلى أصواتهم، الذين يصرّون أن العدوى سوف لن تنتشر إلى (عموم السكان) ووجهوا انتباههم إلى إنكار(الهيستيريا) ونوبة الجنون المتعلقة بالإيدز. ووراء ما يعدونه الآن العمومية المفرطة أو الانتشار الواسع المعطى للمرض، إنهم يُمَيِّزون الرغبة في تهدئة أقلية قوية جداً عن طريق موافقتهم على اعتبار (مرضِهم) (مَرَضَنا)، الشيء الذي هو دليل آخر على سيطرة القيم (الليبرالية) الشنيعة والانحطاط الروحي لأمريكا. إن جَعل الإيدز مشكلة كل واحد، وبالتالي جعله موضوعاً يحتاج أن يكون كل واحد مثقفاً فيه، يتّهمُ ميثولوجيي الإيدز المضادين لليبرالية، ويقلب فهمنا للفرق بين الـ (نحن) في حالة المفعول و(هم) في حالة المفعول أيضاً؛ وبالفعل يبرّئُ أو على الأقل يجعل من الأحكام الأخلاقية المتعلقة بهم غير واردة. (في مثل هذه الاستعارة المجازية يستمر المرض في أن يُعرَفَ، يكاد يكون بشكلٍ حصري جنساً مثلياً، وخاصةً ممارسة اللواط). (هل أصبحت أمريكا بلّداً حيث النقاش في غرفة الصف حول الوصايا العشر غير مسموح به، لكن إرشادات المعلم حول اللواط الآمن يجب أن تكون إجباريةً؟) يتساءل «بات بيوكانان»، احتجاجاً على الاقتراح (الغبي) الذي ذُكِرَ في التقرير الحديث للجنة الرئاسية التي يرأسها الأدميرال «واتكينز»، عن الإيدز، لجعل التمييز ضد مرضى هذا الوباء غير قانوني. ليس المرض ولكن المناشدات، التي سُمِعَت من الجهات الأكثر رسميةً (لوضع التحيز والخوف جانباً في صالح التعاطف). إن (كلمات تقرير «واتكينز»)، أصبحت هدفاً رئيساً، موحيةً بإضعاف قوة هذا المجتمع (أو رغبته) في العقاب، وفصل الجنسين من خلال إصدار الأحكام على السلوك الجنسي.

يبدو الإيدز أكثر من السرطان، ولكن مثل السيفيلس، في خلق

تصوراتٍ منذرة بالشؤم عن مرضٍ هو عبارة عن مؤشرٍ [قلم يُستَعمَلُ لوضع إشارة أو علامة على شيءٍ ما] لوضع علامة قابلية السقوط على كلٍ من الفرد والمجتمع. إن الفايروس يغزو الجسم؛ المرض (أو، في النسخة الأحدث، الخوف من المرض) يُوصَفُ بأنه يغزو كل المجتمع. في أواخر عام 1986 أعلن الرئيس «رولاند ريغان» أن الإيدز ينتشر -بمكرٍ، طبعاً- خلال طول مجتمعنا وعرضه»[1]. ولكن الإيدز، بينما هو الذريعة للتعبير عن تلميحاتٍ عن الجسم السياسي، عليه أن يبدو موثوقاً كاستعارةٍ سياسية أمام الأعداء الداخليين، حتى في فرنسا، حيث الإيدز -في [لو سيدا الفرنسية]- أُضيف بسرعة إلى مخزن القدح السياسي. لقد فصل «لو بان» بعض معارضيه لأنهم كانوا [إيدز - يين] (لوطيين).

وقال المناظر المعارض لليبرالية «لويس باويلز»: إن طلاب المدارس الثانوية الذين أضربوا السنة الماضية كانوا يقاسون من الإيدز ‹العقلي›. ولم يثبت الإيدز أنه ذو نفعٍ كبير كاستعارةٍ للشر أو السوء السياسي العالمي. صحيح، أن «جين كيرباتريك» لم تستطع مرةً إلا أن تقارن الإرهاب الدولي بالإيدز، لكن مثل هذه الهجمات كانت نادرة، ربما بسبب أن استعارة السرطان أثبتت أنها ولودة جداً.

هذا لا يعني أن الإيدز لا يُستَعمَلُ، بشكل منافٍ للعقل، كاستعارة، ولكن يعني فقط أن الإيدز له قابلية مجازية أو مقدرة بلاغية مختلفة عن السرطان. وعندما يفكر مدير فيلم «ألان تانر» ‹طيف الوادي› (1987) حين يشير إلى أن ‹السينما هي مثل السرطان›، ثم يصحح لنفسه، ‹لا،

1- إن تأكيد «ريغان» من خلال العبارات التخويفية بمرض شعبٍ آخر يتباين مع إنكاره الأكثر أصالةً لواقعية مرضه. عندما سئل كيف كان يشعر بعد عمليته الجراحية، صرَّحَ: ‹لم يكن عندي سرطان. كان عندي شيئ داخل جسمي مصاب بالسرطان، وقد استؤصل›.

إنها عدوى، إنها أكثر من إيدز»، تبدو المقارنة معبرةً عن وعي للذات واستعمالاً ضحلاً ومتردداً للإيدز. إن ما يقدم استعمالاً متميزاً أكثر للإيدز كاستعارة هو ليس قدرته على العدوى بل كمونه المميز. وهكذا، فإن الكاتب الفلسطيني «أنطون شماس» في أسبوعية القدس «كول هائير»، بنوبة خيالٍ جامحٍ طبية وجنسية وسياسية، وصف إعلان الاستقلال من قبل إسرائيل عام 1948:

كإيدز الدولة اليهودية في أرض إسرائيل، التي أنتج جلوسها الطويل على بيض تفريخ غوش إيمونيم و... [رابي مائير] كاهانا. ذاك هو المكان الذي بدأ فيه كل شيء، وذاك هو المكان الذي سينتهي فيه كل شيء. الإيدز، أنا آسف أن أقول: على الرغم من أن تعاطفي مع مثليي الجنس يؤثر فقط على الشاذين جنسياً، أن الدولة اليهودية وحيدة القومية تحتوي بالتعريف بذور تدميرها: انهيار جهازها المناعي الذي نُسَمّيه ديمقراطية... «روك هيدسون» الذي كان مرةً جميلاً يضطجع ميتاً الآن بعد تحلل جسده. دولة إسرائيل (لليهود، طبعاً) كانت مرةً بالفعل جميلة...

إن كمون الإيدز أو وجوده بالقوة (قوته الدافعة) كاستعارة مجازية للتلوث والتحول المهم والأساسي (التحول النوعي) هي الواعدة أكثر من علاقته بالاستتار والتخفي. لا يزال السرطان شائعاً كاستعارة للشيء الذي يرعب ويحزن، حتى إذا كان المرض أقل إفزاعاً وترويعاً من السابق. وإذا كان من الممكن استعمال الاستعارة المجازية للإيدز بشكل مشابه لاستعمال السرطان، سيكون ذلك لا لأن الإيدز من طبيعته الغزو (الميزة التي يشترك بها مع السرطان) وحتى لا لأنه معدٍ، ولكن بسبب الصور المحددة التي تحيط بالفايروسات.

يزودنا علم الفايروسات بمجموعةٍ جديدةٍ من الاستعارات المجازية المستقلة عن الإيدز التي تقوي الميثولوجيا المتعلقة به. لقد صرّح

«ويليام بوروز» بشكلٍ تنبؤي قبل الإيدز بسنوات، وكرر ذلك «لوري أندرسون»: (اللغة هي فايروس). ويوضع التفسير المتعلق بالفايروسات موضع التنفيذ أكثر فأكثر. لقد كانت معظم حالات العدوى حتى وقتٍ قريب، والتي مُيِّزَت أنها فايروسية حالات كَلَبٍ وإنفلونزا، ولكن لها آثار سريعة. إلا أن فئة الأمراض التي تنتقل بالعدوى الفايروسية، والتي يعمل الفايروس فيها ببطء تنمو باطراد. ويعتقَد الآن أن العديد من الاضطرابات التي تحصل في الجهاز العصبي المركزي، وبعض الأمراض التي تؤدي إلى انحطاطٍ عام في الجسم، وبعض أمراض الدماغ التي يمكن أن تظهر في الشيخوخة، والأمراض التي تُسَمّى أمراض المناعة الذاتية، يُشَكُّ الآن أنها في الحقيقة أمراض فايروسية بطيئة. (وتستمر الدلائل في التراكم فيما يتعلق بالسبب الفايروسي لبعض أنواع السرطان البشري). وتجد أفكار المؤامرة صداها في استعاراتٍ مجازيةٍ للفيروسات مثل: لا يُقاوم وماكر وصبور بشكلٍ غير محدود. وبالمقارنة مع الباكتيريا، التي هي عضويات معقدة نسبياً، تُوصَفُ الفايروسات أنها، إلى حدٍ بعيد، شكل بدائي من أشكال الحياة. وفي الوقت نفسه تُوصَفُ أنشطتها أنها أكثر تعقيداً، نماذج الجراثيم الأولى التي تسبب المرض. إن هذه الفايروسات ليست ببساطة عوامل نقل للمرض، ليست تلوثاً. إنها تنقل (المعلومات الوراثية) وتغير بنية الخلايا، وهي نفسها أو الكثير منها تُحَوِّلُ بنيتها إلى بنية أخرى. فبينما يبدو فايروس الجذري أنه سيبقى كما هو ثابتاً لعدة قرون، تتطور فايروسات الإنفلونزا بسرعةٍ كبيرة لدرجة أنه يجب تعديل اللقاحات كل سنة لتصبح متلائمةً مع التغيرات التي تحصل في (غلاف الفايروس)[1].

1- إن السبب في اعتبار اللقاح الاستجابة الأمثل للفيروسات متعلق بالسبب الذي يجعلها (بدائية). يوجد لدى الباكتيريا استقلابات عديدة تختلف عن الاستقلابات في خلايا الثدييات، وتستطيع أن تتكاثر خارج خلايا مضيفها، الشيء الذي يجعل من الممكن إيجاد مواد تستهدفها بشكلٍ خاص. بالنسبة للفايروسات التي ترتبط بخلايا مضيفها، إنها مسألة أصعب بكثير من أن نميِّز الوظائف الفايروسية عن

إن الفايروسات التي يعتقد أنها تسبب الإيدز هي على الأقل متحولة مثل فايروسات الإنفلونزا. وبالفعل كلمة (فايروس) الآن هي مرادف للتغير. وقد شرحت «ليندا رونستات» مؤخراً لماذا تفضِّلُ الموسيقى المكسيكية الشعبية على موسيقى الروك إن رول، قائلةً: (لا يوجد لدينا أي تقليد في الموسيقى المعاصرة ما عدا التغير. التغير والتحول هو مِثل الفايروس).

بقدر ما لايزال (البلاء) له مستقبل كاستعارة مجازية، بقدر ما يتعلق هذا بالفكرة الأكثر شيوعاً عن الفايروس. (ربما سوف لن يُعد أي مرضٍ تسببه باكتيريا عصوية في المستقبل مرضاً وبائياً). والمعلومات نفسها، المرتبطة الآن بقدرات الحاسوب بشكلٍ غير قابل للانفصال عنه، هي مهددة من قبل شيء مشابهٍ للفايروس. توصف البرامج الخاصة بالأوغاد والقراصنة، المعروفة بفايروسات المعلومات، أنها موازية للفايروسات البيولوجية (التي يمكنها أن تستولي على الشيفرة أو الرموز الوراثية لأجزاء من العضوية وتنتزعها، وتحدث تحولاتٍ ونقلاً للمادة الوراثية الأجنبية أو الغريبة). هذه البرامج، المزروعة عمداً على قرص فلوبي لكي تُستَعمَلَ مع الحاسوب أو عندما يتصل الحاسوب عن طريق الهاتف بحواسيب أخرى أو بشبكةٍ منها متبادلاًالمعلومات معها. ومثل مثيلاتها البيولوجية، فإن هذه البرامج سوف لا تنتج إشاراتٍ مباشرة عن العطب الذي تُحدِثُهُ في ذاكرة الكومبيوتر، التي تعطي البرنامج الجديد (المصاب بالفايروس) الوقت الكافي لينتشر في كومبيوترات أخرى. مثل هذه الاستعارات المجازية المأخوذة من علم الفايروسات، والتي يُوحى بها جزئياً بمساعدة الوجود الشامل للكلام عن الإيدز، تظهر في كل مكان. (إن الفايروس

الوظائف الخليوية العادية. ومن هنا فإن الاستراتيجية الرئيسة للسيطرة على المرض الفايروسي هي تطوير اللقاحات، التي لا تهاجم الفايروس (بشكلٍ مباشر)، (مثلما يهاجم البنسيلين باكتيريا المرض) بل تحبط الفايروس قبل أن يقوم بعمله المزمع بتحريض الجهاز المناعي للحد من تأثيره أو القضاء عليه.

الذي دَمَّرَ جزءاً لا بأس به من كم الـ معلومات في مركز الكومبيوتر الطلابي لجامعة لاهية في بيت لحم في بنسيلفانيا عام 1987، أُعطي اسم إيدز البي سي. يتكلم خبراء الكومبيوتر في فرنسا عن مشكلة «اللواط المعلوماتي» وهمٌ يُقَوّي معنى الوجود الشامل أو الطاغي للإيدز.

ربما ليس مدهشاً أن أحدث عنصر أوعامل تغيير في العالم المعاصر، الحاسوب ـ الكومبيوتر، سيستعير استعاراتٍ مجازية مأخوذة من أحدث مرضٍ مُغَيِّرٍ. وليس مدهشاً أيضاًأن طريقة تَشخيص الفايروسات وفق المذهب الروحي، كتهديدٍ مُتَرَبِّص، وكمتحولٍ، ومختَلِسٍ. إن أوصاف مسار المرض الفايروسي الآن له صداه في لغة عصر الكومبيوتر، كما هو الحال عندما يُقَالُ إن الفايروس سوف ينتج عادةً «نسخاً جديدة لنفسه» إضافة إلى الأوصاف الميكانيكية، وكمُجَددٍ بيولوجي، يقوي معنى المرض في أنه يمكن أن يكون ذكياً وليس متوقعاً وجديداً. إن هذه الاستعارات هي مركزية فيما يتعلق بالإيدز التي تميزه عن الأمراض الأخرى التي تُعد شبه وبائية. ومع أن المخاوف التي يمثلها الإيدز هي مخاوف قديمة، فإن مكانته باعتباره ذلك الحدث غير المتوقع، هو مرض جديد بشكلٍ كامل، حكم جديد، يضاف إلى الإراعة والرهبة اللتين يحدثهما.

الجزء السابع

سوف لا يسمح بعضهم للأمراض أن تكون جديدةً، ويعتقد آخرون أن العديد من الأمراض القديمة قد أوقف والأمراض الجديدة ستأخذ وقتها. إلا أن رحمة الله بعثرت كومة الأمراض، ولم تملأ أي بلدٍ بمفردها بالأمراض كلها: بعضها يمكن أن يكون جديداً في بلد كان فيها مرض قديم. إن الاكتشافات الجديدة للأرض تكتشف أمراضاًجديدة... وإذا ما أحضرت آسيا وأفريقيا وأمريكا قائمة أمراضها، سيمتلئ صندوق بريد «باندوراس»، وسيكون هناك علم أمراض غريب.

• السير «توماس براون»،
(رسالة إلى صديق، بمناسبة
موت صديقه المقَرَّب)

من غير المحتمل، طبعاً، أن الإيدز، الذي كان أول ما عُرِفَ في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، هو مرض جديد. ومن المحتمل أن يكون الفايروس حولنا لمدةٍ طويلة، وليس فقط في أفريقيا، مع العلم أن المرض أصبح وبائياً (وفي أفريقيا). ولكنني أقول، بالنسبة لعامة الناس، إنه مرض جديد. وبالنسبة للطب، أيضاً: الإيدز يشير إلى نقطةٍ حاسمة في الآراء

الحالية حول المرض والطب، وحول الجنس والكارثة. لقد نُظِرَ إلى الطب كحملةٍ عسكرية تقترب من مرحلتها النهائية الآن، حيث الانتصار. ولكن ظهور مرض وبائي جديد، بينما كان يُزعَمُ بثقة طيلة عدة عقود أن مثل هذه الكوارث صارت من الماضي، غيَّر من مكانة الطب. وقد أوضح قدوم الإيدز أن الأمراض المعدية لم تُغلَبَ بعد ولم يتم طي ملفها.

لقد غيَّرَ الطب الأعراف والعادات، ثم أتى المرض ليغيِّر هذه الأعراف والعادات. إن منع الحمل وتأكيد الطب على سهولة علاج الأمراض المنقولة عن طريق الجنس (كما هو الحال في كل الأمراض المعدية) جعلا إمكانية اعتبار الجنس مغامرةً لا تجر إلى عواقب غير مرغوبٍ فيها مقبولةً. والآن يُجبِرُ الإيدز الناس على الاعتقاد أن للجنس نتائج قاسية ومفزعة: الانتحار. (كان هناك محاكمة أُقيمت في الولايات المتحدة في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، حيث كان الرعب منتشراًحول مرض القوباء لتحويل القدرة الجنسية إلى هذا المرض الجلدي، على الرغم من أن هذا المرض مزعج، ولكنه معطل لشهوانية الجنس). إن الخوف من الإيدز يفرض على الممارسة الجنسية التي هي تجربة وليدة اللحظة للقيام بها، حيث إن غايتها المثلى هي (خلق المستقبل)، علاقةٌ بالماضي يجب أن يتجاهلها الشخص على مسؤوليته بالمخاطرة. الجنس لم يعد يسحب شريكيه، حتى ولو للحظة، من الاعتبار الاجتماعي. لا يمكن أن يُعد مجرد تزاوج أوجماع؛ إنه سلسلة، سلسلة من الانتقال، من الماضي. (لذلك تذكر عندما يمارس الشخص الجنس، فهو لا يمارسه فقط مع ذاك الشريك، إنما يمارسه الاثنان.. كل منهما مع كل من مارسه ذاك الشريك معه على مدى عشر سنوات). كان هذا تصريحاً قد أُعلِنَ بشكلٍ ودّي عام 1987 من قبل وزير الصحة والخدمات الإنسانية، الدكتور «أُوتيس آر. أُووين». يكشف الإيدز كل شيء ماعدا الجنس الأحادي المستمر منذ أمد كجنسٍ مختلط (ولذلك خطير) وأيضاً كجنسٍ شاذ،

لأن كل العلاقات بين جنسين مختلفين هي أيضاً علاقات جنسية مثلية، أُزيلت مرةً.

إن الخوف من النشاط الجنسي هو السجل الجديد لعالم الخوف الذي كفيله هو الخوف الذي يعيش فيه الآن كل شخص. عَلَّمَنا رهاب السرطان [الرعب من السرطان] الخوف من البيئة المُلَوِّثة؛ لذلك بات لدينا الخوف الآن من الناس المُلَوِّثين الذين هم على صلة بالإيدز، الخوف من كأس تبادل الأفكار والمشاعر، كأس العلاقة الحميمية بين شخصين، والخوف من العملية الجراحية: الخوف من الدم الملوث، سواء أكان دم المسيح أو دم جارك. دم الحياة، السوائل الجنسية للحياة، هي نفسها حامل التلوث. هذه السوائل هي قاتلة بالقوة. من الأفضل الامتناع عن ممارسة الجنس. الناس يخزّنون دمهم الخاص للاستعمال المستقبلي. إن نموذج السلوك الغيري في مجتمعنا، إعطاء الدم من غير ذكر الاسم قد اختلط وأصبح غير آمن، لأنه لا يمكن لأحدٍ التأكد من سلامة الدم المعطى. ليس فقط للإيدز أثر غير سعيد في تقوية الأخلاقية الأمريكية [التمسك بالأخلاق]؛ إنه يقوي ثقافة المصلحة الذاتية، التي هي الكثير مما يَمنَحُكَ (فردية). تتلقى المصلحة الذاتية الآن دعماً مضافاً حذراً طبياً بسيطاً.

كل الأوبئة السريعة، بما فيها تلك التي لا يوجد شك في أنها عدوى جنسية أو أي تجريم للمرضى، تسمح ببروز ممارساتٍ مشابهة من التجنب والاستثناء. في وباء الإنفلونزا الذي حدث بين عامي 1918–1919، والذي هو مرض سريع الانتقال، [أي سريع العدوى]، يسببه فايروس في الهواء (يُنقَلُ بوساطة جهاز التنفس)، ولذلك ينصح الناس بعدم المصافحة، مع وضع مناديل على أفواههم عند التقبيل. وقد أُمِرَ ضباط الشرطة أن يرتدوا أقنعة من الشاش قبل أن يدخلوا منزلاً أصيب ساكنوه بالمرض، مثلما يفعل الآن العديد من ضباط الشرطة، عندما يلقون القبض على بعض الأشخاص في أمكنةٍ سفلية، لأن الإيدز في الولايات المتحدة أصبح

مرض فقراء المدن، وخاصةً السود والإسبان. ارتدى العديد من الحلاقين وأطباء الأسنان الأقنعة والقفازات، مثلما يفعل أطباء الأسنان والفنيون العاملون في طب الأسنان الآن. ولكن وباء الإنفلونزا العظيم، الذي قتل عشرين مليوناً من البشر، كان مسألة عشرين شهراً، ففي وباءٍ ذي حركة بطيئة، هذه الاحتياطات نفسها لها حياة خاصة بها. إنها تصبح جزءاً من التقاليد الاجتماعية، وليست إجراءً يُتّخَذُ لمدةٍ قصيرةٍ لطارئٍ ما، ثم تُهمل.

تقوم الوقاية بدور أكبر في الوعي عند حلول وباءٍ لا يوجد أمل قريب في اكتشاف لقاحٍ له، فضلاً عن عدم وجود الدواء. لكن الحملات التي تُبذلُ لوقاية الناس من المرض تعاني من صعوباتٍ عديدة مع الأمراض التناسلية. كان هناك دائماً بعض التردد، في الحملات الصحية الأمريكية، في توصيل المعلومات عن طرق ممارسة الجنس بشكلٍ آمنٍ أكثر. ‹دليل الولايات المتحدة للمدارس› الصادر في أواخر 1987 من قبل وزارة التربية التي ترفض أن تناقش تقليل المخاطر وتقترح الامتناع كأفضل طريقة للحماية من الإيدز، مستذكرةً محاضراتٍ أُعطيت للجنود خلال الحرب العالمية الأولى حول أن العِفّة كانت الضمان الوحيد ضد السيفيلس، كما أنها جزء من واجبهم الوطني في قتال الـ ‹هُن›[1].

يشعر المرء عند الكلام عن البالونات الواقية والأبر النظيفة أنه صفح

1- الجانب الآخر في هذا الرفض لإعطاء التوجيهات حول الممارسات التي ستكون أقل خطورة، كان الشعور أنه ليس من الرجولة إخضاع حياة الشخص الجنسية إلى إرشادات السلامة والحيطة والحذر. وفق خيال «هيمنغوي» الجامح، في ‹موت بعد الظهيرة› (1932): كان السيفيليس مرض المحاربين الصليبيين في القرون الوسطى. وقد زُعِمَ أنهم جلبوه معهم إلى أوروبا. إنه مرض كل الناس الذين يعيشون حياةً يطغى عليهم فيها عدم تقديرهم للعواقب. إنها حادثة صناعية، يجب أن يتوقعها كل الذين يعيشون حياةً جنسيةً غير منتظمة، ومن عاداتهم العقلية يتحينون الفرص بدلاً من استعمال الواقيات من المرض [مثل موانع الحمل]، وإنها نهاية يجب توقعها، أو مرحلة من حياة الزناة الذين يستمرون في مهنتهم إلى مدى بعيد.

وغفران وتحريض ضد الجنس المحرم وغير المشروع وضد الكيماويات غير القانونية. (وإلى درجةٍ معينة هو كذلك، فالثقافة المتعلقة بكيفية تجنب الإصابة بالإيدز تتضمن اعترافاً، وتسامحاً عن التنوعات التي لا يمكن اجتثاثها من التعبير عن الشعور الجنسي). وإن المجتمعات الأوروبية التي هي أقل التزاماً بالنفاق الجنسي على مستوى المرسوم أوالأمر العالي وفق مفهوم الجمهور العام، من غير المحتمل أن تُلِح على الناس أن يكونوا محتشمين كطريقةٍ لإنذارهم أن يكونوا متيقظين. (كن حذراً. الإيدز والإيدز. لا تَمُت بالجهل). المعنى الخاص لمثل هذه التعميمات الذي يُرى على لوحات الإعلان وعلى التلفاز في طول أوروبا الغربية وعرضها لعدة سنوات هو: استعمل البالونات الواقية. ولكن هناك معنىً أكبر في كل هذه الرسائل لأن تكون حريصاً، ليس لأن تكون جاهلاً، الشيء الذي يُسَهِّل قبول هذا النوع من إعلان الخدمة العامة هنا أيضاً. إن جزءاً من جعل حادثة ما حقيقية هو قولها، وتكرارها. وفي هذه الحالة، عندما تقولها ثانية وتكررها فإنك تقطِّر الوعي بالخطر وبضرورة الفطنة، قبل أية توصيةٍ محددة وبعدها.

هناك فجوة كبيرة بين النفاق الرسمي الذي يتكرر بانتظام والفجور الشائع في العقود الحديثة بالطبع. والرأي القائل إن الأمراض التي تعدي عن طريق ممارسة الجنس ليست خطيرةً وصل إلى الذروة في سبعينيات القرن العشرين، عندما أعاد العديد من المثليين الذكور تشكيل أنفسهم كشيء مشابه لمجموعةٍ عرقية واحدة، من تلك المجموعات التي كان النهم الجنسي واحداً من أعرافهم الشعبية المميزة، وأصبحت مؤسسات الحياة المثلية الجنسية في المدينة نظام توصيلٍ جنسي ذي سرعة وفاعلية ومحتوى غير مسبوقة. يقوي الخوف من الإيدز بشكلٍ أكبر بكثير من الاعتدال في ممارسة النهم الجنسي، وليس فقط عند الرجال المثليين. يبدو السلوك الجنسي لما قبل 1981 في الولايات المتحدة الآن للطبقة

الوسطى جزءاً من عمرٍ ضائع من البراءة، براءة في زيٍ من الفسق وعدم الالتزام بالقواعد الأخلاقية، طبعاً. بعد عقدين من الإنهاك الجنسي، والتأمل الجنسي، والتضخم الجنسي، نحن في المراحل الأولى لاكتئاب جنسي. وعند النظر إلى الخلف، إلى الثقافة في سبعينيات القرن العشرين، نرى أنه قد قُورِنَ مع النظر إلى الخلف، إلى عصر الجاز من الجانب الخطأ للنظر إلى الانهيار الاقتصادي لعام 1929.

إن مجموعة من رسائل المجتمع الذي نعيش فيه هي: (استهلك. إنما. افعل ما تريد. فَرِّحوا أنفسكم). فالكيفية التي يعمل فيها هذا النظام الاقتصادي، الذي منح هذه الحريات غير المسبوقة، والمحبوبة أكثر ما تكون في شكل القدرة على الحركة والازدهار المادي، تعتمد على تشجيع الناس على تحدي الحدود. ومن المفترض ألا تكون الشهوة معتدلة. إن آيديولوجيا الرأسمالية تجعلنا جميعاً هواة للحرية، هواة للاتساع المحدد للإمكانية. في الحقيقة كل نوع من أنواع الدفاع أو التأييد يزعم أنه يعرض قبل كل شيء آخر أو أيضاً بعض الإضافة إلى الحرية، وليس كل حرية بالتأكيد. لقد أصبحت الحرية تُعَرَّفُ في البلدان الغنية أكثر فأكثر أنها (تحقيق شخصي، حرية يُستَمتَعُ بها وتمَارَسُ بشكلٍ شخصي (أو يمارسها الشخص بنفسه ومن أجل نفسه). ومن هنا فالكثير من الكلام عن الجسم، المتخيل أنه الأداة التي يتصرف بها الشخص أو ينفذ بشكلٍ متزايد، برامج مختلفةً من التطوير الذاتي وتقوية القدرات الشخصية. مع التسليم بموجبات الاستهلاك وموجبات القيمة التي لا نقاش حولها في الحقيقة الملصقة بالتعبير عن الذات، كيف يمكن للنشاط الجنسي المفرط ألا يكون، لبعض الناس، اختيار المستهلك: ممارسةَ الحرية، والقدرة المتزايدة على الحركة، وإبعاد الحدود من أجل توسيع مدى الحرية. إن اختراع الثقافة التحتية الأدنى والثانوية للذكور المثليين، النشاط الجنسي المفرط الترفيهي والخالي من المخاطر هو إعادة اختراعٍ حتمية لثقافة

الرأسمالية، وقد ضَمِنَه الطب وكَفِلَه أيضاً. لكن يبدو أن قدوم الإيدز غيَّر كل ذلك دون عودة.

إن الإيدز يكَبِّرُ قوة الرسائل المختلفة، ولكنها تكميلية تُسمَعُ بشكلٍ متزايد من قبل الناس في هذا المجتمع المعتادين على أنهم قادرون، من أجل أنفسهم، على تزويد الذين يُجَرُّون أكثر فأكثر إلى برامج الإدارة الذاتية والتدريب على ضبط النفس الذاتي (النظام الغذائي والتمارين الرياضية)، بالمسرات. راقب شهواتك.. اعتن بنفسك.. لا تَفلَتَ من زمام نفسك. لقد وُضِعَت حدود منذ زمنٍ بعيد للانغماس في شهواتٍ معينة باسم الصحة أو باسم خلق مظهرٍ مثالي للجسم، حدود اختيارية، تمرين للحرية. إن مصيبة الإيدز تقترح ضرورة التحديد، ضرورة لجم الجسم عن الخطر الحقيقي. إنها تعبر أيضاً عن رغبةٍ إيجابية، الرغبة في وضع حدود وموانع أكثر شدةً على الحياة الشخصية. هناك ميل واسع في ثقافتنا، شعور بنهاية مرحلة، أن الإيدز يقوي نفسه؛ إنهاك للكثيرين من أصحاب المُثُل الدُنيوية - مُثُلٌ بدت أنها تشجع على الفجور أو على الأقل لا تقدم أي مانعٍ متماسكٍ ضده. السلوك الذي يثيره الإيدز هو جزء من عودةٍ شاكرةٍ أكبر لما يُفهَمُ أنه (تقاليد)، كالعودة إلى الصورة والمنظر العام، واللحن والنغم، والحبكة والشخصية، والرفض المتبَجِّح للحداثة الصعبة في الفنون. إن التقليل من أوامر النهي عن الاختلاط الجنسي والممارسات الجنسية الشاذة في الطبقة المتوسطة، الذي هو نمو للزواج الطبيعي الأمثل المقتصر على شريكٍ واحد، وتبيين ضرورة الحياة الجنسية اليقظة والواعية، لها أهميتها، لنقل، في ستكهولم، حيث يوجد عدد قليل جداً من حالات الإيدز، مثل أهميتها في نيويورك، حيث الإيدز منتشر على نطاقٍ واسع. إن الاستجابة للإيدز على الرغم من أنها عقلانية بشكلٍ جزئي، تُوَسِّعُ التساؤلات واسعة الانتشار والتي تصاعدت في شِدَتها خلال سبعينيات القرن العشرين حول العديد من المُثل (والمخاطر) المتعلقة بالحداثة المتنورة. والواقعية الجنسية الجديدة

تسير مع إعادة اكتشاف أفراح الموسيقى التصويرية، و«البوغو»، التي هي مهنة متعلقة بعمل البنوك الاستثمارية، والأعراس في الكنائس.

إن الرعب المتصاعد من مخاطر الممارسات الجنسية الترفيهية والتي أخضِعت للتجارة، من غير المحتمل أن تُقَلِلَ من مفاتن الأنواع الأخرى من الشهوات: من المُتَوَقّع أن تملأ دكاكين السلع النسوية بالتجزئة الأبنية في هامبورغ، التي كانت لا تزال حتى وقتٍ قريب مشغولةً من قبل مركز إيروس [إله الحب عند اليونان]. يجب أن تتم المبادلات الجنسية فقط بعد التفكير المسبق، أو [التروي]. إن الاستهلاك الروتيني للمخدرات التي تُنَشِّطُ طاقات العمل الفكري والنقاش الطويل (الذي برز أيضاً خلال سبعينيات القرن العشرين كان استعمال الكوكايين البورجوازي) قد قام بدوره في التحضير للعزوبة الجديدة وتضاؤل الممارسات الجنسية الطبيعية الدارجة بين المثقفين في هذا العقد. تُقَدِّمُ الآلات طرقاً شعبيةً جديدة لإثارة الرغبة والحفاظ عليها آمنةً وعقلانيةً قدر المستطاع: الدعارة المنظمة تجارياً بالهاتف (وفي فرنسا بوساطة الـ «مينيتيل») الذي يُقَدِمُ نسخةً من الجنس أو الممارسة الجنسية المختلِطة دون أسماء المشاركين، ودون تبادل السوائل الجنسية. والقيود على الاتصال الجنسي الآن لها مكانها في عالم الكومبيوتر أيضاً. يُنصَحُ مستخدمو الكومبيوتر بأن يعدوا كل جزءٍ جديد من المعلومات الحاسوبية «حاملاً أو ناقلاً محتملاً» لفايروسٍ ما. «لا تضع قرصاً في حاسوبك قبل أن تتأكد من مصدره». الأشياء التي تُسَمَّى برامج حقن التي تُسَوَّقُ يُقَال إنها تزوِّدُ ببعض الحماية، لكن الطريقة المؤكدة الوحيدة لكبح تهديد فايروسات الحاسوب، كما يجمع الخبراء، هي عدم تبادل البرامج أوالمعطيات أوالمعلومات الحاسوبية. إن ثقافة الاستهلاك يمكن أن تُحَرَّضَ فعلياً بتحذير المستهلكين من كل أنواع البضائع والخدمات، ليكونوا أكثر حذراً وأنانيةً، لأن مثل هذا القلق سوف يتطلب مضاعفة هذه البضائع والخدمات.

مكتبة
t.me/t_pdf

إن أوبئة الأمراض المرعبة خاصةً تثير صرخةً عاليةً واحتجاجاً ضد التساهل والتسامح دائماً، المعروف الآن بِالتراخي والضعف والفوضى والفساد: انعدام الحالة الصحية. هناك مطالبات بإخضاع الناس (للفحص الطبي)، من أجل فصل المرضى والمشكوك في أنهم مرضى أو ناقلون للمرض، ومن أجل إقامة العوائق ضد العدوى أو التلوث الحقيقي والمُتَخَيَّل الذي يجلبه الأجانب. تستجيب المجتمعات التي تُدار سلفاً بشكلٍ عسكريٍ منظم، مثل الصين (عدد حالات الإصابة بالمرض قليلة) وكوبا (التي فيها عدد كبير من الإصابات) بسرعةٍ أكبر وعلى الفور. الإيدز هو حصان طروادة لكل شخص: لقد أعلنت حكومة كوريا الجنوبية قبل أولمبياد 1988 بستة أشهر، أنها ستوزع بالونات جنسية مجانية على كل المشاركين الأجانب. (هذا مرض أجنبي بشكلٍ كامل، والطريقة الوحيدة لإيقاف انتشاره هي إيقاف الصلات الجنسية بين الهنود والأجانب). هذا ما صرَّح به المدير العام لمجلس الدولة الهندي للبحث الطبي، معترفاً بهذا التصريح بعدم قدرة الحكومة الهندية على الدفاع عن الناس الذين يقاربون البليون نسمة، والذين لا يوجد حالياً أي طاقم طبي مدرب للعمل في المشافي، كما لا توجد مراكز علاجية متخصصة بمرض الإيدز. واقتراح المدير بالحظر الجنسي، الذي يجب أن يُنَفَّذَ بفرض الغرامات والحبس، هو عمليٌ أيضاً، كوسيلةٍ لكبح جماح الأمراض

التي تنتقل بالممارسة الجنسية. ومن الاقتراحات الأكثر عموميةً التي هي الحجر الصحي أو الحبس. الحبس في معسكرات توقيف محاطة بالأسلاك الشائكة خلال الحرب العالمية الأولى، لنحو ثلاثين ألف أمريكية مومس أو مشكوك في أنها مومس، من أجل الغرض المعترف به والمعلن للسيطرة على السيفيلس بين المجندين الجدد، والذي لم يؤد إلى أي انخفاضٍ في معدل الإصابات. كان هذا مثل سجن عشرات آلاف الأمريكيين من أصولٍ يابانية خلال الحرب العالمية الثانية بسبب أنهم خونة وجواسيس محتملون، ربما لم يحبط أي عملٍ واحدٍ من الجاسوسية أوالتخريب. ذلك لا يعني أن اقتراحاتٍ مشابهةٍ سوف لا تُقَدَّم أو لا تلاقي الدعم اللازم، وليس فقط من قبل الناس المتوقع أن يقترحوا مثل هذه الاقتراحات. وإذا كانت المؤسسة الطبية بشكلٍ عام حصناً منيعاً للصحة والعقلانية حتى الآن، رافضين حتى تصور برامج الحجر الصحي والتوقيف أو الحبس، يمكن أن يكون سبب ذلك جزئياًهو أن أبعاد الأزمة لا تزال تبدو محدودةً، وتطور المرض لا زال مبهماً.

إن عدم التأكد إلى أي مدى سينتشر المرض -هل سينتشر بعد وقتٍ قصير وبين من سوف ينتشر- يبقى لب الكلام العام عن الإيدز. هل سيظل مقتصراً إلى حدٍ كبير أثناء انتشاره حول العالم، على تجمعاتٍ سكانيةٍ قليلة: الجماعات التي تُسَمَّى مجموعات الخطر ثم المجموعات الكبيرة من فقراء المدن؟ أو هو سيصبح أخيراً الوباء الكلاسيكي الذي سيؤثر على مناطق جغرافيةٍ كاملة؟ إن كلا الرأيين في الحقيقة خاضعان للنقاش في وقتٍ واحد. هناك موجة من الأقوال والمقالات التي تؤكد أن الإيدز يُهددُ كل واحد، ثم تتبعها موجة أخرى من المقالات تؤكد أن المرض هو مرض الـ (هم)، وليس مرض ال (نحن). لقد تنبأ وزير الصحة والخدمات الإنسانية في الولايات المتحدة، مع بداية عام 1987، أن الإيدز سيكون الوباء الذي سيجعل الطاعون أكبر وباءٍ سُجِّلَ حتى الآن على

النطاق العالمي، والذي قتل ما بين ثلث سكان أوروبا أو نصفها. يبدو (شاحباً بالمقارنة معه). وقال في نهاية السنة: (هذا ليس وباءً جماهيرياً ينتشر على نطاقٍ واسع بين الذين يمارسون الجنس المختلط والشاذ كما يعتقد العديد من الناس). والمزعج أكثر من الطبيعة المتكررة للخطاب أو النقاش الجماعي حول الإيدز جاهزية العديد من الناس، لِتَصَوِّر أفظع الكوارث الاجتماعية بعيدة التأثيرات.

هناك تأكيدات متعاظمة في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية أن (عامة السكان) هم في مأمن. لكن عبارة (عامة الناس) يمكن أن تكون رمزاً للبيض، كما هي رمز للممارسين للجنس المختلط والشاذ. كل واحدٍ يعرف أن السود يمرضون بالإيدز بشكلٍ غير متناسبٍ مع عددهم في القوات المسلحة وبشكلٍ غير متناسبٍ أبداً مع عددهم في السجون. يغتنم (فايروس الإيدز فرصته للتدمير بالتساوي) كان شعاراً لحملة الجمعية الأمريكية لبحوث الإيدز من أجل جمع التبرعات. وكان ذلك استحضاراً لِـ (مستخدم الفرص المتساوية) [صاحب العمل الذي يوفر فرصاً متكافئةً لجميع العاملين]. وعبارة (المرضى الذين هم دون أو أصغر من الوعي والإدراك أو الإحساس بالمرض) تؤكد ما يعني إنكار أن الإيدز هو مرض يبتلي في هذا الجزء من العالم الأقليات، العرقية والجنسية. وحول النبوءة المترنحة التي صدرت عن منظمة الصحة العالمية الذي يقفل الباب أمام التقدم السريع غير محتمل الحدوث في تطوير لقاح ضد الإيدز، سيكون هناك أكثر من عشر إلى عشرين ضعفاً من الإصابات بالإيدز في السنوات الخمس القادمة مما كان في السنوات الخمس الماضية، ويُزعَمُ أن معظم هذه الملايين ستكون من الأفريقيين.

لقد أصبح الإيدز بسرعة حادثاً كونياً -يُناقَشُ ليس فقط في نيويورك وباريس وريو وكينشاسا، ولكن أيضاً في هيلسينكي وبونوس آيريس وبكين وسينغافورة- عندما كان بعيداً عن السبب المؤدي إلى الموت في

أفريقيا، وأقل من ذلك في العالم. هناك أمراض مشهورة، كما هناك بلدان مشهورة، وهذه ليست بالضرورة الأكثر سكاناً. لم يصبح الإيدز مشهوراً جداً لأنه يبتلي البيض أيضاً، كما يؤكد بعض الأفارقة بمرارة. ولكن من الصحيح أيضاً القول إنه لو كان الإيدز مرضاً أفريقياً، على الرغم من موت العديد من الملايين، فإن قلةً من الناس خارج أفريقيا سيهتمون به. سيكون واحداً من تلك الأحداث «الطبيعية»، كالمجاعات، التي تدمر البلدان الفقيرة والمكتظة بالسكان بين الفترة والأخرى، والتي يشعر الناس في البلدان الغنية أنهم عاجزون حيالها، لأنه حدث عالمي -أعني، لأنه يؤثر على الغرب- فإنه لا يُعد كارثةً طبيعية. إنه مليء بالمعنى التاريخي. (جزء من التعريف الذاتي لأوروبا والبلدان التي أصبحت أوروبية هو أن العالم الأول، هو المكان حيث الكوارث العظمى هي مُغَيِّرة وصانعة للتاريخ، بينما في البلدان الأفريقية والآسيوية الفقيرة هي جزء من دورةٍ طبيعية، ولذلك هي شيء كمظهرٍ من مظاهر الطبيعة). ولم يصبح الإيدز عموماً، كما اقترح بعضهم، لأنه قد أصاب في البلدان الغنية أولاً مجموعةً من الرجال، معظمهم بيض، كان العديد منهم مثقفين وذوي مراكز اجتماعية ومعروفين أنهم يحسنون المداولة والنقاش وجذب الانتباه العام والموارد المخصصة للمرض. يحتل الإيدز حيزاً واسعاً من وعينا. إنه يبدو نموذج المصائب نفسه التي يشعر السكان الموسرون أنه ينتظرهم.

إن مايتنبأ به البيولوجيون وموظفو الصحة العامة هو شيء أسوأ بكثير مما يمكن أن نتصوره، أو أكثر مما يستطيع المجتمع والاقتصاد تحمله. لا يُظهِرُ أيُ موظفٍ يتحلّى بالمسؤولية أيَ أملٍ في أن الاقتصادات الأفريقية والخدمات الصحية تستطيع أن تتعامل مع انتشار المرض المتنبأ أنه سيضرب ضربته في المستقبل القريب، بينما يستطيع المرء أن يقرأ يومياً عن أعلى التقديرات كلفةً للإيدز على البلد الذي أعلن عن أكبر عددٍ من حالات الإيدز عنده، وهو الولايات المتحدة الأمريكية. ومن المدهش

أن مبالغ كبيرةً من المال استُشهِدَ بها ككلفة تقديم الرعاية الصحية الدنيا للناس الذين سيمرضون في السنوات القليلة القادمة. (هذا على افتراض أن التأكيدات(العامة السكان) هي مبررة، افتراض مُعَارَضٌ من قبل الكثيرين في الدوائر الطبية). إن الكلام في الولايات المتحدة، وليس في الولايات المتحدة فقط، يدور حول حالةٍ وطنية طارئة، ربما (بقاء أمتنا على قيد الحياة) قال محرر في جريدة النيو يورك تايمز: (كلنا نعرف الحقيقة، كل واحد منا. إننا نعيش في زمنٍ من الوباء الذي لم يصب أمتنا من قبل. نستطيع أن نتظاهر أنه لم يصبنا، أو أنه أصاب آخرين، ونستمر فيما نحن عليه وكأننا لا نعلم...) ويرينا مُلصَقٌ فرنسي كتلةً سوداء مثل اليو إف أو معلقةً فوقنا، ويتزايد سوادها بخيوطٍ عنكبوتيةٍ من الأشعة التي تشكل شكلاً سداسي الأضلاع للبلد التي تُرَى في أسفل الصورة. وقد كُتِبَ فوق الصورة «يعتمد هذا على كل واحدٍ منا أن نمحوَ ذلك الظل». وقد كُتِبَ في الأسفل «فرنسا لا تريد أن تموت بالإيدز». مثل هذه المناشدات الرمزية للمجتمع الجماهيري لكي تستجيب جموع الناس لمواجهة التهديد غير المسبوق، تظهر في فتراتٍ متعاقبة، في كل مجتمع جماهيري. إنه نموذجي أيضاً أن يظل مطلب تحرك الناس مطلباً عاماً، لأن الإيدز يعرض الأمة بأكملها للخطر. هذا النوع من البلاغة له حياته الخاصة به: إنه يخدم غرضاً معيناً إذا استمر في الإعلان للناس عن مثالٍ لتوحيد الممارسة الجماعية التي يُعارِضُها الجري وراء المسرات الشخصية وتراكمها، الشيء الذي يُفرَضُ على المواطنين في المجتمع الجماهيري.

بقاء الأمة على قيد الحياة، ويُقال إن بقاء المجتمع العالمي المتمدن عرضة للخطر. هي عبارة عن مزاعم تشي أنها جزء من بناء قضيةٍ للاضطهاد. (الشيء الطارئ يتطلب (إجراءاتٍ صارمة)، إلخ.) بلاغة نهاية العالم التي أثارها الإيدز بالتأكيد تَبني مثل هذه القضية. لكنها تعمل شيئاً آخر. إنها تستثير تأملاً بالكارثة لا يبالي باللذة أوالألم، وبالتالي يصبح تأملاً مُخَدَّراً

فاقداً للأحاسيس. لقد صَرَّحَ مؤرخ العلوم المشهور في جامعة هارفارد، «ستيفين جي غولد»، أن وباء الإيدز يمكن أن يكون في مصاف الأسلحة النووية (كأكبر خطرٍ في حقبتنا التاريخية). ولكن حتى ولو قتل ربع الجنس البشري -إمكانية اعتبرها «غولد» معقولة- (سيبقى الكثير منا على قيد الحياة، ونستطيع أن نبدأ من جديد). ومحتقراً لنُواح وعَّاظ الأخلاق، فإن العالِمَ العقلاني الإنساني يقترح أبسط عزاءٍ ممكن: رؤيا نبوئية خالية من المعنى. الإيدز هو (ظاهرة طبيعية)، (وليست حدثاً له معنى أخلاقي)، يبين غولد؛ (لا يوجد أية رسالة في انتشاره). طبعاً، إنه شيء مسخٌ أن نعطي معنىً أخلاقياً أو أن نطلق حكماً أخلاقياًعلى انتشار مرضٍ معدٍ ومسخٌ أقل بقليل أن نُدعى لتأمل الموت على هذا النحو المريع باتزانٍ ورباطة جأش.

إن الكثير من الكلام العام الذي يصدر عن قصدٍ طيب في زمننا يعبر عن رغبةٍ في الصراحة والإخلاص فيما يتعلق بالمخاطر المختلفة التي يمكن أن تؤدي إلى كارثةٍ شاملة. وهناك شيء أكثر من هذا. أضف إلى الإيدز موت المحيطات والبحيرات والغابات، وتزايد عدد السكان الذي لا يتوقف في الأجزاء الفقيرة من العالم، والحوادث النووية التي تقع بالصدفة مثل حادثة (تشير نوبل)، وثقب الأوزون وإفراغ هذه الطبقة منه، والتهديد الدائم بالمواجهات النووية بين القوى العظمى أو التهديد بالهجوم النووي من قبل واحدةٍ من الدول المارقة التي لا تخضع لسيطرة الدول العظمى. يمكن أن يكون ظهور التفكير التنبؤي الرؤيوي وتصاعده [مثل سفرالرؤيا] في العد التنازلي للألف الثالثة حتمياً، فاتساع أوهام المصير المحتوم الذي أوحى به الإيدز، لا يمكن أن يُفَسَّرَ عن طريق الرزناما فقط، أو حتى بالخطر الحقيقي الذي يُمَثِّلُهُ. هناك أيضاً حاجة إلى سيناريو تَنَبّؤي، الشيء الذي هو خاص بالمجتمع (الغربي)، وخاصةً الولايات المتحدة. (أمريكا، كما قال أحد الأشخاص، هي أمة بروح الكنيسة.. الكنيسة الإنجيلية التي هي عرضة لِإعلان النهايات الجذرية

والبدايات الجديدة جداً). والولع بسيناريوهات الحالة الصعبة ينعكس في الحاجة للسيطرة على الخوف مما يُحَسُّ أنه غير قابلٍ للسيطرة. إنه يُعَبِّرُ أيضاً عن التواطؤ الخيالي مع المصيبة. وإن الإحساس بالكرب والمحنة الثقافية أوبالفشل يفسح المجال لبروز الرغبة في كَنسٍ نظيفٍ، العقل الأملس. [العقل قبل استقبال أية انطباعات أو أفكار]. لا أحد يريد الوباء، طبعاً. ولكن، نعم، ستكون هناك فرصة للبدء من جديد. والبدء من جديد، أي أنه حديثٌ جداً، وأمريكي جداً، أيضاً.

يمكن أن يَمنَحَ الإيدز النزوعَ إلى التمرس أو التعود على آفاق الفناء الكوني الذي شَجَّع على تصوره وتصديقه، تجديد الأسلحة النووية وتكديسها. ومع تضخم البلاغة الرؤيوية أتى عدم حقيقية الرؤيا التنبؤية المتزايدة. هناك سيناريو معاصر ودائم: يلوح التنبؤ الرؤيوي في الأفق... ولكنه لا يظهر. ويستمر في الأفق. يبدو أننا واقعون تحت ضربات واحدٍ من أنواع التنبؤ الرؤيوي. هناك النبؤة التي لا تحدث، والتي تبقى نتيجتها معلقة: الصواريخ تحيط بالأرض فوق رؤوسنا، بحمولةٍ نووية يمكن أن تدمر كل الحياة لعدة مرات، لكنها لم تنفجر بعد. وهناك تنبؤات تحدث لكنها لا تبدو حتى الآن أن لها أكثر النتائج رعباً -مثل دين العالم الثالث الفلكي، ومثل التفجر السكاني، ومثل التلف البيئي؛ أو مثل الذي يحدث ثم (يُقال لنا) أنه لم يحدث- مثل انهيار سوق البورصة في أوكتوبر 1987 الذي كان مثل انهيار أوكتوبر 1929، ولم يكن انهياراً كما قالوا. التنبؤ الرؤيوي الآن هو مسلسل مستمر إلى أمدٍ طويل: ليس (تنبؤاً رؤيوياً الآن) ولكنه (تنبؤ رؤيوي) اعتباراً من الآن فصاعداً. التنبؤ الرؤيوي أصبح حادثاً يحدث ولا يحدث. يمكن أن يكون تنبؤاً ببعض الحوادث المخيفة أكثر من غيرها، مثل تلك التي تشتمل على التدمير الذي لا يمكن إصلاحه للبيئة، والذي حدث مسبقاً. لكننا لا نعرفه حتى الآن، لأن المقاييس تغيرت. أو لأننا لا نملك الجداول الصحيحة لقياس الكارثة وتقييمها. أو لأنه ببساطة هذه كارثة

في سيرٍ بطيء. (أو نشعر أنها تسير ببطء، لأننا نعرف عنها، ونستطيع أن نتوقعها، وعلينا أن ننتظر حدوثها، لنبقى على صلةٍ بالذي نعتقد أننا نعرفه).

إن الحياة المعاصرة تعودنا أن نعيش بالوعي المتقطع بالذي لا يمكن التفكير به والشاذ وغير السوي -لكن، يُقَالُ لنا، محتمل تماماً- وهو الكوارث. (كل حدثٍ كبير هو الذي يبرز على نحوٍ متكررٍ في مكانٍ ما، وليس فقط بوساطة تمثيله كصورةٍ مضاعفةٍ قديمة للواقع الآن، التي بدأت عام 1839، مع اختراع الكاميرا). وإضافة إلى المحاكاة الفوتوغرافية أو الإليكترونية للحوادث، هناك أيضاًحساب لنتيجتها النهائية. لقد تكاثرت الحقيقة الواقعية وازدهرت إلى أن أصبحت الشيء الحقيقي والنسخة البديلة عن هذا الحساب مرتين. هناك الحدث وصورته. وهناك الحدث ومسقطه. ولكن لأن الحوادث الحقيقية تبدو غالباً ليست حقيقيةً للناس أكثر من صورها، وأنها تحتاج إلى تأكيد صورها، لذلك فإن رد فعلنا على الحوادث في الحاضر يريد التأكيد العقلي بشكلٍ عام، مع الحسابات الملائمة للحدث في شكله المُتَخَيّل النهائي.

إن التركيز العقلي على المستقبل هو عادة عقلية مميزة، وفساد فكري، لهذا القرن مثل تركيز العقل على التاريخ، الذي كما أوضح «نيتشة» غير شكل التفكير في القرن التاسع عشر. نظراً إلى أنك قادر على تقدير كيف ستتطور المسائل إلى المستقبل هو نتاج ملازم حتمي لفهم عمليةٍ ما فهماً علمياً واجتماعياً، فهماً أكثر رقياً (ويمكن أن يُقاسَ هذا الفهمُ ويُختَبر). إن القدرة على إبراز الحوادث أوالأحداث للمستقبل ببعض الدقة يقوي من الشيء أو الأشياء التي تتكون القوة منها، لأنها مصدر واسع للتعليمات عن كيفية التعامل مع الحاضر. لكن الحقيقة هي أن النظرة إلى المستقبل، التي كانت مرةً مربوطةً بتقدمٍ خطي، بالمعرفة المتوافرة لنا أكثر من أي أحدٍ حلم به، تحولت إلى كارثة. كل عمليةٍ أو مسارٍ هو احتمال أو توقعٌ، ويدعو إلى توقعاتٍ مدعومةٍ بالدراسات الإحصائية. لنقل أن العدد الآن...

في ثلاث سنوات، في خمس سنوات، في عشر سنوات؛ وطبعاً، في نهاية القرن. كل شيء في التاريخ أو الطبيعة يمكن أن يُوصَفَ أنه سيتغير بثبات سائر نحو الكارثة. (إما الصغير جداً والذي سيصبح أقل: اضمحلالاً، وسيأفل نجمه ويقل. أو الكثير جداً، الأكثر من الذي نستطيع أن نتعامل معه أو نستوعبه: النمو الذي لا تمكن السيطرة عليه). إن معظم ما يعلنه الخبراء عن المستقبل يسهم في هذا المعنى المضاعف الجديد للواقع، وراء التضعيف أو المضاعفة المعتادين عليها سلفاً عن طريق مضاعفة كل شيء في صور متخيلة. هناك الذي يحدث الآن. وهناك ما تنذر به أو تتوقعه للمستقبل: القريب ولكن ليس حتى الآن المستقبل الفعلي، الكارثة التي هي ليست حتى الآن مفهومةً في الحقيقة.

هناك نوعان من الكارثة، في الحقيقة. وهناك فجوة بينهما يتخبط الخيال فيها. فالفرق بين الوباء الموجود لدينا والوباء الموعودين به (عن طريق الاستقراءات الإحصائية الحالية) هو مثل الفرق بين الحروب الموجودة حالياً، والحروب التي تُسَمَّى محدودةً، والحروب الأكثر ترويعاً التي يمكن أن تواجهنا، الأخيرة (بكل توابعها من الخيال العلمي) التي هي نوع من نشاط الناس المدمنين على إشعالها من أجل التسلية، كالألعاب الإلكترونية. لأن وراء الوباء الحقيقي بضريبة الموت المتصاعدة التي يأخذها بشكلٍ لا يمكن الفكاك منها (تصدر الإحصائيات من قبل المنظمات الطبية الوطنية والدولية كل أسبوع، وكل شهر) هناك مصيبة مختلفة نوعياً وأفظع بكثير نعتقد أنها سوف تحدث وسوف لا تحدث. لا شيء يتغير عندما تُراجَعُ معظم التقديرات المرعبة من الأعلى إلى الأسفل، بشكلٍ مؤقت، الشيء الذي هو صفة ليست غالبةً لهذه التقديرات. إنها صفة الإحصائيات التي لا تزال بين أخذ ورد، لكنها نُشِرَت من قبل موظفين طبيين وصحفيين. ومثل التنبؤات الديموغرافية، التي هي بالدقة نفسها، الأخبار الكبيرة عادةًهي أخبار سيئة.

إن تكاثر التقارير والتوقعات غير الحقيقية (بمعنى أنها غامضة وغير مفهومة) بأحداثٍ غير متوقعة وكأنها في يوم القيامة يميل لأن ينتج تنوعاً من الاستجابات المنكرة للحقيقة. وهكذا، في معظم المناقشات المتعلقة بالحرب النووية، نظراً إلى أنها عقلانية (الوصف الذاتي للخبراء) يعني عدم الاعتراف بالواقع الإنساني، بينما يأخذون بعين الاعتبار وبشكلٍ عاطفي أن جزءاً صغيراً من هذه المناقشات يجب أن يتناول الخطر على البشر (هذا موضوع نقاش أولئك الذين يعدون أنفسهم مهددين أكثر من غيرهم). وهذا الشيء يعني، بالنسبة لهم، الإصرار على المطالب غير الواقعية بالنزع السريع للخطر [عن طريق تقليص عدد الأسلحة النووية]. هذا الانقسام في وجهة النظر العامة إلى غير الإنساني والإنساني الكامل هو أقل قسوةً وصرامةً من الموقف إزاء الإيدز. يستنكر الخبراء النماذج التي لا تتبدل من المواقف الملصقة بمرضى الإيدز وبالبلدان التي يُقَالُ إنها كانت بلدان المنشأ أو بلد المنشأ لهذا الوباء. وهم يؤكدون أن المرض يتبع شعوباً أكثر عدداً بكثير من المجموعات السكانية التي كانت عرضةً للخطر عند بداية انتشار المرض، ويتبع العالم كله، وليس أفريقيا فقط[1].

1- «لا يمكن وقف الإيدز في أي بلد إلا إذا أُوقِفَ في كل البلدان»، صرح الرئيس المتقاعد لمنظمة الصحة العالمية في جينيف، د. «هالفمان ماهلر»، في المؤتمر الدولي الرابع الخاص بالإيدز (ستوكهولم، حزيران 1988)، حيث كانت طبيعة أزمة الإيدز المغزى الرئيس الذي نُوقِشَ في المؤتمر. قال د. «ويلي روزينباوم»، اختصاصي مرض الإيدز: «هذا الوباء هو عالمي وهو لم يوفر أية قارة». «لا يمكن السيطرة عليه في الغرب إلا إذا غُلِبَ على أمره في كل مكان». بالمقارنة مع بلاغة المسؤولية الكونية، التي هي اختصاص المؤتمرات الدولية، يُسمَعُ، بشكلٍ متزايد، الرأي القائل إن الإيدز يُعد نوعاً من الاختبار الداروينى لقابلية أو قدرة مجتمعٍ ما على البقاء، الشيء الذي يتضمن شطب أو محو البلدان التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها ضده. وقد صرح د. آيك بريجيت هيلم، اختصاصي إيدز ألماني، أنه يمكن أن «يُلاحظ سلفاً أنه في عدة أنحاء من العالم، سوف يُغَيِّرُ الإيدز، بشكلٍ كبير، بنية السكان، خاصةً في أفريقيا وأمريكا اللاتينية. وأن المجتمع غير القادر، بشكلٍ أو بآخر، أن يمنع انتشار الإيدز، هو مجتمع فقير الآمال بالمستقبل».

لأنه بينما اتضح أن الإيدز، ليس مما يثير الدهشة، هو من أكثر الأمراض المثقل بالمعاني، مع الجذام والسيفيلس، ومن الواضح أن هناك نوعاً من الإحجام عن دافع وصم الناس بهذا المرض. الطريقة التي صار الإيدز مُستَقَرّاً ملائماً لأكثر مخاوف الناس عموميةً حول المستقبل، يجعل في أن نلصق المرض بمجموعةٍ منحرفةٍ من الناس أو بالقارة السمراء إلى حدٍّ ما شيئاً عديم الأهمية.

إن أزمة الإيدز مثل آثار التلوث الصناعي والنظام الجديد للأسواق المالية العالمية، هي البرهان على أن عالماً خالياً مما هو مهم هو عالم محلي ومناطقي ومحدد؛ فكل شيء يمكن أن ينتشر فيه، وكل مشكلة هي، أو مُقَدَّرٌ لها أن تصبح عالمية.

تنتقل البضائع (بما فيها الصور والأصوات والوثائق، التي تنتقل أسرع من كل الأشياء الأخرى إلكترونياً). وتنتقل الزبالة: المخلفات الصناعية السامة لِإتيان وهانوفر وميستر وبريستول تُرمى في مدن غرب أفريقيا الساحلية. الناس ينتقلون بأعدادٍ أكبر بكثير مما هو معروف حتى الآن. والأمراض أيضاً كذلك. من الطيران غير المقيد من أجل السياحة والأعمال الذي يقوم به ميسرو الطبقة الوسطى عبر القارات إلى الهجرة غير المسبوقة لأفرادٍ من الطبقات المحرومة والفقيرة، من القرى والمدن، وبشكل قانوني وغير قانوني، ومن بلدٍ إلى آخر - كل هذه الحركة والتداخل والتشابك الناتج (المصاحب لتفكك المحرمات الاجتماعية والجنسية) هو ضروري من أجل تفعيل الاقتصاد الرأسمالي العالمي المتقدم وعمله، بمقدار سهولة انتقال البضائع والصور والأدوات المالية. ولكن الآن ذلك التشابك والتداخل العالي المستوى المعاصر في الفضاء، الذي ليس شخصياً فقط، بل هو اجتماعي وبنيوي أيضاً. هذا التشابك هو حامل لخطرٍ صحي يوصف أحياناً أنه خطر على الجنس البشري نفسه. والخوف من الإيدز يرافقه تيقظ للكوارث الأخرى القادمة التي هي نتائج

فرعية لتطور المجتمع المتقدم، خاصةً تلك النتائج المتعلقة بتلوث البيئة على النطاق العالمي. إن الإيدز هو أحد النذر السيئة بالقرية الكونية، والمستقبل الذي هو هنا الآن مسبقاً ودائماً أمامنا، هو الذي لا أحد يعرف كيف نرفضه.

من المرغوب به بالنسبة لمرضٍ معينٍ مرعب أن يبدو عادياً. حتى المرض المشحون بالمعاني يمكن أن يصبح مجرد مرض. لقد حدث هذا للجذام، مع العلم أن نحو عشرة ملايين من الناس في العالم، الذين من السهل نسيانهم لأنهم يعيشون في أفريقيا وفي شبه القارة الهندية، لديهم الآن، الذي يُسَمَّى، كجزءٍ من نظرةٍ مسرحيةٍ له، مرض «هانسن» (مأخوذ من اسم الطبيب النرويجي الذي اكتشف عصيته الجرثومية، قبل نحو قرن من الزمان). إنه مرتبط بحدوث الإيدز، عندما يُفهَمُ المرض بشكلٍ أفضل، وفوق كل شيء آخر، يمكن علاجه. أما في الوقت الحاضر، يعتمد الكثير مما هو في طريق التجربة الشخصية والسياسات الاجتماعية، على النضال من أجل الملكية البلاغية للمرض: كيف هو من ملكية فلان... أو ملكية... إلخ. كيف هو مُستَوعَبٌ في النقاش والوصف وفي الكليشي. إن عملية اكتساب الأمراض للمعاني التي تبدو قديمةً قدم التاريخ ولا يمكن معاندتها (بأن تصبح الأمراض رموزاً لأعمق المخاوف) وتبلي الناس بوصمات العار، تستحق التحدي دائماً، ويبدو أن مصداقيتها محدودة في العالم المعاصر، بين الناس الذين يريدون أن يكونوا عصريين، هذه العملية هي الآن تحت المراقبة والفحص. ومع هذا المرض، المرض الذي يثير كثيراً من الشعور بالذنب والعار، الجهد الموجه لفصله عن هذه المعاني، هذه الاستعارات المجازية، يبدو حتى أنها تحررية ومواسية. ولا يمكن إبعاد الاستعارات فقط بالامتناع عن استعمالها. يجب أن تُكشَفَ وتُعَرَّى وتُنتقَدَ وتُهاجَمَ ويُسخَرَ منها وتُستَهلَك.

ليست كل الاستعارات المستخدمة لوصف الأمراض وعلاجها

متساويةً في الكراهية والتشويه. الاستعارة التي أنا في رغبة أن أراها متقاعدةً -منذ ظهور الإيدز- هي الاستعارة العسكرية. ونقيضها، الموديل الطبي للخير العام أو الصالح العام، ربما هو أخطر وذو أثرٍ أبعد في نتائجه، لأنه لا يقدم تبريراً مقنعاً فقط لنظام السلطة الحاكمة، ولكنه يقترح ضمناً ضرورة القهر أو الاضطهاد برعاية الدولة وضرورة العنف (وهذا يتساوى مع الاجتثاث الجراحي أو السيطرة الكيميائية على العضو أوالأعضاء المشاكسين و(غير الصحيين) من أعضاء النظام السياسي). لكن أثر الصور والتشبيهات العسكرية على التفكير بالمرض والصحة هي أيضاً ذات آثارٍ كبيرة. إنها تحرك الناس أكثر من اللازم، تصف أكثر من المعتاد، وتسهم بقوةٍ في العزل الاجتماعي ووصم المرضى بالعار والعيب.

لا، إنها ليست مرغوباً فيها من أجل الطب، ولا من أجل الحرب، أن تكون (كليةً). ولا هي الأزمة التي أوجدها الإيدز أي شيءٍ كلي. نحن لسنا مستهدفين بالغزو. الجسم ليس أرض معركة. ليس المرضى إصابات لا يمكن تجنبها ولا العدو كذلك. نحن - الطب - المجتمع - لسنا مخولين أن نحارب حرباً دفاعية بأية طريقةٍ كانت... حول تلك الاستعارة، الاستعارة العسكرية، أرغب أن أقول: إذا استطعت شرح «لوكريتوس» أرجعها إلى صنّاع الحروب.

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتويات

المرض كاستعارة 5

مقدمة المترجم 7

الجزء الأول 9

الجزء الثاني 13

الجزء الثالث 23

الجزء الرابع 29

الجزء الخامس 39

الجزء السادس 45

الجزء السابع 53

الجزء الثامن 61

الجزء التاسع 75

مرض المناعة المكتسبة واستعاراته 89

الجزء الأول 91

الجزء الثاني 101

الجزء الثالث 109

الجزء الرابع 121
الجزء الخامس 127
الجزء السادس 143
الجزء السابع 153
الجزء الثامن..... 161

مكتبة

telegram @t_pdf

المرض هو الجانب المظلم من الحياة. إنه مواطَنَة مرهقة وشاقة، فكل شخص ولد مواطناً في مملكة الأصحاء، وفي الوقت نفسه يُولد مواطناً أيضاً في مملكة المرضى. ومع أننا جميعاً نفضل أن نحمل جواز سفر مملكة العافية، فنحن مجبرون آجلاً أم عاجلاً على الأقل لفترةٍ من الزمن، أن نعد أنفسنا مواطنين في مملكة المرض.

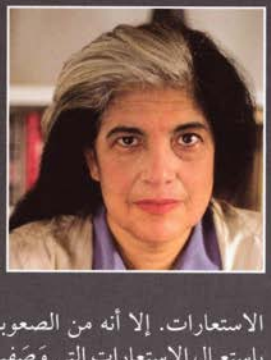

أريد أن أتكلم، ليس عن معنى الرحيل إلى مملكة المرض والعيش هناك، ولكن عن الأوهام العقابية أو العاطفية الملفقة عن المرض، وليس عن الانتقال مكانياً، بل عن نماذج لهذه الأوهام التي أخذت طابعاً أو صفاتٍ قومية. إن موضوعي ليس المرض نفسه، بل استعمالات المرض كاستعارة. موضوعي هو أن المرض ليس استعارة، وأن أصدق نظرةٍ إلى المرض، وأكثر الطرق صحةً في نظر الشخص المريض لمرضه، هي أن يتطهر منه، وأن يكون أشد الناس مقاومةً للتفكير البلاغي واستعمال الاستعارات. إلا أنه من الصعوبة بمكان النظر إلى السكن في مملكة المرض دون تحيُّز، باستعمال الاستعارات التي وَصَفت المرض وصورته.

إنني أكرس هذا التحقيق لشرح هذه الاستعارات وتفنيدها، وتحرير النظرة إلى المرض منها.

9 789933 617936